المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
الشؤون المدرسية إدارة المقررات



قررت وزارة المعارف تدريس
هذا الكتاب وطبعه على نفقتها



تاريخ الحضارة الإسلامية

للصف الثالث الثانوي
(القسم الأدبي)

تأليف

الدكتور حامد شاكر حلمي
الدكتور محمد سعيد الشعفي
أحمد موسى البكري
الدكتور طه عثمان الفرا
الدكتور أسعد سليمان عبده



الطبعة السادسة
١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

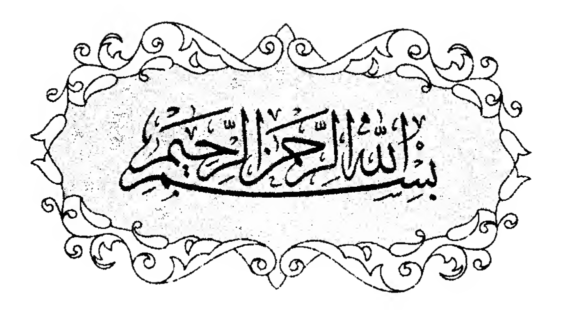
يوزع مجاناً ولا يباع

أشرف على تأليفه ومراجعته

الإدارة العامة للمناهج بالتطوير التربوي

أشرف على طباعته وتصحيحه

إدارة المقررات المدرسية بالشؤون المدرسية


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم الرسل والنبيين وبعد ، فبعد التوكل على الله جل شأنه ، قمنا ، بناء على تكليف من وزارة المعارف الموقرة بتأليف هذا الكتاب الذي يتناول منهج التاريخ للصف الثالث الثانوي / القسم الأدبي في الحضارة الإسلامية .

ولقد عملنا جاهدين على إبراز الحقائق الأساسية لحضارتنا الإسلامية التليدة في جميع نواحيها ، ودعمنا ذلك بالأرقام الضرورية والوسائل التعليمية المناسبة التي تعكس شمس حضارتنا في مجالات الصناعة والعمارة والفنون .

ولجأنا إلى لغة واضحة في إخراج هذا الكتاب الذي اختتمناه بفصل عن ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشارها وبيان فضلها على العالم عامة وأوروبا خاصة لكي نوضح موقفنا ، نحن المسلمين ، من الحضارة الغربية .

ونأمل أن نخرج من هذا كله إلى زيادة اعتزازنا بماضينا الحضاري الحي لننطلق بعزم المؤمنين وحماسة المصلحين وخبرة العارفين إلى إثراء إرثنا الحضاري هذا والوصول إلى مصاف الأمم الراقية كما كنا سادة لمدنية العالم في الماضي .

إننا نرجو أن ينال جهدنا المتواضع هذا عناية أبناء هذه الأمة الكريمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس .

والله نسأل أن يشد أزرنا ويعيننا على ما يحبه ويرضاه . إنه جلت قدرته نعم المولى ونعم النصير .

المؤلفون

توجيهات إلى الأخوة المعلمين

ويستحسن أن يَلُمَّ المعلم بعناصر المنهج وموضوعات الكتاب ، ويحاول أستكمال أي نقص به سواء في موضوعاته أو وسائله المعينة . ويلم أيضاً بأهداف المنهج حتى يوصلها لطلابه ، ويرسم خطة واضحة لتنفيذ منهجه في الزمن الملائم ، مع أعطاء فرصة للمراجعة العامة .

ويستحسن أيضاً أن ينوع المعلم في طرق تدريسه ، ويختار الطريقة المناسبة لدرسه . ويستخدم من الوسائل المعينة التي تساعده في شرحه على أن يعرضها في الوقت والمكان المناسبين .

وأن يعتمد في شرحه على المناقشة الموضوعية ، وأستنتاج عناصر الدرس ، وأن يكون دوره التوجيه والربط .

وأن يكون النشاط المصاحب للمادة والذي يقوم به الطلاب لخدمة المنهج وشرح موضوعاته .

وعلى المعلم أن يستعين بعدة مراجع علمية حتى يضطلع على الآراء المتعددة في كل موضوع ، مما يعطيه القدرة على الألمام والفهم والتحليل ويلاحظ توزيع موضوعات الكتاب على التعليم العالي كالتالي :

يبدأ الفصل الدراسي الأول من أول الكتاب حتى صفحة **١٣٨** ، على أن يبدأ الفصل الدراسي الثاني من صفحة **١٣٩** بموضوع العلوم الشرعية **حتى آخر الكتاب .**

أما ثانوية مدارس تحفيظ القرآن الكريم للعام الدراسي ١٤٠٩ هـ

الفصل الدراسي الأول

تدريس فيه الموضوعات التالية :

من الباب الأول : « النظم الإسلامية »

الفصل الأول : خصائص النظم الإسلامية .

الفصل الثاني : النظام الأساسي .

من الباب الثاني : « الحياة العلمية »

الفصل الأول : اهتمام المسلمين بالعلم والتعليم .

الفصل الثاني : نظام التربية الإسلامية .

الفصل الدراسي الثاني

تدرس فيه الموضوعات التالية :

من الباب الثاني :

الفصل الرابع : العلوم الكونية .

من الباب الثالث : « معالم الحضارة الإسلامية »

الفصل الثاني : العمارة الإسلامية .

الفصل الرابع : ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وانتشارها .

١ – وعليك أيها الزميل الكريم أن توضح أن الحضارة الإسلامية قامت في وقت كانت فيه أوربا غارقة في الجهل والخرافات .

٢ – وأن توضح أن الدين الإسلامي يدعو ويحض على تلقي العلم ، واحترام العلماء ، مما ساعد على التقدم العلمي . هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

٣ – كما يجب أن تبرز ، أن الحضارة لا يمكن قيامها إلا مع الأستقرار السياسي ، وتمويل معاهد العلم ورعاية العلماء . ولما أكتمل كل ذلك في العصر العباسي ، ازدهرت الحياة العلمية ، فأنتشرت الترجمة ، تم تأليف الكتب في المجالات المختلفة .

٤ – وأن توضح أن لغة العلم في هذا العصر ، كانت اللغة العربية ، وكان على من يرغب أن يتعلم ، أن يدرس أولًا اللغة العربية .

٥ – وأن توضح أيضا أن العالم الإسلامي كله كان عبارة عن مراكز حضارية متصلة متكاملة تكمل بعضها بعضا .

٦ – وأنه عندما أرادت أوربا أن تقيم حضارتها اتصلت بمراكز الحضارة الإسلامية القريبة منها ، وأخذت عنها ، مما ساعد بجوار عوامل أخرى على قيام الحضارة الأوربية المعاصرة .

والله نسأل التوفيق والسداد لأبنائنا الطلبة .

محتويات منهج التاريخ
للصف الثالث الثانوي

الفرع الأدبي (ثلاث حصص في الأسبوع)

. . . . . .

الحضارة الإسلامية وأثرها في الحضارات الأخرى

(أ) النظم

١ ـ النظم الإسلامية: شمول الشريعة الإسلامية لما يكفل مصالح البشرية في كل عصر، بناء النظم الإسلامية على ما يحقق هذه المصالح.

٢ ـ النظام السياسي:

(أ) الخلافة.

(ب) الحجابة.

(جـ) الوزارة بنوعيها: وزارة التنفيذ، ووزارة التفويض.

(د) الكتابة بأنواعها: كتابة الرسائل، كتابة الخراج، كتابة الجند، كتابة الشرطة، كتابة القضاء.

٣ ـ النظام الإداري:

(أ) تولية العمال والولاة.

(ب) الدواوين: ديوان الخراج، ديوان الرسائل، ديوان المستغلات، ديوان النفقات، ديوان الصدقات، ديوان الجند، ديوان الطراز، ديوان البريد، ديوان الخاتم، ديوان الزمام «الديوان الرابط لجميع الدواوين»، ديوان المظالم، ديوان الصوافي، ديوان الاستخراج.

(ج) الجيش : الجيش النظامي ، المتطوعة ، عدة الجيش وإعداده وتفقده . . المهمة الإسلامية للجيش ، الصوائف والشواتي ، الثغور والعواصم .

(د) البحرية وبناء السفن والشواني وتجهيزها بالأسلحة والمدافع والمكاحل .

(هـ) البريد : صاحب البريد ومهامه ، أنواع البريد : السريع ، الجوي (بالحمام الزاجل) ، الإشاري الضوئي : (الاتصال بالإشارات الضوئية) .

(و) السكة ودار الضرب .

(ز) الشرطة والعسس .

(ح) نظام الزراعة والصناعة والتجارة .

٤ ـ النظام المالي :

(أ) بيت المال ، مهمته ، تاريخه ، أنواعه ، علاقته بدرجة الرقي الحضاري .

(ب) موارد بيت المال : الزكاة ، الخراج ، الجزية ، الغنيمة ، الفيء ، العشور ، ريع المناجم الحكومية ، المواريث الحشرية (مواريث من لا وارث لهم) .

(ج) مصارف بيت المال ، مصارف الزكاة ، مصارف بيت المال العام .

(د) أمثلة على وضع بيت المال في عهود : عمر ، والوليد ، والمنصور ، وعبد الرحمن الناصر ، والمماليك ، والعثمانيين .

٥ ـ النظام القضائي :

(أ) مهمة القضاء وأسسه والشروط التي تراعى في القضاة .

(ب) استقلال القضاء ، سموه ، سلطانه .

(ج) نشأة القضاء وتاريخه وموقف الخلفاء والحكام منه .

(د) سمات القضاء العامة ، ومكانته في المجتمع الإسلامي .
(هـ) صور من القضاء الإسلامي خلال العصور .
(و) نماذج من رجال القضاء : كشريح القاضي ، وإياس بن معاوية ، وشريك ، وبكار بن قتيبة ، والمنذر بن سعيد البلوطي ، العز بن عبد السلام ، والفناري .
(ز) نظام الأوقاف ، وعلاقته بالقضاء .
(ح) الحسبة .

٦ ــ محاسن النظام الإسلامي ، وبيان أن ما قد يعرض له أحياناً من سوء التنفيذ لا يضيره ولا يخل بمزاياه .

(ب) الحياة العلمية

١ ــ ما كان للعلم من أهمية لدى الفرد والمجتمع ، الحرص عليه والاهتمام به والتحمل في سبيله ، تشجيع الخلفاء والأمراء عليه ورعايتهم إياه وتكريمهم أهله .

٢ ــ التربية :
(أ) صفات العلماء وأخلاقهم ، خطتهم في التعلّم ، طرائقهم في التعليم ، الخصائص العامة للتربية الإسلامية .
(ب) المدارس ، نشوءُها المبكر ، تعدد أنواعها ، الجامعات الإسلامية الكبرى منذ القرن الرابع ، التنافس في بناء المدارس والوقف عليها ، كثرتها المذهلة .
(جـ) خزائن الكتب : الحرص على اقتناء الكتب لدى الحكام والأفراد ، والبذل لها ، وترتيب النساخ للنسخ المتواصل ، نماذج من خزائن الكتب في الأندلس والمغرب والعراق والشام وفارس وغيرها .

٣ ــ العلوم الأساسية :
(أ) تمهيد عن العلوم لدى المسلمين ، وفروعها العديدة ، واهتمامهم

بها ، والتصانيف الكثيرة في كل علم منها وفن وفي كل شعبة وفرع .

(ب) أهم العلوم التي تميز بها المسلمون :

العلوم القرآنية : التفسير والقراءات وعلوم القرآن .

علوم السنَّة : الحديث ، مصطلح الحديث ، علم الرجال ، علم الجرح والتعديل .

العلوم الفقهية : أصول الفقه ، الفقه .

(ج) العلوم الكونية والصناعات

١ ــ العلوم الكونية :

(أ) نبوغ المسلمين المبكر في هذا الجانب أيضاً ، استئناسهم بما عند الأمم الأخرى ثم تمحيصهم له وتنقيحه والابتكار الواسع بعد ذلك .

(ب) منهجهم في البحث ، انحراف بعض من أغرق منهم في الفلسفة .

(ج) رعايتهم من قبل الحكام وتشجيع السلاطين للبحث والإنتاج والتأليف .

٢ ــ مآثر العلماء المسلمين في العلوم الكونية :

(أ) في العلوم الرياضية :

في الحساب ، في الجبر ، في الهندسة ـ بأنواعها ـ في المثلثات ، في الفلك والأزياج والآلات الفلكية .

(ب) في العلوم الطبيعية :

في الكيمياء ، في الفيزياء ـ بفروعها ـ .

(ج) في الطب والأحياء :

في الطب ، في الجراحة ، في الصيدلة ، في الحيوان ، في النبات .

٣ ــ الصناعات :

(أ) رقي الصناعة ، وانتشارها وإنتاجها الغزير الذي كان يسد حاجات

العالم الإسلامي الواسع والعالم الأوربي .

(ب) أبرز الصناعات :

صناعة الورق .

صناعة الزجاج ، بأنواعه ، الرقيق الصافي ، والملون .

صناعة السكر .

صناعة الأقمشة بأنواعها المختلفة . . والفراء .

صناعة الأصبغة .

صناعة السفن .

صناعة الآلات الحربية ، صناعة البارود .

صناعة النفط .

صناعة الساعات ، صناعة الأجهزة والأدوات المختلفة .

صناعة الفخار والخزف ، صناعة القاشاني ، صناعة الفسيفساء .

صناعة الحلي ، الصياغة .

صناعة الآلات الفلكية .

صناعة الآلات الجراحية .

صناعة الأدوية .

الصناعات المعدنية .

صناعة التجليد ، صناعة العاج ، صناعة الحرير ، صناعة الجلود ، صناعة زيت الزيتون .

٤ ـ العمران والمرافق العامة :

(أ) البناء :

بناء المساجد ، بناء المدارس ، بناء البيمارستانات ، بناء المراصد ، بناء القصور وغيرها .

(ب) المرافق العامة :

تخطيط المدن ، الشوارع ، الشبكة المائية ، كرى الأنهار ،

السدود ، الجسور والقناطر ، المرافق الأخر .

٥ ـ ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشارها في دول العالم عامة وفي أوربا خاصة عن طريق الاحتكاك بالمسلمين في الأندلس وصقلية والحروب الصليبية .

قيام الحضارة الأوروبية على الجانب المادي من الحضارة الإسلامية .

انعكاس ذلك على العالم الإسلامي .

ضرورة قيام الحضارة الإسلامية المتكاملة روحاً ومادة .

الفصـل الدراسي الأول

البـــاب الأول

الـنـظـم الإسـلامـيـة

الـفـصـل الأول

خصائص النظم الإسلامية

إن للأمة الإسلامية نظمها التي أسـهمت في بنـاء حضـارتها وتـاريخها المجيد ، واستمرت تثري البشرية بمعطياتها الروحية وتجاريها الإنسانية الرفيعة . وجدير بنا أن ننتقل إلى ملامح هذه النظم الإسلامية وخصائصها المتميزة .

أما النظم الإسلامية ، التي نمت واتسقت عبر العصور الإسلامية والتي سنتعرض لها بإذن الله بمزيد من التفصيل في فصول هذا الباب ، **فهي تشمل** : **النظام السياسي** الذي يتناول نظام الخلافة (رياسة الدولة) ، والحجابة ، والوزارة ، والكتابة ، والتعريف بكل هذه النظم ومهامِّها والشروط التي تتوافر فيمن يتولون شئونها .

وتشمل النظام الإداري الذي يضم الإمارة والدواوين والجيش والبحرية والسكة (النقود) ، والشرطة والحسبة ، والتعريف بكل هذه النظم ومهامها وما يقدم كل منها من خدمات .

وتشمل النظام المالي الذي كانت تسير بموجبه الدولة الإسلامية في شئونها المالية ويتمثل في بيت مال المسلمين وسبل تنمية موارده والإنفاق على المشروعاتِ العلمية والدينية والمصالح العامة

ومن هذه النظم أيضاً **النظام القضائي** الذي أشاع العدل بين رعايا الدولة الإسلامية من المسلمين والملل الأخرى ، امتثالاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [1]

إن هذه النظم ، التي بنيت على تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وما فيها من خير للبشرية جمعاء ، تتميز بالكثير من الخصائص والميزات التي نلخصها فيما يلي :

١ ــ إن القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة هما المعين الخالد الذي استقت منه كل النظم الإسلامية مقوماتها .

ففي القرآن الكريم دعوة صريحة لاستغلال ما في هذا الكون من طاقات ونعم متعددة وذلك بالعمل الدءوب من أجل رفاهية الإنسان وتطبيق ما منحه الله تعالى من مواهب في كل ما يسعى إليه من أعمال في هَدْي التوجيهات الربانية . ثم جاءت السنّة النبوية وتعاليم الخلفاء الراشدين لتضفي على هذه النظم إشراقتها الحضارية ومتانتها في دنيا الواقع .

٢ ــ إن هذه النظم جاءت شاملة ومتكاملة وإنسانية فيما ترمي إليه من سعادة الفرد والمجتمع معاً ، لأنها تناولت كل ما ينشده الإنسان في سبيل الخير والرحمة والكرامة .

٣ ــ إن هذه النظم أبدعت في تثبيت العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي . سواء بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو بين مختلف الأفراد والجماعات والشعوب ، وحددتها بين العبد وربه . فالناس كلهم عبيد الله وكلهم سواسية أمامه ، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم وعربيهم وعجميهم ولا فضل لأحد على غيره إلا بالتقوى أي بالعمل الصالح وفق أحكام الشريعة .

٤ ــ إن هذه النظم تميزت بالرفعة والقدرة العجيبة لمقابلة الأحوال الإنسانية المتغيرة في كل زمان ومكان والمتلائمة مع تطور المجتمع الإسلامي عبر عهوده المتعددة . فقد ابتكر المسلمون واقتبسوا وأوجدوا أصولاً حضارية

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة النساء .

وقواعد في السلوك وفي الفكر والعمل عمَّ نفعها العالم بأسره . ذلك لأن الإسلام يمقت الجمود والتخلف والجهل . ويرفع من كرامة الإنسان ويحضه على أن يكون قوة فاعلة في البناء والإعمار والخير .

٥ ـ إن هذه النظم بمرونتها وشمولها وإنسانيتها ومساواتها بين الناس وبتوكيدها على العناية بالعلم والمعرفة ، عملت على نشر الدين الإسلامي في مختلف أرجاء العالم . فعمرت قلوب معتنقيه من بني البشر بتقوى الله وبقيمة الإنسان في هذا الكون وبمكانته فيه فأعادت له إنسانيته الحقة .

إن هذه النظم التي أعطت الحضارة الإسلامية أصالتها والمسلمين قوتهم ، قد تأثرت بما أصاب العالم الإسلامي من خراب ودمار بفعل غارات التتار حتى أقفرت كثير من الأراضي الزراعية وساءت الأحوال الاقتصادية واضطهد العلماء وشردوا في البلاد فانحط المستوى العلمي وضاق مستوى الطموح بين الناس .

وفي القرن الماضي أُخضِعَت معظم بقاع العالم الإسلامي للاستعمار الغربي بكافة أشكاله . والمستعمرون لا يفكرون إلا بإبقاء الأمم ، لا سيما الخاضعة منها لهم ، متخلفة لامتصاص خيراتها ونشر المبادئ المنحرفة بين أهلها حتى يبقوا مستعبدين لمن يحكمونهم .

ومن الأمور الأخرى التي يلجأ إليها المستعمرون للوصول إلى هذه النتيجة إشاعة الأقاويل عن عدم قدرة نظم البلاد المستعمَرة عن مسايرة التطور الحضاري . لقد أشاع المستعمرون هذه الأقاويل بالنسبة للمسلمين إلا أن المنطق السليم يدحض هذه الافتراءات . فالنظم الإسلامية مرنة وتساير كل تطور وإن حدث ما يتعارض مع هذه الحقيقة فإن مرده إلى عدم تطبيق المسلمين نظمهم الإسلامية تطبيقاً سليماً ودقيقاً . إذ عندما اتبع المسلمون في مختلف عهودهم

نظمهم وساروا بموجبها سادوا العالم ونشروا في ربوعه الخير والاستقرار .

هذا وقد بدأ العالم الإسلامي يستيقظ من غفلته التي عاشها من بعد أفول شمس حضارته ، وأخذ يعود إلى التمسك بدينه القويم ونظمه السليمة . وأخذ يعمل على بعث تراثه الحضاري الحي من جديد لأن الإسلام دين قوة وعزة وحضارة إنسانية صادقة .

أسئلة

أجب عما يأتي :

١ ــ « تتميز النظم الإسلامية بالكثير من الخصائص » .
اشرح ذلك بإيجاز موضحاً أهم تلك الخصائص .

٢ ــ « يحرص الاستعمار على إبقاء الأمم المستعمرة متخلفة اقتصادياً وحضارياً » .

٣ علل ذلك ، وما وسائله لتحقيق ذلك ؟ .

الفصل الثاني
النظام السياسي

تشمل دراسة النظام السياسي في الإسلام التعرف على النواحي الآتية : الخلافة ، والحجابة ، والوزارة ، والكتابة . ولنبدأ كلامنا بالحديث عن الخلافة .

أولاً : نظام الخلافة :

(أ) **تعريف الخلافة :** الخلافة هي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن الثابت تاريخياً أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضع قواعد معينة لانتخاب خلف له يقود الأمة ويرعى شئونها وفقاً للكتاب والسنّة ، بل ترك الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا من بينهم من يخلفه في رياسة الدولة الإسلامية في أمور الدين والدنيا . فلما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ، اختار المسلمون أبا بكر الصديق رضي الله عنه خليفة له لما توافر فيه من صفات القيادة الحكيمة والخلق الرفيع . وهكذا كان أبو بكر الصديق هو أول من حمل لقب **خليفة رسول الله** صلى الله عليه وسلم لأنه خلفه في رياسة الدولة الإسلامية ورعاية شئون المسلمين الدينية والدنيوية والذود عن حياض الدين الإسلامي الحنيف .

ثم تلا الصِّديقَ الفاروقُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان يلقب **بخليفة خليفة رسول الله** صلى الله عليه وسلم . ولكي لا تتكرر لفظة خليفة لمن يتولى أمور المسلمين بعد أبي بكر ، فقد رأى عمر أن يستعيض هذا اللقب **بلقب أمير المؤمنين (ولُقب علي بن أبي طالب بالإمام)** .

وأمير المؤمنين أو الخليفة يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية . فلا يقتصر عمله على المحافظة على الدين فحسب ، بل لأنه حامي الدين ، فإنه يعلن الحرب على الكفار ويدافع عن ديار المسلمين ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة ويلقي خطبة الجمعة .

(ب) **وجوب الخلافة :** الخلافة في الإسلام أمر واجب شرعاً وعقلاً . فالمسلمون لا بد لهم من حاكم منهم يرعى أمورهم ويتولى إدارة شئون دولتهم . وهذا الواجب قد يكون مرجعه العقل أو الشرع أو الاثنان معاً . وهذا الرأي الأخير هو ما ذهب إليه الفقهاء المسلمون .

فالمسلمون ، إذن ، لا بد لهم من إمام يرعى مصالحهم ويتولى تطبيق الأحكام الشرعية وإقامة الحدود والدفاع عن ديار المسلمين ونشر الأمن والطمأنينة في ربوعها وتنمية موارد بيت مال المسلمين وتنظيم الجيوش للجهاد في سبيل الله وتقسيم الغنائم بين المسلمين وإقامة الجمع والأعياد ومساعدة المحتاجين ورعاية اليتامى والقاصرين .

وحيث أن تنصيب الخليفة في الإسلام أمر واجب فقد صار لزاماً على المسلمين إطاعته طالما كان ملتزماً بكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم امتثالاً لأمر الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾[1]

(جـ) **شروط الخلافة :** اشترط الفقهاء المسلمون أموراً أساسية لمن يتولى هذا المنصب الجليل منها :

الإسلام ، والذكورة ، والرشد ، والعلم المؤدي للاجتهاد ، والعدالة أي تجنب المعاصي ، والكفاية أي صاحب رأي وتدبير ، وسلامة الحواس ، واختلف في النسب القرشي .

(د) تدرج نظام الخلافة عبر العصور الإسلامية :

١ ـ الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين :

ليس في القرآن الكريم نص صريح يبين شكل أو كيفية انتخاب خليفة

(١) من الآية (٥٩) ، من سورة النساء .

المسلمين ، بل جعل الأمر **شورى** بين المسلمين لقوله تعالى :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (١)

كذلك ليس في الحديث الشريف ما يؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالخلافة لأحد من بعده ، أو أنه عليه الصلاة والسلام قد وضع نظاماً خاصاً بانتخاب من يخلفه . بل ترك الأمر شورى بين المسلمين ، كما أشرنا ، ليختاروا من أرادوا وليأخذوا من نظم الحكم ما يتلاءم وأحوالهم لأن ظروف حياتهم ليست على حال واحدة بل تتبع سنّة الله تعالى في التغير .

٢ ـ الخلافة في عهد الأمويين :

عندما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان ترك نظام الشورى الذي كان أساس انتخاب الخلفاء الراشدين ، وتحولت الخلافة إلى ملك آل إلى صاحبه بقوة السيف والسياسة .

وقد نتج عن الإجراء الذي اتبعه معاوية بتعيين ابنه يزيد خلفا له ، قيام نظام الوراثة . فكان الخليفة يعين ولي عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد في حضرته . أما في الأقاليم فكانت تؤخذ بحضور الوالي نيابة عن الخليفة .

٣ ـ الخلافة في عهد العباسيين والفاطميين :

ظل نظام الخلافة معمولاً به في عهد الخلفاء العباسيين والفاطميين . وذهب العباسيون في بعض الأحيان إلى تولية ولاية العهد لأكثر من واحد كما حدث ذلك في عهد هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) . فقد ولّى عهده أولاده

---

(١) الآية (٣٨) ، من سورة الشورى .

الثلاثة الأمين والمأمون والمعتصم . وقسم البلاد بينهم . وقد أدى ذلك إلى وقوع الفرقة وقيام الفتن والحروب الداخلية .

وقد أخذت سلطة الخليفة في العصر العباسي طابعاً فردياً مطلقاً مستمداً من نظام الفرس . فلم يعد للناس حق المعارضة الذي كان قائماً أيام الخلفاء الراشدين والأمويين . فمن كان يعارض الخليفة كان يُعتبر خارجاً على الدين . كما بولغ في سلطة الخلفاء الفاطميين حيث كان للخليفة منهم صفة العصمة من جميع الخطايا (الكبائر والصغائر) .

٤ ـ الخلافة بعد العباسيين :

بعد أن قضى المغول على الدولة العباسية في بغداد عام ٦٥٦ هـ ـ (١٢٥٨ م) انتقلت الخلافة العباسية إلى مصر . فقد استقدم سلاطين المماليك في مصر أحد أبناء البيت العباسي ونصبوه خليفة باسم الخليفة العباسي المستنصر بالله وذلك لكي يكسبوا حكمهم الصبغة الشرعية أمام رعاياهم . وكان السلطان بيبرس أول من فعل ذلك للقضاء على أطماع منافسيه . ولم يكن للخليفة أية سلطة إلا الظهور في الحفلات الدينية بجوار السلطان ، أو مبايعة السلطان الجديد وتفويضه في الولاية والأمور العامة . على أن السلطان بيبرس كان يهدف أيضاً من وراء استمرار الخلافة العباسية في مصر أن يمد ملكه ويوسع سلطانه بمساعدة الخليفة باعتباره حامي الدين .

وقد بقيت سلطة الخليفة في مصر روحية ، حتى فتح السلطان العثماني سليم الأول مصر عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) ، وقضى على دولة المماليك ونقل الخليفة العباسي إلى استانبول . وبذلك انتقلت الخلافة إلى العثمانيين . غير أن السلاطين العثمانيين لم يحملوا لقب الخليفة إلا في وقت متأخر وذلك في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين . وقد زالت الخلافة نهائياً على أثر هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وقيام مصطفى كمال باشا

بإعلان الجمهورية التركية عام ١٩٢٤ م .

ثانياً : نظام الحجابة :

(أ) تعريفها :

الحجابة هي وظيفة يتولاها شخص يطلق عليه **الحاجب** . والحاجب هو الذي يعطي الإذن أو يرخص للناس في الدخول على الخلفاء .

(ب) الحجابة عبر العصور الإسلامية :

١ ـ الحجابة في عهد الخلفاء الراشدين :

لم يعرف الخلفاء الراشدون نظام الحجابة لأنهم لم يحتاجوا إليها قط . ذلك لأنهم ببساطتهم وحسن عشرتهم للرعية لم يكونوا يمنعون أحداً من الدخول عليهم ليلاً أو نهاراً . فالخليفة لم يكن يعتبر نفسه إلا واحداً من المسلمين دون أدنى تمييز . فكان الفقير والغني والضعيف والقوي يجلسون مع الخلفاء يكلمونهم في حوائجهم ويتحدثون إليهم في كل ما يريدون .

٢ ـ الحجابة في عهد الأمويين :

يرتبط نشوء نظام الحجابة في الإسلام بقيام الدولة الأموية . إذ أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من اتخذ من الخلفاء المسلمين نظام الحجابة . وقد اتخذ ذلك كارهاً مضطراً بعد حادثة الخوارج وخوفاً من ازدحام الناس على بابه الذي قد يذهب بحياته ، هذا بالإضافة إلى كثرة مشاغله في مهام الدولة .

وكان الحاجب في عهد الأمويين يشغل منصباً رفيعاً في الدولة يشبه مدير التشريفات اليوم . ومهمته إدخال الناس على الخليفة مراعياً في ذلك مقامهم وأهمية مراكزهم . ومع ذلك فإن الخلفاء ما كانوا يحجبون أبوابهم عن كل الناس ، فإن عبد الملك بن مروان لما ولى حاجبه قال له : « وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فإنه داعي الله ، وصاحب البريد ، وصاحب الطعام » .

وكانوا يختارون الحاجب من أفضل رجالهم . فإن عبد الملك بن مروان ، مثلاً ، يوصي أخاه عبد العزيز بن مروان قائلاً له : انظر حاجبك فليكن خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده .

٣ ـ الحجابة في عهد العباسيين :

لقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببني أمية . فاتخذوا الحجاب وزادوا في منع الناس عن لقاء الخليفة إلا في الأمور المهمة . بل ربما أسرفوا في منع الناس من المقابلات الرسمية . ولعل هذا كان السبب الرئيسي في نشأة ما أسماه بن خلدون **الحاجب الثاني** . فكان بين الناس والخليفة حاجزان عبارة عن دارين إحداهما يقال لها **دار الخاصة** ، والأخرى **دار العامة** . وكان الخليفة يقابل كل طائفة بحسب حالاتها وظروفها في مكان يعين في إحدى هاتين الدارين تبعاً لإرادة الحجاب على أبوابها .

ولما اشتد ضعف الدولة ، رأى الخلفاء أنه من المستحسن أن يزيدوا حاجباً ثالثاً لكي يحجب السلطان عن العامة . وبذلك أحاط الحاجب نفسه بهالة من الإجلال ، وقوي في الدولة نفوذه وسلطانه . وعلت مرتبة الحاجب بتعاقب الأيام حتى أضحى مستشار الخليفة في جميع الشئون المهمة ، وفي مختلف اتجاهات الدولة ومرافقها الحيوية . وقد استطاع الأقوياء من الحجاب أن يضعفوا من قوة الوزراء عند الخلفاء إذ كانوا يستبدون بالأمور ويحولون دون تنفيذ أي قرار لا يوافقون عليه . وكثيراً ما كان الحجاب يتدخلون في أمور الدولة ، ويستبدون بالنفوذ لدرجة أنهم كانوا يلزمون أصحاب الدواوين بالرجوع إليهم في كل أمور الدولة وألا يتخذوا أي قرار إلا بعد الحصول على موافقتهم .

٤ ـ الحجابة في الأندلس :

كانت الحجابة في عهد الدولة الأموية بالأندلس لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء ومن دونهم . فكانت الحجابة عندهم رفيعة الغاية .

٥ ـ الحجابة في مصر زمن الفاطميين وبعدهم :

لم يكن الحاجب في عهد الفاطميين في مصر يتمتع بذلك النفوذ الذي كان يتمتع به في البلدان الإسلامية الأخرى . ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين وحدهم ، بل لقد اتخذ قاضي القضاة[1] أو الوزير حاجبًا أو أكثر . وكان صاحب الباب من كبار الموظفين في عهد الفاطميين .

وفي عهد سلاطين المماليك في مصر لم تقتصر مهمة الحاجب على إدخال الناس على السلطان بل تجاوزتها إلى الفصل فيما يحدث بين الأمراء والجند . ثم اتسعت سلطته تدريجياً حتى صار يقضي بين المغول الذين استوطنوا مصر تبعاً لأحكام السياسة التي وضعها ملوكهم إيلخانات المغول .

ثالثاً : الوزارة :

(أ) تعريفها :

تعني الوزارة المعاونة والمؤازرة في تحمل أعباء الحكم . وقد وردت لفظة وزير في القرآن الكريم حين طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يمده برجل من أهله يستعين به على القيام بأعباء الحكم :

﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾[2]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه أو يفاوضهم في الأمور الخاصة والعامة ويخص أبا بكر رضي الله عنه ببعض الأمور لدرجة أن العرب الذين كانوا على دراية بأحوال الفرس والروم ، كانوا يسمون أبا بكر وزيراً .

(ب) تدرج مفهوم الوزارة عبر العصور الإسلامية :

١ ـ مفهوم الوزارة في عهد الخلفاء الراشدين :

وكما لم يجر الاسم بنظام الوزارة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لم يكن معروفاً أيضاً في عهد الخلفاء الراشدين وذلك لبساطة الإسلام وبعده

---

(١) قاضي القضاة هو الاسم التاريخي لرئيس القضاة .

(٢) من سورة طه : الآيات (٢٩ ـ ٣٢) .

عن أبهة الملك . هذا على الرغم من أن الخليفة كان يستعين ببعض الصحابة في تنفيذ بعض المصالح العامة . فقد أوكل أبو بكر رضي الله عنه أمر الإشراف على القضاء وتوزيع الصدقات إلى عمر بن الخطاب ، كما أسند إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الإشراف على أسرى الحرب وشئونهم . وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين خص عثمان وعلياً رضي الله عنهما ببعض أمور الدولة . وهكذا أيضاً شأن عثمان وعلي في خلافتهما .

٢ ـ مفهوم الوزارة في عهد الأمويين :

عندما انتقلت الخلافة إلى بني أمية ، احتاج خلفاؤهم إلى من يستشيرونه أيضاً في سياسة دولتهم ومهام أمورهم من ذوي الرأي ليكونوا لهم بمثابة وزراء يتحملون بعض الأعباء العامة وإن لم يلقبوا بلقب وزراء . ومع ذلك فإننا نجد أن زياد بن أبيه يلقب بلقب الوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان وروح بن زنباع الجذامي في عهد عبد الملك بن مروان .

٣ ـ الوزارة في عهد العباسيين :

استحدث منصب وزير مباشرة بعد انتقال الخلافة إلى بني العباس . ولعل ذلك يعود إلى تشعب أعمال الدولة واتجاهها نحو التمركز وتوزيع السلطات .

وأول وزراء بني العباس هو حفص بن سليمان (أبو سلمة الخلال) . فقد استوزره أبو العباس السفاح وفوض الأمور إليه ، وسلم له الدواوين ما عدا ديوان الخراج وديوان الجند ، **ولقب وزير آل محمد** .

وقد ركن الخلفاء العباسيون إلى الوزراء وسلموا إليهم أمور الدولة . وأشهر وزرائهم البرامكة الذين استفحل أمرهم واتجه نظر الناس إليهم حتى اضطر الرشيد إلى الفتك بهم .

وفي عهد المأمون أطلقت يد الوزير الفضل بن سهل في الأمور السياسية فقد فوَّضَ إليه المأمون قيادة الحرب ورياسة الشئون الإدارية وسماه **ذا الرياستين** .

وفي أواخر عهد العباسيين تقلص نفوذ الوزراء بتقلص نفوذ الخلفاء .

(ج) نوعا الوزارة :

انقسمت الوزارة في عهد الدولة العباسية إلى نوعين اثنين هما : وزارة التنفيذ ، ووزارة التفويض .

١ ـ وزارة التنفيذ : ينحصر عمل هذه الوزارة في تنفيذ أوامر الخليفة . ولا يتصرف فيها الوزير تصرفاً شخصياً مستقلاً . وإنما الوزير هنا هو بمثابة حلقة وصل بين الخليفة والرعية .

وكان يشترط في من يتولى وزارة التنفيذ الأمور الآتية :

١ ـ الأمانة فلا يخون ولا يغش .
٢ ـ صدق اللهجة حتى يوثق بخبره .
٣ ـ قلَّة الطمع حتى لا يرتشى .
٤ ـ أن يكون ذكيًّا حصيفًا حتى لا يدلس عليه .
٥ ـ ألاَّ يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل .
٦ ـ أن يؤتى الحنكة والتجربة التي تؤديه إلى صواب التدبير .

٢ ـ وزارة التفويض : في هذه الوزارة يفوض الخليفة من يستوزره تدبير الأمور برأيه دون الرجوع إليه . فالوزير هنا ذو ولاية عامة . فهو يحكم ويقلد الحكام تماماً كما يفعل الخليفة . ويجوز له أن يتولى الجهاد بنفسه . وأن يقلد أمر الجهاد من يتولاه .

وهكذا فإن لصاحب وزارة التفويض ما للخليفة من سلطات إلا في ثلاث أمور هي :

١ ـ للخليفة أن يعهد بولاية العهد إلى من يرى . وليس ذلك للوزير .

٢ ـ للخليفة أن يستعفي الأمة من الإمامة . وليس ذلك للوزير .

٣ ـ للخليفة أن يعزل من يقلده الوزير . وليس للوزير أن يعزل من قلده الخليفة .

مقارنة بين وزارتي التفويض والتنفيذ :

١ ـ يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم . وليس ذلك من حق وزير التنفيذ .

٢ ـ يجوز لوزير التفويض أن يستبد برأيه في تقليد الولاة ولاياتهم ، وليس لوزير التنفيذ .

٣ ـ يحق لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ووضع الخطط العسكرية . وليس ذلك لوزير التنفيذ .

٤ ـ يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في بيت المال .

رابعاً : الكتابة

(أ) تعريفها :

تطلق كلمة كاتب على كل من يقوم بالكتابة والتحرير ، ومهمة الكاتب الكتابة بأشكالها المختلفة من إنشائية وحسابية ومالية وغير ذلك ـ وقد جرت العادة أن يتخذ أولياء الأمور كتّاباً يستعينون بهم في إنشاء المكاتبات الخاصة بهم ، وفي عمل الحسابات اللازمة . ثم تطور مفهوم الكاتب مع مضي الزمن ، وذلك بتكاثر الأعباء ، فأصبح من الضروري أن يعيِّن الوزير موظفين يعاونونه في الإشراف على الدواوين أي الوزارات في العصر الحديث .

(ب) تدرج الكتابة عبر العصور الإسلامية :

١ ـ الكتابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين :

لما ظهر الإسلام في مكة لم يكن يعرف القراءة والكتابة من العرب إلا القليل لا يتجاوز بضعة عشر رجلاً من بينهم : عمر وعثمان وعلي وطلحة وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سفيان وابناه : معاوية ويزيد .

ومن كتّاب الوحي في العهد النبوي : علي بن أبي طالب وعمر ابن

الخطاب وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان والمغيرة بن شعبة والأرقم بن الأرقم وسعيد بن العاص وغيرهم رضوان الله عليهم جميعاً . وكانوا يكتبون كذلك الرسائل التي كان يوجهها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء . وابتداء من ذلك الوقت صار للخلفاء كتّاب من ذوي العلم والمعرفة الملمين بالكتابة . ولما تولى أبو بكر الخلافة ، اتخذ عثمان كاتباً له ، يكتب إلى العمال والقواد ، وغدت الكتابة منصباً ذا أهمية في الدولة .

وحين تولى عمر الخلافة ، كتب له زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم . ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، أنشئت الدواوين وظهرت الحاجة للكتابة ؛ فعيَّن عمر كاتباً لكل ولاية يكتب في ديوانها ، كما عيَّن محمد بن شاهين الزهري كاتباً للجيش .

وكان الكاتب يكتب في أول الأمر لديوان الجند . أما الجباية والخراج في الولايات فكان يقوم بالكتابة بها رجال من أهلها ، حيث تمَّ تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) . وقد سار كل من عثمان وعليّ رضي الله عنهما على نفس السياسة التي طبقها كل من أبي بكر وعمر فاتخذا لهما كتّاباً .

وخلاصة القول إنه وجد في عهد الخلفاء الراشدين ثلاثة أنواع من الكتّاب هم : كاتب الرسائل ، وكاتب ديوان الجند وكاتب الخراج (المال والجبايات) .

٢ ـ الكتابة في عهدي الأمويين والعباسيين :

ولما انتظمت الخلافة لبني أمية ، وتعددت مصالح الدولة ، تعدد الكتّاب وصاروا خمسة :

١ ـ كاتب الرسائل : يخاطب الملوك والأمراء والعمال وغيرهم وهو أهمهم .
٢ ـ كاتب الخراج : يُدوّن حساب الخراج داخله وخارجه .
٣ ـ كاتب الجند : يقيد أسماء الأجناد وطبقاتهم وأعطيتهم ونفقات الأسلحة وغير ذلك .
٤ ـ كاتب الشرطة : يكتب التقارير عما يقع من أحوال القصاص .

٥ ـ كاتب القاضي : يكتب الشروط والأحكام .

وأهم هؤلاء الكتّاب في المرتبة هو كاتب الرسائل وقد يسمى كاتب السر ، وهو يد الخليفة ومستودع سره . ولخطورة هذا المنصب كان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا أقاربهم وخاصتهم ، وظلوا على ذلك حتى أيام العباسيين .

وقد زادت أهمية ديوان الرسائل في عهد **العباسيين** لدرجة أن صاحب هذا الديوان ينفرد بالأمر دون الخليفة . وكانت مهمته إذاعة المراسيم والبراءات ، وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخليفة بعد اعتمادها منه ، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه . كما كان كاتب الرسائل يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة .

ومن الكتّاب الذين ذاع صيتهم في عهد بني أمية : زياد بن أبيه كاتب أبي موسى الأشعري ، وعبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . واشتهر في العصر العباسي من الكتّاب : يحيى بن خالد البرمكي والفضل والحسن ابنا سهل ، ومحمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وغيرهم .

وفي أواخر عهد العباسيين استقلت الكتابة . وكان يقال لرجالها **كتّاب الإنشاء** ، وكبيرهم يدعى **رئيس ديوان الإنشاء** ، أو كاتب السر ، وكان يسمى أيضاً **الديوان العزيزي** وهو يشبه وزارة الخارجية في هذه الأيام .

ويقول ابن خلدون في مقدمته : « ولسموّ هذه المرتبة كان صاحبها لا يُختار إلا من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم » .

ويعتبر عبد الحميد الكاتب أحسن من استوعب الصفات والشروط التي يجب أن تتوافر في أهل صناعة الكتابة ، فجاء في رسالته الشهيرة إلى الكتّاب كما ذكر ابن خلدون ما يلي : « فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، ارووا الأشعار

واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم » .

أسئلة

أجب عن الأسئلة التالية :

١ - تتبع بإيجاز تدرج مفهوم الخلافة الإسلامية عبر العصور التاريخية .

٢ ــ علل ما يلي :

أ ــ وجوب الخلافة . ب ــ عدم وجود الحجابة في عهد الخلفاء الراشدين .

٣ ــ قارن بين وزارتي التنفيذ والتفويض .

٤ ــ اشرح باختصار تطور الحجابة في كل من : دمشق وبغداد .

٥ ــ ماذا تعرف عن أنواع الكتّاب في العهد الأموي .

٦ ــ عرف كلاً مما يأتي :

الخلافة ــ الوزارة ــ الحجابة ــ الوزارة .

الفصل الثالث
النظام الإداري

سنتناول في هذا الفصل دراسة النواحي الست الآتية للنظام الإداري في الإسلام : الإمارة ، والدواوين ، والجيش ، والبحرية ، والبريد ، والسكة ، والشرطة . ولننتقل الآن إلى التعرف إلى الإمارة .

أولاً الإمارة :

(أ) تعريفها :

تعني الإمارة تعيين العمال والولاة على أجزاء الدولة الإسلامية ليسهل تنظيم أمورها وإدارة شئونها .

(ب) الإمارة عبر العصور الإسلامية :

١ ــ كان من الطبيعي بعد أن اتسعت الدولة الإسلامية ، وكثرت مشاغل الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يلجأ إلى أن ينيب عنه بعض العمال في بعض المدن والقبائل الكبيرة في كل من الحجاز واليمن . ومن هنا نشأت اللبنة الأولى للتنظيم الإداري الذي كانت تغلب عليه الصبغة الدينية . وتتلخص وظائف أولئك العمال : في إمامة المسلمين في الصلاة ، وإصدار الأوامر في جمع الزكاة وجبايتها . ومن ثم لم يكن لهؤلاء العمال صفة سياسية . وكان عليه الصلاة والسلام يتخير عماله ممن اشتهروا بالصلاح والتقوى والعلم والتفقه في الدين .

٢ ــ الإمارة في عهد الخلفاء الراشدين :

ولما ولي أبو بكر رضي الله عنه الخلافة ، كانت الجزيرة العربية هي

البلاد التي تحت الإدارة الإسلامية . فأقر عمال الرسول صلى الله عليه وسلم في أعمالهم ، فجعل أبا عبيدة على المال ، وترك لعمر أمر القضاء ، ولعليّ أمر الفتوى وجعل العمال يختارون القضاة ويعينونهم في البلدان المختلفة التي كانوا يولون أمرها .

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قسم الدولة أقساماً إدارية كبيرة . ليسهل حكمها والإشراف على مواردها ، وكان يختار الولاة من أفضل القوم ديناً وخلقاً ، يتعهدهم بالنصح والإرشاد . وكان هؤلاء يستمدون سلطتهم من الخليفة الذي جمع في يده السلطات التنفيذية والقضائية والتشريعية . وكان عمر رضي الله عنه يحاسب عماله ويقتص منهم . كما أنه كان يختارهم من العرب لا تعظيماً لعرقهم أو جنسهم ولكن لمقدرتهم على فهم أصول الشريعة وتعاليمها . فإن عليهم أن يقيموا بالناس الصلاة ، ويقضوا بينهم بالحق ، ويقسموا بينهم الأموال والغنائم والعشور .

ولما ولي عثمان رضي الله عنه الخلافة سار في أول الأمر على سياسة عمر رضي الله عنه ولكن في النصف الأخير من خلافته ، ضعفت الإدارة في شيخوخته مما أدى إلى تذمر المسلمين في الولايات الإسلامية ، فشقوا عصا الطاعة ، وأضرموا الفتنة التي انتهت بقتله رضي الله عنه . ثم ولي عليٌّ (رضي الله عنه) الخلافة فبادر بعزل عمال عثمان للقضاء على أسباب الشكوى والتذمر .

٣ ـ الإمارة في عهد الأمويين :

باتساع الدولة الإسلامية وتطوير أنظمتها الإدارية انقسمت إلى أقاليم إدارية كبيرة ، استعملت كلمة والي لتدل على النفوذ والسلطان وكذلك استخدمت كلمة أمير لتدل على الوالي الذي يتمتع بسلطة مطلقة في عهد الدولة الأموية . وأصبحت كلمة عامل تطلق على رئيس الناحية الإدارية كالمدير الآن .

ومن ثم أصبح في كل إقليم والٍ أو أمير يقوم بتولي شئون الولاية السياسية

ويعمل معه جنباً إلى جنب عامل الخراج الذي كان أهم عمال الولاية ويتولى شئون الولاية المالية .

وقد سار الخلفاء الأمويون على سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة من العرب ، فكانت دولتهم لذلك عربية صحيحة . وبلغ اهتمامهم باختيار الولاة أنه كان بعضهم يسند هذا المنصب إلى أفراد البيت الأموي ، فقد تولى عبد العزيز بن مروان ولاية مصر في عهد خلافة أخيه عبد الملك بن مروان ، كما ازداد نفوذ الوالي في هذا العهد ، فكان الحجاج مثلاً يجمع الأموال بطريقته الشخصية ولا يجد نفسه مضطراً إلى مراجعة الخليفة وفي بعض الأحوال كادت سلطة الولاة تطغى على سلطة الخليفة .

٤ ـ الإمارة في عهد العباسيين :

في العصر العباسي الأول (١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ) أصبح النظام الإداري نظاماً مركزياً ، واقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند ، لأن الوظائف الأخرى في الولاية كان لها موظفون من قبل الخليفة أهمهم : صاحب المال ، وصاحب البريد والقاضي ، وبذلك استحال النظام اللامركزي الذي كان سائداً في العهد الأموي ، إلى نظام مركزي . وفضل الولاة في هذا العصر البقاء في بغداد ، وينيبون عنهم من يلي الأمر باسمهم في الأقاليم ، حتى جنح أولئك الولاة إلى الثورة والاستقلال بولاياتهم ولا سيما بعد ضعف الدولة العباسية . فاستقلت بعض الولايات عن الخلافة مثل : الدولة الطولونية ، والدولة الإخشيدية في مصر ، والدولة الطاهرية والصفارية في المشرق وهكذا .

ولقد وضع الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ) النظام السياسي الذي سارت عليه الدولة العباسية والدويلات التي انفصلت عنها ، وقد ظل نظام الحكم مطلقاً إلى عهد الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) حيث كان الخليفة مصدر كل قوة كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة ، أما الوزير فكان ساعد الخليفة الأيمن ، يقضي باسمه جميع شئون الدولة ، فكان ينوب عن الخليفة في حكم البلاد . وكان الخلفاء يعزلون الولاة من ولاياتهم بعد

زمن قليل . وفي هذه الحالة كان لا بد للوالي المعزول من أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئون ولايته .

ثانياً الـدواوين :

(أ) تعريف الديـوان :

الديوان كلمة فارسية معربة وأصلها بالفارسية الدفتر أو السجل وقيل إن الكلمة عربية ومعناها الأصل الذي يرجع إليه ويعمل به . ومنه قول ابن عباس رضي الله عنه : « **إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر** ، فإن الشعر ديوان العرب » ويقول سيبويه : إن الكلمة عربية إذ يقال دوّنه بمعنى أثبته .

(ب) نشأة الديوان في الإسلام :

إن أول من أدخل نظام الدواوين في الدولة الإسلامية هو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وكان ذلك بعد أن اتسعت الفتوح الإسلامية ، فأنشأ ديوان الجند سنة (٢٠ هـ) لكتابة أسماء الجند ومعرفة ما يخص كلاً منهم من العطاء ، وديوان الجباية أو ما يقال له ديوان الخراج لمعرفة ما يرد إلى بيت المال ، وما يفرض لكل مسلم من العطاء . والمعروف أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جعل لكل واحد من المسلمين عطاء مراعياً في ذلك السبق إلى الإسلام ونصرة الرسول في حروبه ، بحيث رتب الناس طبقات ، مبتدئين بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم بني هاشم ، ثم بمن بعدهم واستمر ذلك الشأن في خلافة عثمان رضي الله عنه .

(ج) الدواوين في العهد الأموي :

عندما انتقلت الخلافة إلى بني أمية ، أصبحت الحاجة ماسة إلى دواوين جديدة تنظم إدارة الدولة المترامية الأطراف وتتلاءم مع تطورها . ومع هذا ظلت

الدواوين تمر بدور انتقالي ولم تستقر إلا في العصر العباسي وأهم الدواوين في العهد الأموي :

١ ـ **ديوان الخراج** : وهو الذي يتولى تنظيم أمور الخراج ، والنظر في مشكلاتها .

٢ ـ **ديوان الرسائل** : هو الدائرة الرسمية التي كانت تشرف على مراسلات الخليفة كالنشرات والرسائل والأوامر التي ترسل إلى عمال وولاة الأقاليم والدول الأخرى وكذلك القيام بالتنسيق بين جميع الدواوين الأخرى .

٣ ـ **ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة** : التي تؤول إلى الدولة من أملاك غير منقولة كالأراضي والأبنية الحكومية .

٤ ـ **ديوان النفقات** : وكانت مهمته الكبرى تتمثل في صرف ما ينفق على تسليح الجيش ورواتبه وألبسته ، والإدارة المركزية .

٥ ـ **ديوان الصدقات** : واسمه مأخوذ من آية الصدقات في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾[1]. ومهمته توزيع موارد الزكاة على أصحاب الحقوق فيها على النحو الذي ورد في القرآن الكريم .

٦ ـ **ديوان الجند** : ويقصد به إحصاء أسماء الجنود وتحديد عطاياهم ورواتبهم .

٧ ـ **ديوان الطراز** : ويشرف على المعامل التي كانت تنتج الأزياء الرسمية والأعلام في الحرب ويشرف كذلك على أمور الصاغة والحاكة ، ويجري عليهم الأرزاق ويتفقد أعمالهم .

٨ ـ **ديوان البريد** : كان معاوية أول حاكم مسلم أنشأ نظاماً للبريد .

---

(١) من آية ٦٠ سورة التوبة .

وكان مخصصاً في الأصل لخدمة أغراض الدولة ، ثم أبيح للرعية فيما بعد أن ينتفعوا به في نقل رسائلهم . وقسمت البلاد إلى مراحل أو محطات حيث كانت المسافة بين كل مرحلتين اثني عشر ميلاً،وبكل منها خيل معدة لحمل البريد ، وقد استخدمت الإبل في بلاد العرب والشام لهذا الغرض . والجدير بالذكر أن أذيال خيل الرسل وأعرافها كانت مقطوعة تمييزها عن الخيل الأخرى ، وتميز راكبها بأنه رسول الدولة . وقد تحسن نظام البريد بدرجة ملحوظة في عهد عبد الملك بن مروان .

٩ ـ **ديوان الخاتم** : وقد أنشأه معاوية أيضاً فكان هذا الديوان يسجل كل أمر يصدره الخليفة ثم يختم الأصل ويرسل . ويمكن أن يقارن اليوم بينه وبين ما نسميه بالأرشيف والسجلات .

وفي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان عُرِّبت الدواوين في كل من الشام والعراق ، ثم عربت دواوين مصر في خلافة الوليد الأول ودواوين خراسان في خلافة هشام بن عبد الملك ، وأمست اللغة الرسمية في السياسة والإدارة هي اللغة العربية ، بعد أن نقلت إليها أدق المصطلحات الفارسية واليونانية في الحساب والفنون المعروفة في تلك العصور .

(د) الدواوين في العهد العباسي :

كثرت الدواوين وتنوعت اختصاصاتها في العهد العباسي فبالإضافة إلى الدواوين التي كانت قائمة في العهد الأموي ، والتي أبقى العباسيون عليها استخدموا مزيداً من الدواوين مع استكمال النقص فيما احتفظوا به وحدّدوا الكثير من موضوعات تلك الدواوين وأشكالها .

ومن بين ما استحدثوه من الدواوين التالي :

١ ـ **ديوان الزمام** : وقد استحدث في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٨ هـ) ، وهو الديوان الرابط لجميع الدواوين ، ويشبه ديوان المحاسبة اليوم ، وفي بداية الأمر كان عبارة عن دوائر صغيرة تشرف على أعمال الدواوين الكبيرة ومهمته كانت تنحصر بالدرجة الأولى في التدقيق في الحسابات

والشئون المالية ، التي يتصرف فيها كل ديوان من الدواوين الصغيرة . ويقصد أيضاً بديوان الأزِمَّة أو الزمام الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان فيتخذ رجلاً على كل منها يخضع له جميع الموظفين المختصين بمراجعة الحسابات في الولايات كما كان هذا الديوان أداة لتحسين الإدارة .

٢ ـ وأنشأ العباسيون أيضاً ديواناً سموه ديوان النظر أو المكاتبات والمراجعات ويقسم الديوان إلى أربعة أقسام : ديوان الجيش ويقوم بالإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال وينظر في الدخل والخرج .

٣ ـ **ديوان المظالم** : وهو من الدواوين التي أنشئت في عهد الخليفة المهدي ، وقد أنشيء لمعرفة ما تشكو منه الرعية من ظلم بعض ولاتها وجورهم وتعسفهم ، فتقدم الشكاوي والدعاوي إليه .

كما كان هذا الديوان ينظر في غلاء الأسعار إذا زاد عن حده ، كما كان ينظر في كثرة إيداع الناس السجون من غير نظر دقيق في دعاويهم ، وأحياناً كان ينظر فيما وقع ظلماً من مصادرة أملاك الناس رغماً عنهم وبغير حق .

٤ ـ **ديوان الصوافي** : وقد استحدث هذا الديوان في عهد الخليفة الرشيد والصوافي تعني أراضي الدولة .

٥ ـ **ديوان الاستخراج** : وقد استحدث هذا الديوان في العصر العباسي الثاني وهذا الديوان ليست له علاقة بالخراج ، إنما كان عبارة عن إدارة مهمتها تتبع أخبار الوزراء والكتاب والحجاب والعمال والولاة المتهمين بالمحسوبية والرشوة لكي تحصي أسماءهم وتحدد أوضاعهم ، ثم تصادر بأمر من الخليفة أموالهم التي جمعوها من الحرام .

٦ ـ وهناك دواوين أخرى ظهرت في عهد العباسيين منها **ديوان الغلمان ، وديوان الأحداث والشرطة وديوان المنح والمقاضاة ، وديوان**

الأكره للإشراف على القنوات والترع والجسور وشئون الـري . وأخيـراً **ديـوان الدية** .

ثالثاً : الجيش :

الجيش في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :

إن أول جيش نشأ في الإسلام كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وكانت مهمته نشر الإسلام وحماية المسلمين من تحرشات الكافرين ومؤامراتهم وبخاصة مشركي قريش . وقد أمر الله سبحانه المسلمين أن يكونوا دائماً على جانب من القوة وأن يتسلحوا ليرهبوا به أعداءهم لقوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [1]

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتولى بنفسه تنظيم المسـلمين وإعـدادهم لشئون الجهاد ومقاتلة أعداء الله وأعـدائهم . وكان النصر حليف المسـلمين مـا أطاعوا الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ووهبـوا نفـوسهم رخيصـة لله . فقـد نصرهم الله تعالى وهم قلة (٣١٣ مقاتلاً) على أعـدائهم مـن المشركيـن في أول لقاء حربي بين الطرفين وكان المشركون يفوقونهم بثلاثة أمثـالهم تقـريباً . قـال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2] .

واستمر الجيش الإسلامي ينمو ويزداد قـوة ومنعـة حتـى فتـح الله على المسلمين بالفتح العظيم فدخلوا مكة وطهروا أول بيـت وضـع لعبـادة الله مـن رجس الشرك والوثنية . وبعد فتح مكة واصل الجيش الإسلامي انتصـاراته على فلول المشركين في غزوة حنين . كما توجه إلى شمال الجزيرة لينزل الرعب في نفوس الروم ، كما حدث في غزوة مؤتة التي استشهد فيها جعفر بن أبي طالب الملقب

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة الأنفال .

(٢) الآية (١٢٣) من سورة آل عمران .

بالطيار رضي الله عنه وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم .

الجيش في عهد الخلفاء الراشدين :

وكانت روح الجهاد التي أحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم غرسها في نفوس المسلمين هي التي دفعتهم في عهد الخلفاء الراشدين ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، إلى نشر راية الإسلام في أصقاع لم تخطر ببال الناس قبل الفتح الإسلامي المبين بسنين .

ولم يكن الجيش الإسلامي في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه نظامياً ، بل كان يتكون من المتطوعين الذين يرغبون في الجهاد في سبيل الله . غير أن الأمر تغير في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبخاصة بعد فتح العراق والشام وفلسطين ومصر وانصراف بعض المسلمين إلى حياة الاستقرار . ولم يكن عمر بن الخطاب يرضيه تطوع المتطوعين . فلما دوَّن الدواوين ورتب للمسلمين أرزاقهم السنوية خرجت فكرته عن التجنيد الإجباري إلى حيز الوجود . وهكذا اقترنت نشأة الديوان بنشأة التجنيد النظامي في الإسلام . وحددت للجنود النظاميين عطاياهم ورواتبهم من بيت مال المسلمين . واستمر العمل بهذا النظام في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

أما المتطوعون المسلمون الذين وهبوا حياتهم لله في سبيل إعلاء كلمة التوحيد فقد التحقوا بالجيوش غالباً لمحاربة البيزنطيين والزرادشتيين المجوس والهنود والترك في بلاد ما وراء النهر وغيرهم . وعندما تنتهي مهمة المتطوعين كانوا أحراراً في العودة إلى أوطانهم .

الجيش في عهد الأمويين :

وفي عهد الأمويين بلغ الجيش الإسلامي مرحلة متقدمة من التنظيم والخبرة القتالية وحسن الأداء . وبفضل روح الجهاد العالية والقيادات الفذة لموسى بن نصير وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي، استطاعت

الدولة الأموية أن تمد رقعة الإسلام من جبال الهملايا وأواسط آسيا شرقاً إلى جنوبي بلاد الغال (فرنسا اليوم) غرباً .

الجيش في عهد العباسيين :

واتسع الجيش النظامي في عهد العباسيين حتى صار يعد بمئات الآلاف . فقد بلغت قوات المأمون التي جاءت لمحاربة الأمين في العراق ١٢٥,٠٠٠ جندي ، هذا بالإضافة إلى القوات التي تركها المأمون وراءه لحراسة الولايات الشرقية . وبلغ عدد الجند في عرض عسكري أقيم في بغداد تحت إشراف الخليفة المقتدر وفي حضرة الرسل البيزنطيين نحو ١٦٠,٠٠٠ من الفرسان والمشاة . وكان الجند يتسلمون رواتبهم بصورة منتظمة . وإلى جانب الجند النظامي كان هناك طائفة أخرى من الجنود المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين كانوا يحاربون ضد البيزنطيين وغيرهم بدافع من الحماس الديني . كما شاركت في الحروب ضد الكفار أعداد من النساء المسلمات .

تعبئة الجيش الإسلامي :

كان العرب في جاهليتهم يحاربون بطريقة الكر والفر من غير أن يتبعوا في ذلك نظاماً . فلما جاء الإسلام ابتدأ التنظيم في جيوش المسلمين . تمشياً مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[1] . وقد رتب النبي صلى الله عليه وسلم جيش المسلمين يوم بدر بأن جعلهم صفوفاً . فقسم الجيش إلى خمسة أقسام ، حيث جعل الرمّاحة في الصف الأول ، فوقفوا برماحهم على أهبة الرمي انتظاراً لهجوم العدو ، وتترسوا بتروس طويلة سابغة يحمون بها أجسامهم ، على حين وضع عليه الصلاة والسلام في النقط الأمامية رجالاً آخرين تسربلوا بالزرود والدروع . أما الرماة الذين كونوا الخط الثاني ، فقد وقفوا متأهبين بأقواسهم وسهامهم لضرب العدو حين يقترب ولمنع خيالته من تطويق جيش المسلمين . واضطلعت الساقة بحماية

---

(١) الآية (٤) من سورة الصف .

المؤخرة وتولت رعاية الأمتعة والأحمال والمؤن ودواب الحمل . وكان أهل مكة قد بدأوا الهجوم ، على حين انتظرهم المسلمون حتى اقتربوا من صفوفهم ، ثم حملوا عليهم في قوة هائلة وعزم متين ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ . فحلت بالمشركين الهزيمة .

ولما اتسعت الفتوحات ، والتقت جيوش المسلمين بجيوش الفرس والروم ــ وهي جيوش تسير في حروبها وفق خطط ونظم معروفة ــ عدل المسلمون تعبئة جيوشهم بما يتفق وطرائق أعدائهم ، وأصبح تنظيم الجيش الإسلامي وتعبئته وترتيبه العسكري على النحو التالي :

١ ــ **المقدمة :** وهي التي تبدأ المناوشات مع العدو ، وتتعرف على مواضعه ومسالكه .

٢ ــ **الجناحان .**

٣ ــ **الساقة :** أي الذين يكونون في مؤخرة الجيش .

٤ ــ **القلب (الوسط) .**

وكل فرقة من هذه الفرق مقسمة إلى كراديس ، ولها أمير يأتمر بأمر القائد العام للجيش . وكان المسلمون يهتمون بأمر الفرسان لما لهم من شأن عظيم في القتال ، وفي الاحتفاظ بخط الرجعة حتى لا يؤتوا من خلفهم . وتعتبر مواقع أجنادين واليرموك والقادسية ونهاوند من المواقع الحربية التي تعد مثالاً فريداً في تعبئة الجيوش الإسلامية وحسن قيادتها .

وظل هذا النظام معمولاً به في عهد الدولة الأموية (في المشرق وفي الأندلس) وكذلك في عهد الدولة العباسية ، مع تعديل بما يوافق تطور الحروب وخطط الأعداء .

عدة الجيش وأسلحته :

أ ــ الأسلحة التقليدية :

كانت الدولة الإسلامية تتعهد الجيش بكل ما يحتاج إليه من سلاح ومؤن وكان يتكون من الفرسان والرجالة . وكانت أسلحة الفرسان هي : الدروع

والسيوف والرماح وهي السلاح الرئيسي للفرسان ، أما أسلحة الرجالة فهي : الدروع والحراب والأقواس والسهام . فالقوس للرمي بالسهام في أول الحرب ، فإذا تقاربت الصفوف بدأ الطعن بالرماح ، فإذا وقع الالتحام كان الضرب بالسيوف .

وكان الرماة أهم عناصر الرجالة ، وكانوا يقفون في صفوف متراصة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان وكان للجند المسلمين مهارة فائقة في استعمال الأقواس لحدة أبصارهم ، وحاجتهم إليها في الصيد .

ب ـ **المنجنيق** : استخدم المسلمون المنجنيق لأول مرة في حصار الطائف في أثناء مطاردتهم لفلول ثقيف التي اعتصمت بالحصون ورمت المسلمين بالنبل . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بنصب المنجنيق وقذف الحجارة به على الأعداء .

وقد طور المسلمون المنجنيق في العهد الأموي بأن أطالوا ذراعه وأحرزوا نتائج باهرة في دك كثير من الحصون والقلاع . كما استخدم بعد ذلك في العصر العباسي في قذف قذائف النفط وذلك بأن يخلط الكبريت مع النفط والحجارة ثم تلف جميعاً في نسيج الكتان . ثم توضع هذه الكور النارية في ذراع المنجنيق وتطلق بعدئذ على الجدران التي تشطرها الحرارة شطرين .

ج ـ **الدبابات** : كذلك استخدم المسلمون في حروبهم الدبابات وهي آلات كبيرة من الخشب يرجح أنه كان لها ألواح من حديد لتحميها من الحريق إذا ما ألقي عليها قضبان من حديد متوهج . وكان النقالون يحيطون بتلك الدبابة الهائلة التي تجر على عجلات ، والتي يدفع بها إلى جدران البلدة المحاصرة . وكانت هذه الدبابات تحمي المجاهدين من قذائف العدو وتمكنهم من إحداث ثغرة بأسوارهم .

د ـ **الأسلحة الوقائية والهجومية** : استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم **الحسك** وأحاط به عسكره ليمنع العدو من الاقتراب من جنده تماماً كما تستعمل الجيوش الحديثة الأسلاك الشائكة . واستعمل المسلمون **الخوذة** لوقاية

الرأس ، **والبيضة** لوقاية الرأس والعنق ، **والترس** لصد الحراب والسهام والرماح والسيوف . كما عرف المسلمون حرب الأعصاب واستخدموا **النار الإغريقية** وجعلوا في جيوشهم فرقة خاصة لاستخدامها عرفت باسم فرقة النفاطين .

وكذلك عرف المسلمون البارود قبل أن تعرفه أوربا بنصف قرن . وقد ترتب على اختراع **البارود** ظهور المدفع حيث عرف المماليك في مصر منه الكبير والصغير ، كما استعملوا **البندقية** أيضاً .

وكان الجيش الإسلامي يزود بمعدات ضرورية مثل الخيام والدواب كالفيلة والجمال والخيول التي كانت بعض سروجها مجوفة ومبطنة بصفائح من القصدير لحفظ الماء فيها . بل إن الجيش الإسلامي كان يمون بكل شيء حتى الإبر والخيوط . أما الرايات فكان الجيش الإسلامي يستكثر منها . وكانت تتميز في أيامه الأولى أنها تحمل عقيدة الإسلام : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ثم صارت بعد ذلك تحمل أسماء الخلفاء وألقابهم ، وأصبح لون الرايات يدل على مذهب الدولة الإسلامية . فكان للأمويين رايات بيض والعباسيين رايات سود ، كذلك كانت الجيوش الإسلامية تكثر من استخدام الطبل والبوق لإذكاء روح الحماس بين أفرادها ، وكان يصحب الجيش علماء الدين في غزواتهم .

الصوائف والشواتي :

كان المسلمون يغزون أراضي الروم في أوقات معينة من السنة . فإن كانت الإغارات في فصل الربيع أو الصيف سميت **الصوائف** وإن جاءت في الشتاء سميت **الشواتي** . فغزو الربيع يبدأ من منتصف آيار (مايو) حين تكون الخيول قد سمنت وقويت من رعيها في كلأ الربيع ومراعيه ، ويستمر الغزو عادة حتى منتصف حزيران[1] (يونيو) وفي هذه الإغارات تجد الخيول غذاء وفيراً من

(١) إن أسماء هذه الشهور السريانية الأصل (السريانية من اللغات السامية) كانت مستعملة في بلاد الروم وممتلكاتهم . بل إن عد الأشهر لا زال يجري بها في جميع أقطار الهلال الخصيب وتركيا .

مراعي الروم التي تمر بها . ثم يجنح المسلمون إلى السكينة ويريحون خيولهم من منتصف حزيران إلى منتصف تموز (يوليو) حيث تبدأ إغارات الصيف . وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوماً . أما إغارات الشتاء فلم يقدم المسلمون عليها إلا في حالات الضرورة القصوى ، دون أن يمعنوا في التوغل داخل أراضي الروم فلم تستغرق الشواتي أكثر من عشرين يوماً يأخذ فيها الجند مؤنهم الضرورية التي تقوم بأودهم خلال هذه الأسابيع الثلاثة . وكانت هذه الشواتي تقع عادة في الفترة ما بين أواخر شباط (فبراير) والنصف الأول من آذار (مارس) .

العواصم والثغور :

اهتم المسلمون والروم بتحصين مناطق الحدود بينهما . وكان خط الحدود يتكون من سلسلتي جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة الحربية (الاستراتيجية) الممتازة لوقوعها عند تقاطع الطرق التي تخترق تلك السلسلة الجبلية ، ولتحكمها كذلك في الممرات الجبلية الضيقة . وحرص كل من المسلمين والروم على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الرئيسية للهجوم أو الدفاع . فوضع الروم منطقة الأطراف التي واجهت أراضي الدولة الإسلامية والتي سميت باسم منطقة الممرات أو الثغور تحت إشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور . وقامت الدولة الإسلامية زمن العباسيين بمثل ما قامت به دولة الروم بتحصين حدودها . فأقبل خلفاؤها على ترميم المعاقل والحصون في منطقة الحدود المطلة على أراضي الروم .

والمعروف أن الخليفة هارون الرشيد هو صاحب الخطوة الرئيسية في تأمين الحدود الإسلامية . فقد أسس إقليماً مشابهاً لإقليم الأطراف عند الروم على حدود البلاد الإسلامية الشمالية وسماه **إقليم العواصم والثغور** ، وعاصمته قنسرين وجعل عليه ابنه المعتصم . وكان الإقليم الجديد قسماً من أرض قنسرين فصله هارون الرشيد عنها تماماً ، وشمل حلب ومنبج وأنطاكية غرباً إلى الساحل .

ويقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ،

لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم ، وفي نفس الوقت للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة لحدود الروم ، وهي الحصون التي سميت بإقليم الثغور لمواجهتها للثغرات أو المنافذ في أرض العدو .

وكان إقليم الثغور ينقسم إلى قسمين أحدهما في الشمال الشرقي ويسمى **بالثغور الجزرية** التي تدافع عن شمال العراق وعن منطقة الجزيرة الفراتية ، والقسم الآخر يسمى بالثغور الشامية في الشمال الغربي حيث يقترب من ساحل خليج الإسكندرونة .

وكانت الدول الإسلامية تنفق بسخاء على أقاليم الثغور ، كما كانت تعنى كل العناية بتقوية مناطق الحدود بينها وبين دولة الروم لتكون دائماً على أهبة الاستعداد والدفاع .

رابعاً : البحرية :

لم يكن للعرب قبل الإسلام إلا معرفة محدودة للغاية بشئون البحر لبداوتهم أساساً وعدم تعودهم ركوب البحر وممارستهم أحواله . ولذا فإن أول حملة بحرية إسلامية في عهد عمر ، والتي قادها العلاء بن الحضرمي ضد فارس ، دون أن يحصل على موافقة سابقة من الخليفة ، تعتبر أول خبرة للأسطول الإسلامي . وقد غضب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهذا لأنه كان يكره للمسلمين ركوب البحر .

غير أنه عندما دخلت كل من الشام ومصر تحت لواء الدولة الإسلامية ، أصبح لها سواحل طويلة . وكانت هذه السواحل تقف عقبة أمام تقدم جيوشها في الوقت الذي كانت تستعمل نقطة هجوم لأعدائها عليهم . ونظراً لقلة خبرة المسلمين بالبحر ومعارضة الخليفة لهم على ركوبه ، فقد لجأوا إلى إصلاح الحصون الساحلية القديمة التي كان العدو يستعملها من قبل ، كما أنشأوا مناظر أي أماكن يراقب منها العدو ، وكانت تتخذ **المواقيد** لطلب الأمداد إذا حدث هجوم مفاجئ .

وكان معاوية بن أبي سفيان والي الشام قد ألح على الخليفة عمر بن

الخطاب في أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً لقربها منه . فكتب إليه أمير المؤمنين لا « والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .

لكن معاوية لم يزل يلح على الخليفة ، حتى تحقق طلبه في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه . إلا أنه أمره بألا يحمل أحداً على ركوب البحر كرهاً ، بل يجعل الأمر اختيارياً ، فشرع معاوية في بناء كثير من السفن . وكان ملاحو السفن في بداية الأمر غالباً من الروم . أما المحاربون فكان معظمهم من العرب . وقد تفوق المسلمون على الروم وغيرهم وكثر عدد السفن وأتقن تسليحها فساعد هذا على اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، كما ساعد هذا على الدفاع عنها وإلقاء الهزيمة بأعدائها ، كما حدث في موقعة ذات الصواري في البحر المتوسط التي حدثت بين والي مصر من قبل عثمان بن عفان ، عبد الله بن أبي السرح ، وبين قسطنطين بن هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية . وقد انتصر المسلمون فيها مع أن عدد سفنهم لم يتجاوز ٢٠٠ سفينة بينما كانت سفن العدو نحو ٦٠٠ سفينة . وقد استخدم المسلمون في هذه المعركة أساليب مبتكرة منها :

١ ـ أنهم ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل ثقيلة فأصبحت صفوفهم كالبنيان المرصوص بحيث عجز البيزنطيون عن اختراقها .

٢ ـ استخدم المسلمون خطاطيف (كلاليب) طويلة أخذوا يقذفون بها سواري السفن البيزنطية وأشرعتها .

٣ ـ ربط المسلمون سفنهم إلى السفن البيزنطية ثم وثبوا عليها يضربون البيزنطيين بالسيوف وبالخناجر .

ولما انتقلت الخلافة إلى معاوية ، أولع بإنشاء السفن الحربية ، حتى كان أسطوله مؤلفاً من ١٧٠٠ سفينة . وفي عهد الوليد بن عبد الملك بلغ الأسطول الإسلامي أوج مجده ، ففتحت إسبانيا والسند ومعظم جزر البحر الأبيض المتوسط الغربي .

وأصبح الأسطول يتكون من خمس وحدات : أسطول الشام ومقره اللاذقية ، وأسطول إفريقيا ومقره تونس ، وأسطول مصر وكانت الإسكندرية

قاعدته ، وأسطول النيل ومقره بابليون ، وأسطول خاص لحراسة مداخل النيل لمنع البيزنطيين من الهجوم على السواحل .

وعندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وكثرت مشاغلها انقسمت البحرية الإسلامية إلى قسمين منفصلين ، أسطول البحر المتوسط ، وأسطول المحيط الهندي . واستمر نمو البحرية الإسلامية بشكل مطرد حتى أصبحت في العهد المملوكي والعثماني قوة يخشى بأسها،استطاعت الدفاع عن المقدسات الإسلامية ضد البرتغاليين ورد اعتداءاتهم عن البلاد الإسلامية،كما استطاعت الدولة العثمانية نشر الإسلام في أوربا وتطهير البحر الأبيض المتوسط من أساطيل الدول المسيحية .

أنواع السفن البحرية :

كانت المراكب البحرية أنواعاً مختلفة ، وقد تم بناؤها في دور صناعة السفن في كل من سواحل مصر وتونس والأندلس وصقلية وغيرها . ومن أهمها :

١ ـ **الشونة ، أو الشواني** : وهي سفن كبيرة كان المسلمون يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم ، ويجدف لها بثلاثة وأربعين ومائة مجداف ، وتحتوي على أهراء لخزن القمح ، وصهاريج لخزن الماء العذب .

٢ ـ **الطراد** : أو الطرادات ، وهي من السفن الصغيرة على هيئة البراميل وكانت تستعمل في مطاردة العدو لسرعتها .

٣ ـ **الحمالات** : وهي التي تحمل الذخيرة للأسطول .

الأسلحة البحرية ومعدات السفن :

كانت السفن الحربية تجهز بمعدات مساعدة للملاحة كالبوصلة التي تستعمل في توجيه السفينة الوجهة المطلوبة والإسطرلاب الذي يعين على تحديد دوائر عرض الميناء وإلى جانب الأدوات الفلكية ، كان الربابنة يستخدمون

الخرائط والصور وسجلات الإرشادات البحرية .

كذلك كانت السفن تجهز بالأسلحة اللازمة للدفاع والهجوم ، ومنها :

١ ـ **التوابيت :** وهي صناديق مفتوحة من أعلاها كانت تجعل في أعلى السواري ويصعد إليها الرجال ومعهم حجارة في مخلاة تعلق بجانب الصندوق فيرمون العدو بالأحجار وهم مستورون بالصناديق . وقد يكون معهم قوارير النفط أو جرار النورة ، وهي مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ ، يعمي غباره وقد يلتهب . وقد يرمون على الأعداء أيضاً قدور الحيات والعقارب ، أو قدور الصابون اللين فتنزلق أقدامهم .

٢ ـ **الكلاليب :** وهي خطاطيف من حديد ، يلقونها على إحدى سفن العدو ، فيوقفونها ، ثم يشدونها إليهم ، ويرمون عليها الألواح كالجسور ، ثم يدخلون إلى السفن لقتال العدو .

٣ ـ **المكاحل (المدافع) :** وقد استخدمها المسلمون براً وبحراً بعد معرفتهم البارود قبل أن تعرفه أوربا بنصف قرن .

٤ ـ **المنجنيق :** وهو آلة لرمي الأحجار وغيرها على العدو . وقد استخدم المسلمون نوعاً من المجانيق عرف أحياناً باسم قوس الزيار وأحياناً باسم منجنيق السهام .

خامسًا : البريد :

تعريف البريد : البريد في الاصطلاح : هو أن تُجهز خيل مضمرات في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

وأول من وضع نظام البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان اقتداء بما كان قبله في الشام أو بما أشار عليه به عماله في العراق .

صاحب البريد ومهامه :

وفي عهد الخليفة عبد الملك أدخلت على البريد تحسينات كثيرة الأهمية في

تأمين المواصلات والأخبار بين الخليفة والولاة . وبلغ من اهتمامه بالبريد أن صاحب البريد كان يدخل عليه في أي وقت . ومما أوصى به حاجبه الا يمنع صاحب البريد من الدخول عليه في الليل أو في النهار ، لأن عدم المبادرة إلى دخوله ساعة قد يفسد أعمال الولاية سنة .

كما جعل الخلفاء والأمراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامات سرية يتفقون عليها ، حتى لا يزور عليهم شيء ، ولو كان مختوماً بخاتمهم .

وقد أصبح البريد في العصر العباسي شبيهاً بقلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن . إذ يراقب صاحبه العمال ، ويتجسس على الأعداء ، وأنشئ له ديوان كبير .

ومهام صاحب البريد أنه كان واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل أوامر الخلفاء إلى ولاتهم وأخبار الولاة إلى خلفائهم . ولم يقتصر عمله على مراقبة توزيع المكاتبات الرسمية فحسب ، بل كان يتعداها إلى موافاة الخليفة بكافة الأخبار والحوادث التي يمده بها أعوانه المنتشرون في أنحاء الأقاليم ، فقد كان يرفع إلى الخليفة التقارير عن أحوال الجند والمال وأحكام القضاة وأسعار الحاجيات ، كما كان من جملة أعماله أيضاً حفظ الطرق وصيانتها من القطاع والأعداء والجواسيس .

أنواع البريد :

أ ـ النقل البري : هو الذي يُحمل على دواب ، على هيئة قطار يتألف من دابة فأكثر . ثم بلغ نظام البريد في عهد بني بويه مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة ، حتى كانت الدولة تنقل البريد في أثناء الحرب بالجمازات وهي محامل أشبه بالعربات التي تجرها الخيل السريعة . وفي بعض الأحوال كان يعتمد على السعاة لنقل البريد وهم رجال خفاف تعودوا الجري والصبر على السير ثلاث مراحل في مرحلة واحدة .

ب ـ البريد الجوي (الحمام الزاجل) لم يكتف المسلمون بما وصل إليه نظام البريد البري ، ولكنهم خطوا خطوات واسعة في تنظيم نظمه وسرعة

وصوله ، واستعملوا في ذلك الحمام الزاجل . وكان يكتب المطلوب بصيغة مقتضبة كالتي تستعمل في البرقيات في وقتنا الحاضر . وكانت الرسالة تشد تحت جناح الطائر أو في ذيله ويكتب منها صورتان ترسلان مع طائرين يطلقان في أوقات متباعدة قليلاً حتى إذا ضل أحدهما أو قتل أمكن الاعتماد على وصول الآخر . وقد جرت العادة ألا يطلق الحمام في الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافي . وقد اعتنى بهذا النوع من البريد خلفاء بني العباس كالخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) .

ج ـ الاتصال بالإشارات الضوئية :

استخدم المسلمون في المراسلة طريقة أسرع من حمام الزاجل ، وهي بناء المنائر كالأبراج العالية على المرتفعات،ونقل الإشارات عليها بإشعال النار ، فينتقل الخبر بها من منارة إلى أخرى ، حتى تصل المكان المطلوب .

سادساً : السكة ودور الضرب :

لم يكن العرب المسلمون يعرفون صناعة العملة حينما فتحوا البلدان ، فأبقوا على العملة السائدة في التداول دون تغيير ، وهي العملة البيزنطية والفارسية وحتى اليمنية القديمة . فبقيت صورة الصليب منقوشة على الأولى ، وصورة بيت النار منقوشة على الثانية .

وعندما اتسعت الدولة الإسلامية وتدفقت عليها جميع المسكوكات ، التي كان بعضها مزيفاً ، لجأ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة ١٨ هـ إلى سك دراهم يزن الواحد منها ١٤ قيراطاً على مثال النقود الفارسية . وكان منقوشاً على بعضها « الحمد لله » وعلى الآخر « محمد رسول الله » وعلى البعض الآخر كذلك « لا إله إلا الله » . وأصدر عثمان رضي الله عنه بعض الدراهم منقوشاً عليها « الله أكبر » . كما أن معاوية ضرب نقوداً ذهبية على مثال الدينار الفارسي وعليها اسمه . وضرب مصعب عملة باسم أخيه عبد الله بن الزبير ، حيث وجدت قطع فضية تحمل اسمه . وكان عبد الله بن الزبير أول من سك

الدرهم الدائري الشكل إذ كان شكل الدراهم السابقة غير تامة الاستدارة ووجهها خشن غير مكتمل . وكان على أحد وجهي الدرهم نقش « محمد رسول الله » وعلى الآخر « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .

ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان ، قرر سك عملة إسلامية بدلاً من العملة الأجنبية ، وذلك تقديراً منه بالإضافة إلى قيمتها الاقتصادية وسيلة للإعلان عن سيادة الدولة الإسلامية بما هو منقوش عليها من عبارات دينية فضلاً عن أنها إعلان لشرعية حكم الخليفة ، ينقش اسمه عليها . وقد بنى داراً لضرب النقود في دمشق ، وأمر بسحب العملة المستعملة في جميع أنحاء الدولة الإسلامية.

وقد أوجدت دور لضرب النقود في العواصم الإسلامية وفي مراكز الولايات ، وكانت دور الضرب تتناول واحداً من المئة عن كمية الأموال التي تضربها للشعب كأجر للعمل وثمن للوقود .

وكانت صناعة ضرب النقود بسيطة ، يؤخذ طابع من حديد تنقش عليه الكلمات التي يراد ضربها على النقود مقلوبة ، ثم توازن المعادن ويوضع الطابع فوق كل قطعة ويضرب عليها بمطرقة ثقيلة حتى تظهر الكتابة عليها .

وفي اللوحة التالية (شكل ١) نماذج متنوعة من النقود الإسلامية في مختلف عهود الدولة الإسلامية .

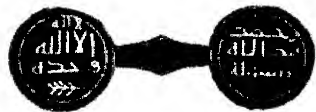
سابعاً : الشرطة والعسس :

الشرطة هم الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة ، أو الوالي في حفظ الأمن ، والقبض على الجناة والمفسدين ، والضرب على أيدي المريبين والمذنبين وتأديبهم وما يتصل بذلك مما يكفل سلامة الناس ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم . ويذكر السيوطي أن أول من شرط الشرطة في الإسلام عمرو بن العاص لما ولي إمارة مصر . وفي عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظمت الشرطة لحراسة المدينة ولقب رئيسها بصاحب الشرطة وكان يختار من علية القوم ، وهو أشبه بمدير الأمن اليوم ، لأنه يتولى رياسة الجند الذين يساعدون

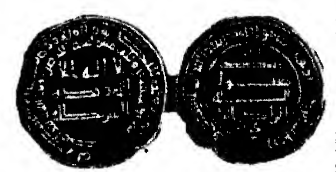
لوحة من النقود الإسلامية في مختلف عهود الدولة الإسلامية







ثلاث قطع من نقود الخلفاء الأولين



قطعة من نقود الخليفة العباسي الراضي
٣٢٨ هـ / ٩٣٣ م



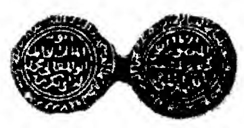


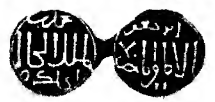
قطعتان من نقود الخليفة الفاطمي المستنصر
٤٤٢ ، ٤٦٥ هـ



قطعة من نقود صلاح الدين اضربت بدمشق
٥٨٣ هـ // ١١٨٧ م

قطعة نقود ذهبية
للخليفة الراضي

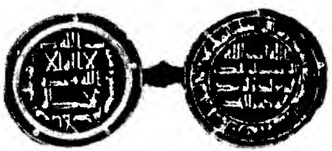




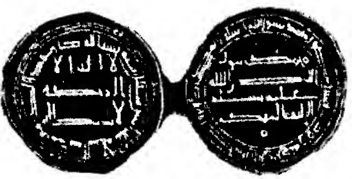
قطعتان من نقود الملك الكامل
وعلى وجه أحدهما اسم الخليفة
العباسي - القرن ١٣ الميلادي



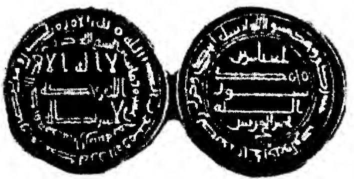
نقود أخرى لصلاح الدين



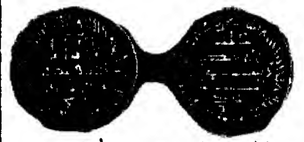
قطعة من نقود الخليفة الأموي هشام بن
عبد الملك (دمشق) ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م



قطعة من نقود الخليفة العباسي المهدي
١٦٢ هـ / ٧٧٩ م



قطعة من نقود الخليفة العباسي المأمون
٢١٨ هـ / ٨٣٣ م



قطعة من نقود أحمد بن طولون
١٥٧ هـ / ٨٧٠ م



قطعة من نقود الظاهر بيبرس

(شكل ١)

الوالي على استتباب الأمن .

وقد جعل لكل حي فرقة من الشرطة مسئولة عن حفظ النظام وإقرار الأمن فيه ليلاً ونهاراً .

والشرطة في الأصل تابعة للقضاء لأن المراد بها تنفيذ أحكام القضاة أو إقامة أشكال التعزير والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ، ومساعدة القاضي في إثبات الذنب على مرتكبه، وإقامة الحدود كحد الزنا وحد شرب الخمر. ثم ما لبثت أن استقلت وانفصلت عن القضاء ، وأصبح لصاحب الشرطة حق النظر في الجرائم وذلك ابتداء من عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) الذي أنشأ نظاماً وسطاً بين شرطة الأمن وشرطة الجيش سماه (نظام الأحداث) أما في عهد دولة الأمويين في الأندلس فكان يسمى صاحب (المدينة) .

أما عن تطور الشرطة وسلطة صاحبها فيلاحظ أن الشرطة في العهد الأموي كانت آلة تنفيذ فقط . لا يقوم صاحبها بعمل إلا بأمر الخليفة أو الأمير ، ثم لما جاء العهد العباسي ازدادت سلطته وأصبح له حق النظر في الجرائم وإيقاع العقوبات .

أما عن العسس فيرجع تأسيسها إلى زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حيث ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن مسعود كان أميراً على العسس في عهد أبي بكر . وأن عمر بن الخطاب تولى هو نفسه العسس ، وكان يصطحب معه ، مولاه وربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف .

وكان الناس يتولون حراسة أنفسهم نهاراً . أما ليلاً فكان رجال العسس يتولون أمر السهر عليهم .

ثامناً : نظام الزراعة والصناعة والتجارة :

أ ـ الزراعة :

دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العناية بالزراعة والغرس، ومن ذلك قوله «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَغْرِسُ غَرْساً أو يَزرَعُ زَرْعاً فَيَأكُل مِنْهُ طَيْرٌ أو بَهِيمَةٌ إلا كان له بِهِ صَدَقَةٌ»[1] .

وقد حمل هذا المؤمنين على الاعتناء بأراضيهم الزراعية واستخراج خيراتها . وقد وجهت الدولة الإسلامية عنايتها بوسائل الري ، فأنشأت القنوات وبنت السدود .

وبلغ من عناية الخلفاء الراشدين بالزراعة والفلاحة أنه في حركة الفتوح قد أوصى أبو بكر خالد بن الوليد عندما وجهه إلى فتح العراق بألا يأخذ من الفلاحين والزراع أي شيء من المال ، بل يقر الذين لم يحاربوا منهم ويكفل حمايتهم وحماية أراضيهم . ولما انتقلت الخلافة إلى الأمويين ، اهتموا بإصلاح وترميم شبكات الري التي وجدوها في البلاد المفتوحة وخاصة في الشام ، ويؤثر عن الخليفة يزيد أنه أمر بحفر مجرى نهر يزيد في دمشق لإرواء الأراضي المرتفعة التي لم تصلها مياه بردى .

كما اهتموا بتجفيف المستنقعات ، وقد فعلوا ذلك في البطائح وهي مستنقعات في أسفل العراق بين البصرة والكوفة .

وبالإضافة إلى ذلك بنوا السدود وشقوا القنوات والترع والأنهار ، وأقاموا عليها الجسور والقناطر وبذلوا في سبيل ذلك أموالاً طائلة ، واستخدموا فيها عدداً كبيراً من العمال .

وقد اهتم العباسيون بشئون الزراعة فراقبوا أمورها مراقبة دقيقة فجددوا

---

(١) الترغيب والترهيب للمنذري .

حفر القنوات القديمة واستحدثوا قنوات جديدة وعملوا على شق الجداول وترميمها وعلى جميع أعمال الري التي تتوقف عليها الحاصلات الزراعية . وبلغ من اهتمامهم بالري أن أوجدوا له ديواناً خاصاً عرف بديوان الماء بلغ عدد المشتغلين فيه عدة آلاف . وقد كان للعراق نصيب الأسد من اهتمام الدولة العباسية لدرجة أنه أصبح ما بين النهرين ـ دجلة والفرات ـ أشبه بشبكة من القنوات والأنهار وسموها باسم (النواظم) لأنها نظمت توزيع المياه . كما أن الخلفاء عمدوا إلى تجفيف المستنقعات في البطائح حيث رشحت بانتظام ترشيحاً دقيقاً ، واستثمرت في الزراعة وكثرت حاصلاتها .

وقد زرعوا كل نوع من نبات في التربة الصالحة له ، بعد أن درسوا صلاحية كل تربة لأنواع النباتات المختلفة ، وبذلك أمكن استغلال الأراضي الزراعية أحسن استغلال . واعتنوا أيضاً بتحسين الأرض عناية كبيرة ، بعد أن عرفوا السماد الصالح لكل نوع من النباتات ، فزاد محصول الأرض تبعاً لذلك زيادة واضحة .

وعرفوا إلى جانب ذلك التلقيح ، وكذلك تطعيم بعض الأشجار من بعض لاستخراج أصناف جديدة . كما أحضروا إلى بلادهم أنواعاً جديدة من الأشجار ، وأبدعوا في تنسيق الحدائق ، وعنوا عناية عظيمة بالأزهار لتصدير عطورها ودهونها وعصيرها ، لذلك راجت في شيراز ودمشق وغيرها صناعة المستخرجات العطرية من الورد والبنفسج

ومن أنظمة استثمار الأرض في العصور الإسلامية وبالذات العهد العباسي **الإيجار** . أو أن تبذر الأرض من قبل صاحبها ثم تعهد إلى فلاح بالزراعة أو تبذر ويشرف عليها صاحبها وتحصد من قبل الفلاح وهذا ما يدعى **بالمخايرة** . وفي كلتا الحالتين يحتفظ الفلاح لنفسه بجزء معين من المحصول . وهناك أيضاً **المغارسة** وهي أن يعطي صاحب الأرض أرضه فلاحاً يغرسها بالأشجار ويستفيد منها خلال سنوات معدودة وينال نصف الأرض المغروسة عند انتهاء مدة العقد . أما **المساقاة** فهي أن يعطي المالك بستاناً للنخيل ليروى

ويسمد ويصان ويحمى من الطيور واللصوص مقابل حصة من الثمار بعد جنيها وتجفيفها . ويقدم المالك الآلات ودواب الحمل وغير ذلك .

أما عن الحاصلات الزراعية فكانت كثيرة ومتنوعة ، ويرجع ذلك إلى تعدد أقاليم الدولة الإسلامية واختلاف جوها . ومن أشهر حاصلات الحبوب فيها الحنطة التي كثرت في العراق وبلاد خوزستان ، والذرة التي كثرت في جنوب الجزيرة العربية وجنوب مصر وفي بلاد النوبة . ثم الأرز الذي يزرع حيث يكثر الماء ، كما في خوزستان لكثرة المستنقعات فيها .

ومن الأشجار المثمرة والفواكه : النخيل والبن والكرم والتين والزيتون والخوخ والكمثرى والمشمش والجوز والسفرجل والرمان والكرز والبطيخ والتفاح . ومن المزروعات التي يتم تصنيعها : القطن وقصب السكر والكتان والنباتات التي يستخرج منها مواد الصباغة كالنيلة والقرمز والزعفران .

ب ـ الصناعة :

لم يهتم سكان شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بالصناعة ، فقد اعتمدوا في حياتهم بالدرجة الأولى على التجارة وتربية المواشي ومن بعدهما على الزراعة ومن ثم على الصناعة إلا أنها كانت ضعيفة وبسيطة . أما في صدر الإسلام فقد شغل العرب بالفتوحات وعندما استقرت الأحوال السياسية والاقتصادية في العهد العباسي اضطر المسلمون إلى تعلم مختلف الصناعات والارتزاق منها . وقد نشطت الصناعة وازدهرت . وكان من أسباب ذلك ارتفاع مستوى المعيشة ، وكثرة الأموال ونشاط التجارة ، واكتمال رقي الدولة الإسلامية .

وارتفعت الصناعة بتوالي الأجيال ، وامتازت كل منطقة إسلامية بصناعات خاصة بها .

جـ ـ التجارة :

كان للعرب معرفة بالتجارة قبل الإسلام وخبرة بها ، وقد ساعدهم على ذلك موقع الجزيرة العربية الممتاز ، فالجزيرة تحتل مركز القلب من العالم

القديم ولا يمكن أن يتم اتصال في البر والبحر إلا عن طريقها وبواسطة سكانها . ولما جاء الإسلام واتسعت الفتوحات وارتقت الزراعة والصناعة ، نشطت التجارة ونمت واتسعت باتساع الفتوحات وازدياد رقعة الدولة الإسلامية حتى بلغت أوجها في العصر العباسي .

وكان من أهم أسباب ازدهار التجارة في العالم الإسلامي :

١ - اتساع مساحة البلاد الخاضعة لسلطة العرب المسلمين.

٢ - وحدة النقد مما سهل التعامل التجاري بين مختلف أنحاء الدولة .

٣ - رقي الصناعة وتقدمها وكثرة إنتاجها ، مما دفع التجار إلى تصريف الفائض .

٤ - ارتفاع مستوى المعيشة وحياة الرخاء والبذخ والترف .

٥ - كثرة الأموال واتساع الثروات .

٦ - نشوء الدويلات المستقلة ، وسعي كل منها إلى التشبّه بالدولة الأم .

فأصبح للمسلمين صلات تجارية مع معظم بلاد العالم ، وامتدت تجارتهم إلى الشرق حتى وصلت إلى الفليبين والصين وإلى الغرب حتى وصلت إلى بلاد الفرنجة ، وإلى الشمال حتى وصلت إلى بلاد الروس ، التي ظلت إلى ما بعد الحروب الصليبية ، هي الطريق بين شمال أوربا والشرق ، وإلى الجنوب حتى وصلت إلى نيجيريا والحبشة وسواحل إفريقيا . وسرعان ما أصبح كثير من البلاد الإسلامية ، مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجاري البري والبحري ، ومن أهم هذه المدن : بغداد والبصرة ، والقاهرة والإسكندرية ، وسيراف وأصفهان، ومرافئ الشام كطرابلس وصيدا وبيروت . وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتين تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكمالية على الأقل .

أساليب التعامل التجاري :

جرت العادة أن يتجمع أصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد في

حي أو عدد من الأحياء الخاصة مؤلفين بذلك سوقاً وكانت تقام للتجار الأغراب خانات أو فنادق . كما أنشأ التجار في كل مركز تجاري هام نقابة مسئولة عن مراقبة المعاملات التجارية ومنع الغش والتدليس . وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الممتازين ويسمى برئيس التجار . أما البيع فكان يتم وفق الشريعة الإسلامية .

وقد عرف نظام الرهون والودائع ، فالرهن يكفل للدائن دينه على تاجر سافر لا يعرف عن أخباره شيئاً . أما نظام الودائع فهو تأمين للبضائع التي لا يستطيع التاجر أن يحملها معه أو لا يكون آمناً عليها في مخزنه الخاص . ويفضل أن يوجد شهود في كلتا الحالتين .

وقد أدى نشاط المسلمين التجاري إلى ابتكار بعض النظم التجارية والمالية التي عرفتها أوربا عنهم ، وقد أثبت بعض العلماء أن أول من عرف نظام الحوالات المالية هم المسلمون ، وعنهم أخذتها أوربا في القرن الرابع الهجري عن طريق إسبانيا وإيطاليا .

ومما لا شك فيه أن المسلمين استفادوا من تجارتهم فضلاً عن الغنى والثروة المالية ، خبرة بشئون الحياة ومعرفة أخلاق الناس وأصبحت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام ، وحضارته ولها السيادة في البلاد ، وغدت السفن الإسلامية وقوافل المسلمين تجوب كل البحار واحتلت المكان الأول للتجارة العالمية .

ونشأ عن هذا التقدم الحضاري ، ازدهار أحوال الجاليات الإسلامية في كثير من البلاد التي تغلب عليها غير المسلمين ، فكان يرأسهم مسلم ، ولا يقبلون حكم غير المسلم فيهم ، ومن هذه الجاليات ما كان في بحر الخزر والهند والصين بل وكوريا وغانة .

أسئلة

أجب عن الأسئلة التالية :

١ ـ عدِّد أهم الدواوين في العهد الأموي ، واختصاص كل منها .

٢ ـ كيف تطورت طرق تعبئة الجيوش الإسلامية ؟ .

٣ ـ تتبع نشأة البحرية الإسلامية باختصار .

٤ ـ اذكر أهم اختصاصات الشرطة .

٥ ـ ما أنواع البريد في الدولة الإسلامية ؟ ثم اشرح بإيجاز كل نوع .

٦ ـ كيف اهتم المسلمون بشئون الزراعة والري ؟ .

٧ ـ ما أهم نتائج النشاط التجاري للمسلمين ؟ .

٨ ـ علل لما يلي :

أ ـ نشأة الديوان في الإسلام .

ب ـ نشأة ديوان المظالم .

جـ ـ سك عملة عربية في عهد عبد الملك بن مروان .

د ـ ارتقاء الصناعة في العهد العباسي .

هـ ـ ازدهار التجارة في العالم الإسلامي .

٩ ـ اكتب مذكرات موجزة فيما يلي :

أ ـ الجيش في العهد العباسي .

ب ـ الأسلحة الوقائية والهجومية .

جـ ـ الصوائف والشواتي .

د ـ العواصم والثغور .

هـ ـ مهام صاحب البريد .

الفصل الرابع

النظام المالي

يتناول هذا الفصل التنظيم المالي في الدولة الإسلامية ويشمل هذا التنظيم : بيت المال (خزانة الدولة) وتطوره ، والموارد التي تصب في هذا البيت وبالتالي سبل إنفاقها . وفيما يلي عرض موجز لكل من هذه التنظيمات :

أولاً : التعريف ببيت المال : ونقصد به بيت مال الدولة . وهو أشبه بوزارة المالية في العصر الحالي .

مهمة بيت المال : تتمثل مهمة بيت المال في تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصروفاتها .

تاريخ بيت المال :

لم يكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا في عهد أبي بكر رضي الله عنه بيت مال . لكن الأحوال تغيَّرت في عهد عمر بن الخطاب ، فقد اتَّسعت رقعة الدولة الإسلامية ، واستولى المسلمون على أراضي كسرى وقيصر ، فكثرت الأموال كما كثر عدد الجند ، وأصبح من العسير ضبط الأموال بدون كتاب (سجل) .

ولما اتسعت أرجاء الدولة الإسلامية بحيث شملت مساحات واسعة جداً من البقاع ، كان لا بد من نظام تدار به هذه الدولة الواسعة ، ولا بد من وضع قواعد ثابتة للاستقرار ، ومن أجل هذا أنشأ عمر رضي الله عنه الديوان . وعيّن عبد

الله بن الأرقم أميناً له . وجعل لكل ولاية أميناً لبيت المال ، له اختصاصات مستقلة عن عمل الوالي والقاضي ، ورتب لكل بيت مال حرساً خاصاً لحراسته . واستمر الحال كذلك في عهد خلافة كل من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

وكان بيت المال يعتبر في عصر الراشدين ملكاً للمسلمين عامة ، لكل منهم نصيب فيه ، ينال كل محارب أو موظف مقداراً معيناً منه كل شهر .

أنواع بيت المال :

ولما كان من الأمور المقررة ، أن الدولة الإسلامية ، ملك للمسلمين جميعاً ، فقد قضى ــ منذ صدر الإسلام ــ بالفصل بين (بيت المال العام) وبين خزانة الخليفة وهي المسماة (بيت مال الخاصة) .

علاقة بيت المال بدرجة الرقي الحضاري :

تأتي علاقة بيت المال بدرجة الرقي الحضاري من أنه يمثل الجانب المادي في الحضارة الإسلامية ، وهو ما يعرف بالمدنية ، وهذا الجانب المادي في الحضارة الإسلامية لعب دوراً فعالاً في هذه الناحية : بالفتوحات والمنشآت والإصلاحات والاهتمام بالإنتاج الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة والاهتمام بالمعارف العامة بجميع جوانبها ، والاهتمام بالنظم الإسلامية المختلفة . كل ذلك كان الجانب المادي فيه من أهم مقوماته .

فلقد بدأت الفتوحات الإسلامية منذ خلافة أبي بكر رضي الله عنه وتمكن العرب المسلمون في عهد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الاستيلاء

على كل أملاك الدولة الفارسية ، وضمت بلاداً واسعة من أملاك الدولة البيزنطية في آسيا وإفريقية ، واستمرت حركة الفتوحات في عهد الخليفة عثمان

ابن عفان رضي الله عنه ثم نشطت هذه الحركة في عهد الدولة الأموية حتى بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) فامتدت من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، وضمت كل بلاد الشمال الإفريقي ، كما ضمت بلاد الأندلس وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وجزيرة صقلية . ولقد ساعد الوليد على ذلك أنه عندما تولى الخلافة ، وجد بيت مال المسلمين عامراً بالأموال التي تركها له والده عبد الملك بن مروان . فاستخدمها في الجهاد وفي توسيع رقعة الإسلام ، وفي التعمير حتى اعتبر عهده من ألمع العصور التاريخية .

أما بالنسبة للدولة العباسية ، التي بلغت في عهدها الحضارة الإسلامية أوج عظمتها فيعزى ذلك إلى تشجيع الخلفاء للعلماء والمترجمين .

ولقد بهرت أعمال العرب الحضارية في الأندلس كل أوربا ، فالعرب المسلمون عندما فتحوا الأندلس سنة ٩٢ هـ ، لم تكن معهم أموال ، ولكنهم بعدما استقروا في البلاد ، استطاعوا أن يحولوا إسبانيا مادياً وثقافياً في عدة قرون ، ويجعلوها على رأس جميع الممالك الأوربية ، لأنهم كانوا (أي العرب) متمسكين بالأسس القويمة التي رسمها لهم الإسلام .

ففي أقل من قرن من الزمان أحيوا موات الأرض هناك ، وعمروا خراب المدن وشيدوا أفخم المباني ، ووطدوا وثيق العلاقات التجارية مع الأمم المختلفة . ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ، ويترجمون كتب اليونان واللاتينيين وينشئون الجامعات التي ظلت ملجأ للثقافة في أوربا زمناً طويلاً . وأخذت حضارة العرب تنهض في الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) فغدت قرطبة أرقى مدن العالم لمدة ثلاثة قرون . ومن مظاهر الحضارة الإسلامية في الأندلس أن الخليفة الناصر أنشأ **جامع قرطبة** الشهير الذي يعد من عجائب الدنيا ، وصار هذا الخليفة ينفق دخل بيت المال

في إصلاح البلاد وعمرانها بدلا من إنفاقه في الغزوات البعيدة ونسج خلفاؤه من بعده على منواله .

ثانياً موارد بيت المال :

أهم موارد بيت المال هي : الزكاة ، والخراج ، والجزية ، والغنيمة ، والفيء ، والعشور ، وموارد أخر كريع المناجم والمواريث الحشرية .

١ ـ الزكاة :

الزكاة فريضة فرضها الله على المسلمين وهي أحد أركان الإسلام الخمسة وتسمى أيضاً الصدقة . يقول سبحانه وتعالى لنبيه :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [1]

بمقتضى الآية الكريمة أمر الله نبيه أن يأخذها من أموال الأغنياء ليردها على الفقراء .

٢ ـ الخراج :

والخراج مقدار معين من المال أو الحاصلات ، يفرض على الأراضي التي صولح عليها . ويؤخذ الخراج :

أ ـ عن الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة ، إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين أو المجاهدين ، وغالباً ما كان ذلك يتم باسترضاء المجاهدين أو بتعويضهم عن نصيبهم كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقد أعلن بعد جدل ونقاش مع الصحابة أن الأرض المفتوحة هي ملك لجميع المسلمين وليست ملكاً للمقاتلين منهم فقط ، ولذا أبقى عليها أهلها مقابل « خراج » يدفعونه للدولة .

(١) الآية (١٠٣) من سورة التوبة .

ب ـ عن الأراضي التي أفاء الله بها على المسلمين ، فملكوها صلحاً « أي بدون قتال » على أن يدفعوا خراجاً معلوماً إلى بيت المال .

جـ ـ عن الأراضي الموات التي أحياها المسلمون وكانت في أرض خراج ولم يحتفر لها بئر أو يعمل لها قناة .

وكان الخراج إما شيئاً مقدراً من حاصلات زراعية أو غلال أو أموال نقدية ، وإما حصة معينة مما يخرج من الأرض ، اصطلح على تسميتها فيما بعد « بالمزارعة » أو ـ المعاملة .

ولم تكن قيمة الخراج ثابتة ، بل كانت متغيرة تبعاً لوسائل الري وجودة الأرض، وبحسب الأسعار والأزمنة وحاجة الدولة .

وكان الخراج يقوم على أساس مساحة القرية كلها ، أو على أساس المساحة المزروعة ، أو على أساس تقويم الإنتاج ، وقد أبطلها المقتدر (٢٩٥ ـ ٣١٠ هـ) لما في ذلك من إجحاف بحق الفلاحين في السنين العجاف .

وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ، ويحاسبون الولاة وعمال الخراج حساباً عسيراً ، وقد سن الأمويون نظاماً دقيقاً للإشراف على جباية الخراج ، فكان يعمل تحقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم ، ويردون إلى بيت المال ما سلبوه من الأموال وهو ما يسمى بالاستخراج أو التكشيف .

والخراج يتناول نوعين من الأراضي ، التي يكتفي أصحابها بدفع عشر محصولاتها وغلاتها ، وهما :

أ ـ الأرض العشرية التي أسلم أهلها وهم عليها دون قتال .

ب ـ الأرض التي ملكها المسلمون عنوة وقسمها الخليفة على المجاهدين .

٣ ـ الجزية :

وهي مبلغ معين من المال توضع على الرؤوس ، وتسقط بالإسلام ، وقد

ثبتت بنص القرآن بقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾

والفرق بين الجزية والخراج ، أن الخراج على الأرض ولا يسقط باعتناق الإسلام، ثم إنه استنبطت أحكامه بالاجتهاد لا بنص القرآن .

والأصل في فرض الجزية على الذميين هو التوازن في الدولة عن طريق التكافؤ فالمسلمون والذميون في نظر الإسلام رعية لدولة واحدة ، ويتمتعون بحقوق واحدة ، وينتفعون بمصالح الدولة بنسبة واحدة ومن هنا فرضت الجزية على أهل الذمة مقابل قيام المسلمين بالدفاع عنهم ومقابل فرض الزكاة على المسلمين.

هذا وكانت الجزية تفرض على جميع الذكور الذميين القادرين على دفعها فلا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ الطاعنين في السن ، الذين لا يستطيعون العمل،ولا من العميان والمقعدين والمجانين ، ولا من رجال الدين إلا إذا كانوا أغنياء . أي إنها فرضت على كل الأشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد .

وقد حثت السنّة قادة المسلمين على الرفق والإنصاف في جباية الجزية من الذميين ، وحماية أرواحهم وأموالهم من عبث الجباة . والأدلة كثيرة على حسن معاملة المسلمين في صدر الإسلام لأهل الكتاب تشهد بروح العدل والرفق والشعور النبيل نحوهم ، ولقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ ظَلَمَ مُعاهِداً أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ فَأنا حَجيجُهُ » .

٤ ـ الغنيمة :

هي ما يغنمه المسلمون ويأخذونه من الأعداء ، وهي أربعة أقسام : أسرى وسبي وأرض وأموال منقولة . فالأسرى : هم المقاتلون الذين يعقون في

---

(١) الآية (٢٩) من سورة التوبة .

الأسر . واختلف في حكمهم منها قبول الفدية عنهم أو قتلهم أو أن يمن الخليفة عليهم بإطلاق سراحهم . أما السبي فهم النساء والأطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين ولا يجوز قتلهم . أما الأرض التي يستولي عليها المسلمون عنوة وقهراً فتقسم بين الغانمين ، إلا أن يطيبوا نفساً بتركها فتجعل وقفاً على مصالح المسلمين . والأموال المنقولة هي ما يمكن نقله كالنقود والماشية .

وحين تجمع الغنائم يقسمها الإمام خمسة أسهم أربعة أخماس للمقاتلين وخمس للرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . وذلك حسبما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [1]

٥ ـ الفيء :

وهو كل مال كسبه المسلمون عفواً دون قتال ، ويقسم أيضاً خمسة أخماس . ويكون خمسها الأول مقسوماً إلى خمسة أسهم كالغنيمة ، فالسهم الأول منها لرسول الله والأسهم الأربعة الباقية لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل عملاً بقوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ ﴾ [2]

٦ ـ العشور :

يرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وكانت العشور تؤخذ في الإسلام على أنها ضرائب على بضائع التجار غير المسلمين

---

(١) من الآية ٤١ من سورة الأنفال .

(٢) من الآية ٧ من سورة الحشر .

(الكفار) حين ينقلون بضائعهم من دار الحرب (أي ديارهم) إلى دار الإسلام (أرض المسلمين) ، وهي أشبه بالضرائب الجمركية في الوقت الحاضر . وكانت أحياناً تقل عن العشر أو تزيد حسب الظروف وتبعاً لرأي الإمام ، كما له أن يدفع ذلك عنهم نهائياً . إذا رأى المصلحة فيه ، بعد مشورة أولي العلم . والعشر يؤخذ مرة في العام ، حتى لو تكرر قدوم التاجر خلال السنة . وهي معاملة بالمثل كما قال عمر لأبي موسى الأشعري « خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين » .

أما بالنسبة للتجار الذميين الذين يردون إلى دار السلام ، فيؤخذ منهم نصف العشر ، ويؤخذ من التجار المسلمين ربع العشر ، إذا بلغ ثمن السلعة مائتي درهم فأكثر . وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى .

٧ ـ ريع المناجم الحكومية :

يشير الفقهاء في بعض تفصيلاتهم إلى ما سمي بالمعدن والركاز . وهما مال وجد تحت الأرض ، سواء أكان مما ركزه الله في الأرض من معادن أو غيرها أو كان كنزاً تركه بعض الناس وفيه يقول الحسن البصري : « ما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس . وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة وهو ربع العشر » .

٨ ـ المواريث الحشرية :

(مواريث من لا وارث لهم) فكان يضم كل ما كان يملكه الشخص من هذا النوع إلى بيت مال المسلمين .

ثالثاً : مصاريف بيت المال :

إن مصارف بيت المال متنوعة إلا أنه بالإمكان تصنيفها في ثلاثة بنود :

البند الأول : لقد جاءت موارده من الخراج والجزية وأموال تجارة الكفار وأهل الذمة . وهذه الأموال كانت تصرف في المصالح العامة مثل رواتب الخلفاء والولاة والقضاة ، والجند وبناء القناطر وإقامة الجسور وسد الثغور وحفر الترع ، وإصلاح الأنهار وغير ذلك .

البند الثاني : وموارده من الزكاة التي تؤخذ من المسلمين وفق التشريع الإسلامي . وكان هذا البند ينفق في النواحي التي ذكرت في الآية الكريمة :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (١)

البند الثالث : وموارده من خمس الغنائم وينفق في الأوجه التي ذكرت في قوله تعالى :

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (٢)

رابعاً : أمثلة عن وضع بيت المال في عهد كل من :

عمر بن الخطاب ، والوليد بن عبد الملك ، والمنصور العباسي ، وعبد الرحمن الناصر ، والمماليك .

١ - في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

سبق أن ذكرنا أن عمر بن الخطاب هو أول من أنشأ « بيت المال » ، فيقول ابن خلدون في مقدمته « وأول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية عمر بن الخطاب رضي الله عنه » . وعمر رضي الله عنه هو الذي قرر أن يكون الخراج مالاً أو غلة .

---
(١) الآية (٦٠) من سورة التوبة .

(٢) الآية (٤١) من سورة الأنفال .

وعندما تم فتح بلاد الفرس ، ودخلت بلاد الشام ومصر وإفريقية تحت لواء الإسلام ، استبقى عمر رضي الله عنه ما كان في هذه البلاد من دواوين خاصة بالضرائب وظل يعمل فيها موظفون من أهاليها حتى تم تعريب الدواوين في عهدي عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك .

وعمر رضي الله عنه ، هو أول من فرض العطاء للناس جميعاً حتى للأطفال . وعلى الرغم من أن (بيت المال) في عهده كان يضم الكثير من الأموال بسبب ما فتحه الله على المسلمين من فتوحات ، إلا أن عمر مكث زمانـًا لا يأخذ من بيت المال شيئـًا حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة ، فأرسل إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فاستشارهم وقال لهم : شغلت نفسي في هذا الأمر ، فما يصلح لي منه ، فقال علي رضي الله عنه : غداء وعشاء . فأخذ عمر بذلك .

٢ ــ في عهد الوليد بن عبد الملك :

كان الخليفة عبد الملك بن مروان هو أول من عرب الدواوين والسكة في الدولة الإسلامية . وذلك عندما استعرت نار العداوة بينه وبين أباطرة دولة الروم . وعندما ظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتابة والحسابات نتيجة لرقي الحضارة . وتـمَّ تعريب دواوين فارس والشام في عهده .

ولما تولى الخلافة بعده ابنه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦ هـ ، حذا الوليد حذو والده في سياسة التعريب ، فتم في عهده تحويل ديوان الخراج في مصر إلى العربية سنة ٨٧ هـ .

هذا ولقد ترك عبد الملك بن مروان لابنه دولة مستقرة موحدة ، كما ترك بيت المال عامراً بالأموال فاستغلها الوليد لمصلحة الأمة الإسلامية في ميادين التعمير والإنشاءات والفتوحات .

٣ ــ في عهد المنصور العباسي :

لما قام الخليفة المنصور بتنظيم الإدارة الحكومية في دولته ، عين الوزراء

المختصين بشئون المال ومنهم : صاحب الأعمال المخزنية ، وكان لهذا اختصاصات وسلطات واسعة في السهر على تحصيل الأموال العامة وإنفاقها ، وفي رقابة العمال المشرفين ، وفي محاسبتهم والقبض عليهم . وكان لهم وكلاء في سائر المدن الكبرى يسمون بالمشرفين . وكان للمشرفين : خازن على المال ، وخازن على الطعام يتولى الإشراف على حركة الواردات والصادرات من المخازن العامة وإليها .

أما متولي المستخلص فهو المشرف على الأموال الخليفية والمحافظة عليها ، وتحصيل ما يتعلق بها من مختلف أبواب الدخل ، وهي حقوق الخليفة وأنصبته الشرعية في الغنائم وغيرها .

وكان المنصور حريصاً على أموال المسلمين ، بألا تصرف إلا في خدمة المصلحة العامة للمسلمين .

٤ ــ في عهد عبد الرحمن الناصر :

في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ــ ٣٥٠ هـ) كان النظام المالي في الأندلس يتألف من أمور ثلاثة :

١ ــ الخزانة العامة .

٢ ــ إدارة بيت المال .

٣ ــ إدارة خاصة بالخليفة .

وكانت موارد بيت المال مقتصرة على ما كان يرد عليها من الأحباس (الأوقاف) . وكان مقر هذا الديوان المسجد الكبير بقرطبة ، ويقوم على صيانة المنشآت الدينية ودفع رواتب موظفي المساجد ، وتوزيع الصدقات ، ويشرف عليه رئيس القضاة أو من ينوب عنه تحت إشراف الخليفة .

ويشرف على الخزانة العامة أحد كبار الموظفين ويسمى خازن المال ، وقصر الخزانة هو مقر الخليفة ، وتودع فيه أموال المدن والقرى ، وأموال التركات التي تبقى بلا وارث ، وضرائب التركات والرسوم الجمركية ، غير

الخراج والجزية والعشور .

٥ ــ في عهد المماليك :

كانت موارد بيت المال في العصر المملوكي تتكون من :

١ ــ الرسوم الجمركية على البضائع الواردة إلى الإسكندرية أو دمياط ، وكان الفقهاء في هذا العصر يرون أن موارد بيت المال التي فيها مكوس تعتبر حراماً فيلزم على الوزير المختص ألا يخلط المال الحلال بالمال الحرام ، وكان الوزير في هذا العصر هو الموظف المسئول عن النظر في المكوس وغيرها من الأموال التي ترفع إلى السلطان وبيت المال .

٢ ــ ما يدخل بيت المال من التركات التي لا وارث لها وهو ما يعرف بالمواريث الحشرية .

٣ ــ ما يحصل من دار الضرب على النقود في القاهرة .

٤ ــ ما يحبس من أموال الإقطاعات ، وكان ديوان الجيش هو الذي ينظم الإقطاعات وربما أقطع هذا الديوان أحد الجنود قريةً كاملةً ، فيقرر على هذا الشخص المقطع مبلغاً من المال يدفعه كل سنة إلى بيت المال .

ويقوم باستخلاص المال المقرر موظف يقال له **مشد الدواوين** ، فيضرب ويعاقب من جهل بالنظام حتى يؤدي ما عليه .

أما عن مصارف بيت المال في عهد المماليك فهي :

١ ــ أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم .

٢ ــ أرزاق الجند .

٣ ــ كرى الأنهار .

٤ ــ حفر الترع .

٥ ــ النفقة على المسجونين والأسرى .

٦ ـ المعدات الحربية .

٧ ـ العطايا والمنح .

٦ ـ في العهد العثماني :

استمر نظام بيت المال في صدر الدولة العثمانية على النحو الذي كان متبعاً في الدولة الإسلامية قبل قيام تلك الدولة من حيث موارده ونفقاته .

إلا أنه بعد إدخال التنظيمات الغربية على كثير من الإدارات العثمانية ، اتخذت الدولة العثمانية نظاماً مالياً معيناً لحصر مواردها ونفقاتها .

وكان النظام الذي تجبى بواسطته الضرائب سواء أكانت عينية أو نقدية يقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : **نظام الالتزام السنوي :** وهو أن تطرح الدولة ضرائبها في كل ولاية من ولاياتها على رعايا تلك الولاية في المزاد العلني سنوياً ومن يتقدم بأعلى رقم تلزمه الدولة بجمع وارداتها من تلك الولاية .

وكان الملتزم يجمع أكبر قدر ممكن من الضرائب ليتمكن من دفع نصيب الدولة كاملاً وما تبقى يأخذه لنفسه . وكان الملتزم يستخدم كل الوسائل ليحصل على ما يريد .

الثاني : **نظام الالتزام المالكاني :** وينص هذا النظام على التزام الملتزم بجباية أموال الدولة في كل ولاية من ولاياتها بواسطة الالتزام مدى الحياة . وهذا النظام خَفَّفَ من جشع كثير من الملتزمين كما خَفَّفَ من الضغط الذي كان يقع على الرعايا نتيجة لنظام الالتزام السنوي .

الثالث : **نظام الأمانة :** وهو أن الدولة تجبي ضرائبها بواسطة موظفيها الذين يأخذون رواتبهم من الدولة .

أما النفقات فكانت تصرف على الرواتب ومخصصات الباب العالي ، وعلى الدفاع والتعليم ومد الطرق بأنواعها وإقامة المنشآت العامة والمساجد وبناء السفن إلى غير ذلك لا سيما الحروب .

أسئلة

أجب عما يلي :

١ ـ وضح العلاقة بين بيت المال ودرجة الرقي الحضاري في الدولة الإسلامية .

٢ ـ عدد كلاً من موارد بيت المال ومصارفه .

٣ ـ قارن وضع بيت المال في عهد كل من عبد الرحمن الناصر والمماليك .

٤ ـ تكلم عن مراحل بيت المال في العهد العثماني .

٥ – اكتب مذكرات فيما يأتي :

الجزية – الغنيمة – العشور .

٦ – الزكاة أحدى موارد بيت المال ، فأين تصرف ؟ .

٧ – من أي مورد من موارد بيت المال ، يصرف على الموظفين والجند والمشروعات في عهد الدولة الأموية .

الفصل الخامس

النظام القضائي

أولاً نشأة القضاء في الإسلام ونموه :

١ ـ في الجاهلية :

عرف العرب في جاهليتهم نظام القضاء . فكانوا يسمون القضاء حكومة والقاضي حكماً . وكان شيخ القبيلة هو الذي يحكم بين من يختصمون لديه .

غير أن نظام القضاء في جاهلية العرب كان فيه عيوب كثيرة وبذلك فهو يختلف عن نظام القضاء الإسلامي في جملة أمور جوهرية أبرزها اثنان :

الأول : لم يستند القضاء في الجاهلية إلى قانون مكتوب ، وإنما كان يعتمد على العرف وعلى ما تتطلبه الحكمة والعدل . أما في الإسلام ، فإن القضاء يعتمد على الكتاب والسنّة والقياس والإجماع .

الثاني : لم يكن حكم القاضي في الجاهلية ملزماً . فكثيراً ما كان يرفض أحد المتخاصمين حكم القاضي . أما في الإسلام ، فإن الحكم واجب الاتباع من قبل جميع الأطراف المتخاصمة . والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [1]

ومن هذه الآية الكريمة تبدو القناعة التامة والرضاء المطلق بالحكم الإسلامي والالتزام به .

٢ ـ في عهد الرسول :

يرتبط نشوء نظام القضاء في الإسلام بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) الآية (٦٥) من سورة النساء .

إلى يثرب . فقد أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصول نظام القضاء الإسلامي حين عقد الحلف المشهور بين المهاجرين وأهل يثرب من أنصار ويهود وغيرهم من المشركين وتقرر آنذاك : « وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله » .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضياً كما كان للشريعة مبلغاً . ولم يكن للمسلمين في عهده قاض سواه . وكان عليه الصلاة والسلام يحكم بين الناس بما يوحي به إليه رب العالمين من الذكر الحكيم، وكان المتخاصمان يحضران إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مختارين فيسمع كلام كل منهما . وكان من طرق الإثبات عنده : البينة ، واليمين ، وشهادة الشهود ، والأشياء المكتوبة والفراسة . وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « البيِّنةُ على المدّعي واليمينُ على مَنْ أنكر » .

والبينة في الشرع هي اسم لما يبين الحق ويظهره . وهذا يعني أن المدعي مُلْزَمٌ بإظهار ما يبين صحة دعواه . فإذا أظهر صدقه بإحدى الطرق ، حكم له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أُمِرْتُ أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » . كما كان صلى الله عليه وسلم لا يحابي أحداً من المتخاصمين . فقد أثر عنه أنه قال : « إذا جلس بين يديك الخصمان ، فلا تَقْضِ حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء » . وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر » .

ولم يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه عيَّن في بلد من البلدان رجلاً اختص بالقضاء بين المسلمين . بل كان صلى الله عليه وسلم يعهد بذلك إلى بعض الولاة ليكون القضاء جزءاً من أعمالهم، كما أنه كان يعهد إلى بعض أصحابه بفَضّ بعض الخصومات . وكما أذن صلى الله عليه وسلم لنفر من أصحابه بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنَّة والاجتهاد ، فقد أذن أيضاً لبعض

أصحابه بالفتيا بين الناس . وبلغ عدد من اشتهروا بالفتيا من الصحابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم (١٣١) رجلاً وامرأة . منهم : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأم المؤمنين عائشة ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

٣ ـ في عهدي أبي بكر وعمر :

ولما ولي الخلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، أسند القضاء إلى عمر بن الخطاب الذي لم يتلقب بلقب القاضي . غير أن اتساع رقعة الإسلام في عهد عمر بن الخطاب واختلاط المسلمين العرب بغيرهم من الأمم استدعى إدخال نظام تشريعي لفض المسائل أو المشكلات التي تنشأ بين الأفراد المسلمين من العرب وغيرهم . وكان هذا النظام يقوم على أساس تعيين قضاة ينوبون عن الخليفة في فض القضايا طبقاً لأحكام القرآن والسنَّة والقياس والإجماع .

وهكذا ، فإن عمر بن الخطاب هو أول من عين القضاة في الولايات الإسلامية . وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة أو الوالي إذا كانت ولاية عامة ، بمعنى أن تكون له الولاية على الخراج والصلاة معاً . فولى الفاروق أبا الدرداء قضاء المدينة ، وولى شريح بن الحارث الكندي قضاء الكوفة . كما ولى أبا موسى الأشعري قضاء البصرة ، وولى عثمان بن قيس أبي العاص قضاء مصر . أما قضاء الشام فقد جعل له تنظيماً قضائياً مستقلاً .

وقد سن عمر رضي الله عنه لهؤلاء القضاة كتاباً يسيرون على هديه في أحكامهم . ويعتبر هذا الكتاب أساس علم المرافعات في القضاء الإسلامي ، وبعث بهذا الكتاب إلى أبي موسى الأشعري وإلى غيره من القضاة وهاك نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن قيس[1] ، سلام عليك . أما بعد ، فالقضاء فريضة محكمة ، وسنَّة متبعة .

---

(١) هو اسم أبي موسى الأشعري .

فافهم إذا أُدْلِيَ (جيء به) إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له بين الناس فساو بينهم في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك (جورك) ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق . فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك ، مما ليس في كتاب ولا سنّة ، ثم اعرف الأمثال والأشياء وقس الأمور بنظائرها ، واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينة أخذ بحقه ، وإلا وجهت القضاء عليه ، فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً في شهادة زور أو ظنيناً (متهماً) في ولاء أو قرابة . فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات ، وإياك والقلق والضجر والتأذي للناس ، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الزجر . فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه . يكفه الله ما بينه وبين الناس . ومن زين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شنأه الله » .

٤ ـ في العهدين الأموي والعباسي :

ولما توسعت الدولة الإسلامية في العهدين الأموي والعباسي ، اتسع النظام القضائي من حيث التشكيل والاختصاصات ، وذلك من أجل تطبيق العدالة بين مختلف أفراد المجتمع وإدخال الطمأنينة إلى نفوسهم في ظل تعاليم الدين الإسلامي الحنيف . ولتحقيق هذه الأغراض أصبح النظام القضائي في العهدين آنفي الذكر يتكون من :

القاضي ، والمحتسب ، وقاضي المظالم . فأما القاضي فكانت مهامه في فض المنازعات المرتبطة بالأمور الدينية بوجه عام . أما وظيفة المحتسب فهي النظر بالقضايا المتعلقة بالنظام العام وأحياناً في الجنايات التي يحتاج الفصل فيها إلى

السرعة . أما وظيفة قاضي المظالم فهي الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي أو المحتسب .

هذا وقد أوجد في العصر العباسي ما يسمى **بقاضي القضاة** أي رئيس القضاة . ومركزه العاصمة وهو يولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم والأمصار . وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف صاحب كتاب الخراج . وكان ذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد . وفي الأندلس كان يطلق على رئيس القضاة لقب قاضي الجماعة ، ومركزه قرطبة .

ثانياً : مكانة القضاء ومهمته وأسسه :

القضاء هو أحد الأركان الأساسية الثلاثة في نظام كل دولة . أما الركنان الآخران فهما السلطتان التشريعية والتنفيذية . ومنذ قديم الزمان والقضاء يتبوأ مكانة رفيعة في المجتمع توجب احترام أحكامه . وقد اعتبرت صفة الحكم في الإسلام من صفات الله تعالى فهو ، تبارك اسمه ، أحكم الحاكمين . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد هذا المفهوم . فمن ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ (١)

وقد شرف الله تعالى رسوله الكريم وخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم بصفة الحكم فقال تعالى مخاطباً إياه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (٢)

أما مهمة القضاء في الإسلام فهي الفصل بين الناس في القضايا المتنازع عليها على سبيل الإلزام بحكم شرعي من الكتاب والسنَّة أو الإجماع أو القياس ، حتى يظهر الحق وينتهي التنازع .

---

(١) الآية (٥٧) من سورة الأنعام .
(٢) الآية (١٠٥) من سورة النساء .

والعدل والمساواة ، من أهم أسس نظام القضاء الإسلامي . فالله سبحانه وتعالى يأمر المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل .

قال تعالى :

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٣)

وفي الحديث الشريف : « إنَّ المقسِطينَ عند رَبِّهم يومَ القيامةِ على بناءٍ مِنْ نورٍ على يَمينِ الرَّحْمَن » وأيضاً : (عدلُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادة ستِّينَ سنة ، وجَورُ ساعةٍ في حُكْمٍ أشدُّ وأعظَمُ عند الله مِنْ معاصي ستِّين سنة) .

وللثقة التي تمنح للقضاة لما هم عليه من النزاهة والعدل ، فإن الدولة الإسلامية جعلتهم في مكان الصدارة احتراماً ووضعت أحكامهم موضع التنفيذ بكل قوة ودقة . والقرآن الكريم أمر المسلمين أن يسلموا تسليماً بما يقضي به الرسول صلى الله عليه وسلم .

هذا وقد أخذت معظم القوانين في العالم بمبدأ احترام القاضي وهو في مجلس الحكم وأعطته حق إخراج ومعاقبة كل من يخل بهيبة القاضي واحترامه . كما أقرت جميع الشرائع احترام القاضي . وما يصدر عنه من أحكام وأنه يجب الانقياد لها .

---

(٢) الآية (٤٢) من سورة المائدة .
(٣) الآية (٩) من سورة الحجرات .

ثالثاً : استقلال القضاء وصفات القضاة عبر التاريخ الإسلامي :

لاحظنا أن العدل والرحمة والمساواة كانت من أبرز السمات في نظام قضائنا الإسلامي عبر عصوره التاريخية المختلفة ، كما أن تاريخنا الإسلامي مليء بالشواهد التي تدل على استقلال القضاء في صدر الإسلام وعصور التقدم والازدهار . هذا وقد حرصت جميع الدساتير على توكيد استقلال القضاء وهيبته إزاء السلطة التنفيذية .

ففي عهد الخلفاء الراشدين كان القضاء مستقلاً محترم الجانب ، وكان يراعى في اختيار القاضي الصفات الآتية : غزارة العلم والتقوى والورع والعدل . وكان القاضي يحكم أحياناً حسبما يمليه عليه اجتهاده ، وذلك بأن يرجع أولاً إلى الكتاب والسنَّة فإن لم يجد فيهما نصاً للبت فيما يعرض له من مسألة ، اجتهد برأيه وقاس الأمور بأشباهها . ومن ثم أصبح الاجتهاد ، بمعنى الرأي أو القياس ، مبدأ يعتد به في الأحكام القضائية في العصور التالية . ولم يكن للقاضي كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام لأنها كانت تنفذ على أثر البت فيها . وكان القاضي يقوم بتنفيذها بنفسه . كما كان القاضي يجلس للحكم في منزله في البداية ثم أصبح يجلس في المسجد للفصل في الخصومات فيما بعد . وقد استحدث السجن في عهد الخليفة عمر بن الخطاب . أما قبل ذلك فكان المتهم يمنع من الاختلاط بغيره وذلك بوضعه في بيت أو مسجد وملازمة الخصم أو من ينيبه عنه له . فلم يكن السجن إذن مكاناً يحبس فيه المجرم كما كانت عليه الحال في عهد عمر ومن جاء بعده من الخلفاء .

أما في العهد الأموي فقد تميز القضاء بميزتين اثنتين هما :

الأولى : أن القاضي في هذا العهد كان يستنبط الحكم بنفسه من الكتاب والسنَّة والإجماع أو يجتهد في الحكم اجتهاداً ، لأن المذاهب الأربعة المعروفة التي تقيد بها القضاة لم تكن قد ظهرت بعد .

الثانية : أن القضاء لم يكن متأثراً بالسياسة . فالقضاة كانوا مستقلين في أحكامهم لا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة ، وكلمتهم نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج .

وكان القضاة في العصر الأموي من خيرة الناس يخشون الله ويحكمون بين الناس بالعدل . وعلى الرغم من أنهم كانوا مستقلين بأعمالهم ، إلا أن الخلافة كانت ترقب أحكامهم ، فتعزل من يشذ منهم عن الطريق السوي .

فالعفة والورع والتقوى والشدة في حدود الله والحزم كانت ، إذن ، من الصفات التي يجب أن تتوافر في القاضي في العهد الأموي . وكان عمر بن عبد العزيز يرى أن القاضي إذا كانت فيه خمس خصال فقد كَمُلَ . وهذه الخصال أو الصفات هي : ١ ــ علم بما كان قبله . ٢ ــ نزاهة عن الطمع . ٣ ــ حلم عن الخصم . ٤ ــ اقتداء بالأئمة . ٥ ــ مشاركة أهل العلم والرأي . كما قال رضي الله عنه : « لا يصلح للقضاء إلا القوي على أمر الناس ، المستخف بسخطهم وملامتهم في حق الله ، العالم بأنه مهما اقترب من سخط الناس وملامتهم في الحق والعدل والقصد ، استفاد بذلك ثمناً ربيحاً من رضوان الله . واكتفى الإمام مالك بن أنس بتَوَفُّرِ خصلتين لمن يتولى القضاء وهما : العلم والورع .

وفي عهد الدولة الأموية أيضاً ظهرت الحاجة إلى وجود سجلات تدوَّن فيها الأحكام التي يصدرها القضاة .

أما في العصر العباسي : فقد ضعفت روح الاجتهاد بسبب ظهور المذاهب الفقهية الأربعة . فأصبح القاضي يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب . فكان القاضي في العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة ، وفي الشام والمغرب وفق مذهب الإمام مالك ، وفي مصر وفق المذهب الشافعي . وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلدان أناب القاضي عنه من يحكم بمذهب المتخاصمين .

كما عمد بعض الخلفاء العباسيين إلى حمل القضاة على السير وفق رغباتهم ليكسبوا أعمالهم صبغة شرعية حتى إن كثيراً من الفقهاء امتنعوا عن تولي هذا المنصب خشية أن يحملهم الخلفاء على الإفتاء بما يخالف الشرع الإسلامي . فاعتذر أبو حنيفة ، مثلاً ، عن تولى هذا المنصب زمن أبي جعفر المنصور .

وظل القضاة في هذا العصر يقتفون أثر الرسول صلى الله عليه وسلم في البعد عن مظاهر الكبرياء . وكثيراً ما ظل القاضي يشغل منصبه في عهد عدة ولاة . كما أن محبة الناس للقضاة جعلت الولاة يفكرون طويلاً قبل الإقدام على عزلهم حتى لا يتعرضوا لكراهية الجمهور . وصارت مراسيم تعيينهم تصدر من بغداد وأصبحت مسألة تحديد رواتبهم ودفعها لهم موكولة إلى الخليفة نفسه كما سبق ذكره آنفاً .

وأما في الأندلس : فإن مركز القضاء كان ممتازاً ، فكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء لتعلق هذه الوظيفة بالدين . وكان رئيس القضاة يسمى « قاضي الجماعة » . وكان يشترط في القاضي أن يكون متعمقاً في الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة ولا يشترط أن يكون عربياً خالصاً . فكثيراً ما أسند هذا المنصب إلى بعض الموالي والمولدين والبربر . وكان القضاة يتبعون الفقه المالكي في أحكامهم .

رابعاً : صور من القضاء الإسلامي خلال العصور الإسلامية :

١ ــ في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :

القضاء في دعوى مواريث : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خصومة بباب حجرته . فخرج فإذا رجلان من الأنصار جاءا يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواريث بينهما قد درست في أرض تقادم شأنها وهلك

من يعرف من أمرها . ليس عندهما بينة إلا دعواهما فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم تختصمون إليَّ وإنما أنا بشر مثلكم ولم ينزل عليَّ فيه شيء ، وإني إنما أقضي بينكم برأي فيما لم ينزل عليّ فيه . ولعل بعضكم أن يكون ألحن[1] بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له . فإني أقضي بينكم على نحو ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ظلماً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يطوق بها من سبع أرضين يأتي بها شكاماً (أو اسكاماً) في عنقه يوم القيامة فليأخذها أو ليدعها » . فبكى الرجلان جميعاً لما سمعا ذلك وقال كل واحد منهما : يا رسول الله حقي هذا الذي أطلب ، لأخي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إذ قلتما هذا فاذهبا واقتسما ثم توخيا الحق فاجتهدا في قَسْمِ الأرض شطرين ثم استهما ثم ليحلّل كل منكما صاحبه .

٢ ـ في عهد الخلفاء الراشدين :

روي أنه جاء رجل إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال له : إن أبي يريد أن يأخذ مالي كله يحتاجه . فقال أبو بكر للأب : إنما لك من ماله ما يكفيك . فقال يا خليفة رسول الله . ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم « أنت ومالك لأبيك » فقال نعم . وإنما يعني ذلك النفقة .

في عهد **عمر** رضي الله عنه : روي أن رفيقاً لحاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة ، فانتحروها فرفع الأمر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر كثير بن الصلت أن يقطع أيديهم ثم قال عمر : أراك تجمعهم . ثم قال عمر : والله لأغرمنك غرماً يشق عليك ، ثم قال للمزني ، وكم ثمن ناقتك ؟ فقال المزني : قد كنت ـ والله ـ أمنعها من أربعمائة درهم . فقال عمر : أعطه ثمانمائة درهم .

وواجهت **عثمان بن عفان** رضي الله عنه قضية قتل خطيرة خلاصتها : أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب سمع من عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طُعِنَ

---

(١) ألحن : أفصح وأظهر .

أبوه . وأنه مر بالأمس على أبي لؤلؤة والهرمزان وجفينة وهم يتناجون . فلما رأوه اضطربوا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه . فلما جاءوا بالخنجر الذي طعن به أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب وجد كما وصفه عبد الرحمن بن أبي بكر وعندئذ ترجح لدى عبيد الله أن أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة قد تآمروا على أبيه ، فأخذ سيفه ثم مضى إلى الهرمزان فقتله وإلى جفينة فقتله وقتل كذلك ابنة أبي لؤلؤة ولم يرتض المسلمون بتصرف عبيد الله . لأنه قتل من غير دليل فضلاً عن أنه لم يؤذن له في القصاص على فرض وجود الدليل . ولذلك ثار المسلمون فأمسكوا بعبيد الله وحبسوه في دار سعد بن أبي وقاص .

فلما تولى عثمان الخلافة طلب المسلمون منه النظر في قضية عبيد الله وطالب البعض بالقصاص منه . فجمع عثمان بن عفان رضي الله عنه المهاجرين والأنصار وقال لهم « أشيروا عليَّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق . فقال علي : أرى أن تقتله لأنه قتل عمداً . فيجب عليه القصاص » . ورأى بعض المهاجرين عدم قتله . وقالوا : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ؟ ولكن عمرو بن العاص ــ وقد رأى عدم قتله ــ جاء بحجة أخرى حيث قال لعثمان : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث قد كان ولك على المسلمين سلطان . وإنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك .

هذا وقد اختلفت الرواية في حكم عثمان . فهناك رواية تقول إن عثمان رضي الله عنه قال : أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي . وقال : كيف أقتل رجلاً قتل أبوه بالأمس ؟ لا أفعل ولكن هذا رجل من أهل الأرض ــ أرض الإسلام ــ وأنا وليه وأعفو عنه وأؤدي ديته .

وفي رواية أخرى أن عثمان استدعى ابن الهرمزان وسلمه ابن عمر وقال له هذا قاتل أبيك وأنت أولى به منا . فاذهب فاقتله . إلا أن الناس جميعاً طالبوا ابن الهرمزان بالعفو عن ابن عمر . فقال لهم : إليَّ قتله ؟ قالوا نعم ، قال : أفلكم أن تمنعوه ؟ قالوا لا ، فتركه لله ثم لهم . فلما عفا عنه : حملوه على رؤوسهم وأكتافهم حتى بلغوا به المنزل تكريماً له وتقديراً لعفوه عن ابن عمر .

ومن أقضية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أن شاباً شكا إليه نفراً خرجوا مع أبيه في سفر . فعادوا ولم يعد أبوه . فسألهم عنه . فقالوا له إنه مات . فسألهم عن ماله ، فقالوا له ما ترك شيئاً . وكان معه مال كثير . فلما ترافعوا إلى القاضي شريح استحلفهم وخلى سبيلهم .

وهنا دعا عليّ بالشرطي ، فوكل بكل رجل رجلين ، وأوصاهم إلا يمكنوا بعضهم يدنو من بعض ، ولا يمكنوا أحداً يكلمهم . ودعا كاتبه . ثم دعا أحد المتهمين فقال له : أخبرني عن أبي هذا الفتى أي يوم خرج معكم ؟ وفي أي منزل نزلتم ؟ وكيف كان سيركم ؟ وبأي علة مات ؟ وكيف أصيب بماله ؟ ثم سأله عمن غسله ودفنه ومن تولى الصلاة عليه وأين دفن ، ونحو ذلك من الأسئلة . وكان الكاتب يكتب أقواله . فكبر علي وكبر الحاضرون ، والمتهمون لا علم لهم إلا أنهم ظنوا أن صاحبهم قد أقر عليهم . ثم دعا آخر بعد أن غيَّب المتهم الأول عن مجلسه . فسأله كما سأل صاحبه . ثم استدعى الآخر كذلك حتى عرف ما عند الجميع . فوجد كلَّ واحد منهم يخبر بضد ما أخبر به صاحبه . ثم أمر برد الأول فقال : يا عدو الله ، قد عرفت عنادك وكذلك بما سمعت من أصحابك ، وما ينجيك من العقوبة إلا الصدق . ثم أمر به إلى السجن ، وكبر وكبر معه الحاضرون . فلما أبصر القوم الحال لم يشكوا أن صاحبهم أقر عليهم . فدعا آخر فهدده فقال : يا أمير المؤمنين . والله لقد كنت كارهاً لما صنعوا . ثم دعا الجميع فأقروا بالقصة . واستدعى الذي في السجن وقيل له : قد أقر أصحابك ولا ينجيك سوى الصدق ، فأقر بكل ما أقر به القوم . فأغرمهم بالمال ، وأقاد[1] منهم بالقتيل .

---

(١) أقاد : أقام الحد على أحدهم قصاصاً .

٣ ــ أقضية ومواقف قضائية لقضاة آخرين :

أ ــ قضاء أبي هريرة رضي الله عنه في دَيْن :

روي عن أبي الهزم أنه كان عند أبي هريرة . فأتاه رجل بغريم له ، فقال : إن لي عليه مالاً . قال : ما تقول ؟ قال صدق . قال اقضه . قال ليس عندي إني معسر . قال للآخر : ما تقول ؟ قال أريد أن تحبسه . قال هل تعلم أن له عين مال فآخذ منه ؟ فنعطيك . قال لا . قال فما تعلم أن له أصل مال فيبيعه ويقضيك ؟ قال لا . قال فما تريد منه ؟ قال أريد أن تحبسه . قال : لا أحبسه لك ولكن أدعه يطلب لك ولنفسه ولعياله .

ب ــ قضاء للحسن البصري :

قال عمر بن أبي زائدة أخذت كتاباً من قاضي الكوفة وكان يدعى آنذاك ابن أشوع ، إلى إياس بن معاوية وهو على قضاء البصرة بحق لي على رجل . فقدمت البصرة وقد عزل إياس وتولى القضاء مكانه الحسن البصري . فدفعت بكتابي إلى الحسن . فأنفذ ما فيه وأخذ لي بحقي .

جـ ــ موقف قضائي لسوار[1] مع الخليفة أبي جعفر المنصور :

كتب أبو جعفر المنصور إلى سوار في شيء عنده خلاف الحق . فلم ينفذ سوار كتابه وأمضى الحكم عليه . فاغتاظ الخليفة المنصور عليه وتوعده . فقيل له : إنما عدل سوار مضاف إليه وتزيين لخلافتك . فأمسك .

---

(١) سوار هو ابن عبد الله بن قدامة التميمي وكان على قضاء البصرة زمن الخليفة أبي جعفر المنصور .

د ـ قضاء يحيى بن أكثم مع المأمون :

روي أن رجلاً شكا المأمون إلى القاضي يحيى بن أكثم . فنودي الخليفة ليجلس مع خصمه . فأقبل ومعه غلام يحمل مصلى . فأمره القاضي بالجلوس فطرح المصلى ليقعد عليه . فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس . فطرح للخصم مصلى آخر فجلس عليه .

خامساً : نماذج من رجال القضاء في الإسلام :

وإليك طائفة من القضاة في مراحل تاريخنا الإسلامي ممن أثروا بشخصياتهم الفذة تراثنا القضائي وكانوا للظالمين خصوماً وللمستضعفين أنصاراً وأعواناً . عرفوا بنزاهة الأحكام والثبات على الحق ورد البغي والضيم دون مداهنة أو تزلف . كان شعارهم تقوى الله ومخافته . فلا غرو أن أصبحوا نماذج حية للخلق الرصين والكلمة الحق .

١ ـ القاضي شريح : المتوفى عام ٨٧ هـ .

هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس الكندي . كان من كبار التابعين . استقضاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة . فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة لم يتعطل فيها سوى ثلاث سنوات إذ امتنع عن القضاء إبان الحروب الداخلية في عهد عبد الله بن الزبير ، إذ استعفى الحجاج بن يوسف الثقفي فأعفاه . وبقي كذلك حتى مات عام ٨٧ هـ . بعد أن بلغ من العمر نيفاً ومائة سنة .

كان شريح أعلم الناس بالقضاء وكان ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل وإصابة كما كان شاعراً محسناً . وكان من القضاة الفقهاء في صدر الإسلام .

وعن مدى تقدير الخلفاء له ، روي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : اجمعوا إليَّ القراء فاجتمعوا في رحبة المسجد بالكوفة . فقال لهم : إني أوشك أن أفارقكم . فجعل يسألهم ما تقولون في كذا ؟ وما تقولون في كذا ؟

وشريح ساكت . ولما فرغ من الجميع قال لشريح اذهب فأنت من أفضل الناس ، أو من أفضل العرب . وكان شريح يعطي رأيه دون تميز إذا ما استشير . وقد روى شريح : أنه لما توجه علي إلى قتال معاوية ، افتقد درعاً له . فلما رجع وجدها في يد يهودي يبيعها في سوق الكوفة . فقال : يا يهودي « الدرع درعي لم أهب ولم أبع » . فقال اليهودي درعي وفي يدي ، قال شريح : يا أمير المؤمنين هل من بيِّنة ؟ قال نعم الحسن ابني . قال شريح : يا أمير المؤمنين شهادة الابن للأب لا تجوز . فقال علي : سبحان الله رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته . سمعت رسول الله يقول : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » . فقال له اليهودي : أمير المؤمنين قَدَّمَني إلى قاضيه . وقاضيه يقضي عليه . أشهد أن هذا الدين على الحق . وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين سقط منك ليلاً . وتوجه مع عليّ يقاتل معه بالنهروان فقتل[1] .

٢ ـ القاضي إياس : (٤٦ ـ ١٢٢ هـ)

هو أبو واثلة إياس بن معاوية بن قرة بن إياس المُزْني . كان بليغاً لَسِناً أَلْـمَعِيّاً ذا رأي صائب ، وكان ذكياً فطناً ورأساً لأهل الفصاحة ورجحان العقل . كان صادق الظن لطيفاً في تصرفاته . وكان مشهوراً بالذكاء حتى ضربت الأمثال بذكائه فقال الحريري صاحب المقامات المعروف : « فإذا أَلْـمَعِيَّتي أَلْـمَعِيَّةُ ابن عباس وفِراسَتي فِراسَة إياس » .

وقبل أن يتولى قضاء البصرة طلب الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من نائبه بالعراق (عديّ بن أرطاة) أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الحرشي ويولي قضاء البصرة أنفذَهُما . فلما جمع بينهما ، قال إياس : أيها الأمير سل عني وعن زميلي القاسم فقيهي البصرة الحسن البصري ومحمد بن

---

(١) من كتاب أخبار القضاة لمحمد بن خلف بن حيان . الجزء الثاني ص ٢٠٠ .

سيرين ، وكان القاسم يأتيهما باستمرار وإياس لا يأتيهما . فقال القاسم وهو يعلم أنه لو سألهما لأشارا به : لا تسأل أيها الأمير عني ولا عنه . فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياس أفقه مني وأعلم بالقضاء . فإن كنت كاذباً فما يحل لك أن توليني القضاء وأنا كاذب . وإن كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي . فقال إياس : إنك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف . فقال عدي بن أرطاة : أما إذا فهمتها فأنت لها واستقضاه .

ولما تولى إياس القضاء سأل أحدهم والده كيف ابنك لك ؟ فقال : نعم الابن ، كفاني أمر دنياي وفرغني لآخرتي .

وفي مجال الفراسة والحكم على الأشياء ، روي عن إياس أنه قال : ما غلبني أحد قط سوى رجل واحد . وذلك أنني كنت في مجلس القضاء بالبصرة ، فدخل عليَّ رجل شهد عندي أن البستان الفلاني ــ وذكر حدوده ــ هو ملك فلان . فقلت له : كم عدد شجره ؟ فسكت الرجل ثم قال : منذ كم سنة يحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس ؟ فقال منذ كذا . فقال كم عدد خشب سقفه ؟ فقال له : الحق معك . وأجاز شهادته .

هذا وقد توفي إياس بمدينة واسط عام ١٢٢ هـ . وعمره ٧٦ سنة .

٣ ــ القاضي شريك : (٩٥ ــ ١٧٧ هـ)

هو أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبي شريك النَّخعي ، ولد ببخارى عام ٩٥ هـ . تولى القضاء بالكوفة أيام الخليفة المهدي ثم بالأهواز ولكنه عزل في أيام الخليفة موسى الهادي .

كان شريك عالماً فقيهاً فَهْماً ذكياً فَطِناً جريئاً . ومن مواقفه التي تدل على جرأته وفطنته : أنه جرى بينه وبين مصعب بن عبد الله بن الزبير كلام بحضرة

الخليفة المهدي . فقال له مصعب : أنت تنتقص أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ فقال له شريك : والله ما انتقص جدك وهو دونهما .

كان شريك عادلاً في قضائه ، كثير الصواب ، حاضر الجواب . قال له رجل يوماً : ما تقول فيمن أراد أن يقنت في الصبح قبل الركوع فقنت بعده ؟ فقال هذا أراد أن يخطىء فأصاب . هذا وقد توفي بالكوفة عام ١٧٧هـ . وكان الخليفة هارون الرشيد آنذاك في الحيرة . فقصد الكوفة من أجل الصلاة عليه ولكنه عندما وصلها وجد الناس قد انتهوا من الصلاة عليه فعاد من حيث أتى .

٤ ـ القاضي بكار (١٨٢ ـ ٢٧٠ هـ)

القاضي بكار هو أبو بكرة بكار بن قتيبة بن أبي ذرعة الثقفي . ولد بالبصرة عام ١٨٢ هـ . وكان حنفي المذهب . وقد تولى قضاء مصر في عهد المتوكل الخليفة العباسي وذلك عام ٢٤٦ هـ .

كان بكار حسن السيرة جميل الطريقة . كان أحد البكائين العالمين لكتاب الله عز وجل . وإذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قصص جميع من تقدموا إليه وما حكم به لهم أو عليهم وبكى .

كان بكار قبل أن يصدر حكمه على المحتكمين له ، يثير لهم الوعظ والإرشاد . وإذا طلب منهم اليمين يذكرهم بأحكام الله ويتلو عليهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ

فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (١)

هذا وكان لبكار مواقف مشهودة مع أحمد بن طولون صاحب مصر . ومن بين تلك المواقف : أن ابن طولون كان يدفع له كل سنة ألف دينار بالإضافة إلى راتبه . وكان بكار لا يتصرف بها بل يبقيها في كيسها وعلى ختمها . فلما دعاه ابن طولون إلى خلع الموفق بن المتوكل من ولاية العهد ، امتنع لأن ابن طولون لم يكن على حق في طلبه . فاعتقله ابن طولون ثم طالبه بجملة المبلغ الذي كان يأخذه منه كل سنة اعتقاداً منه أن بكار قد أنفقها ويعجز عن ردها . فحمله إليه بختمه وكان ذلك المبلغ موضوعاً في ثمانية عشر كيساً . فخجل بن طولون كثيراً من موقفه مع القاضي . ثم لما اعتقل ابن طولون بعدئذ القاضي بكار وسجنه ، أمره أن يسلم القضاء إلى محمد بن شاذان الجوهري ففعل . وبقي بكار في السجن مدة سنتين يحدث من هم معه . هذا وقد شكا أصحاب الحديث إلى ابن طولون انقطاع سماع الحديث من بكار وسألوه أن يأذن له بالحديث فاستمع إلى شكواهم وصرح لبكار بالتحدث إلى الناس .

ولبكار مصنفات كثيرة منها الوثائق والعقود في الفقه ، وتوفي وهو باق على القضاء سجيناً عام ٢٧٠هـ .

٥ ـ القاضي منذر بن سعيد البلوطي : المتوفى عام (٣٥٥هـ ـ ٩٦٥م)

---

(١) الآية (٧٧) من سورة آل عمران .

هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النضري . عاش في الأندلس إبان حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث ولاه قضاء الجماعة بقرطبة عام ٣٣٩ هـ . وكان يفتي على مذهب الإمام مالك بن أنس . وكان البلوطي فقيهاً خطيباً وشاعراً عظيماً ومع ذلك فإنه كثير التواضع في خطبه . وقد تحدث في إحداها يوماً أبان فيها تقصيره وختمها بقوله : اللهم فرغني لما خلقتني له . ولا تشغلني بما تكفلت لي به . ولا تحرمني وأنا أسألك . ولا تعذبني وأنا أستغفرك . يا أرحم الراحمين .

ومن مواقف البلوطي مع الخليفة الناصر لدين الله الذي كان شغوفاً بعمارة الأرض وإقامة المباني عليها ، ومن مآثره مدينة الزهراء التي ذاع صيتها لما احتوته من قصور ومساجد ومرافق وحدائق،واشتغل في هذا خلق كثير حتى عطل شهود الجمعة في المسجد الجامع . فتألم القاضي وأراد أن يثني الخليفة عما هو عليه بالموعظة الحسنة والإنابة والرحمة . فأدخل في خطبته فصلاً مبتدئاً بقوله تعالى :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [1]

ثم وعظ الناس قائلاً : ولا تقولوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . فمتاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى وهي دار القرار ومكان الجزاء . ووصل ذلك بكلام جزل وقول فصل . ومضى في ذم تشييد البنيان

---

(١) الآيات (١٢٨ ـ ١٣٥) من سورة الشعراء .

والاستغراق في زخرفته والإسراف في الإنفاق عليه . ثم دعا إلى الزهد في هذه الدار الفانية وأضاف إلى خطبته ما يطابق ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة . ولم يكد البلوطي ينهي خطبته حتى أجهش المصلون بالبكاء والتضرع إلى الله طالبين العفو والمغفرة وبكى معهم الخليفة الذي علم أنه المقصود بالخطاب وندم على ما سلف واستعاذ بالله من سخطه .

ولمنذر أقوال كثيرة في الأحكام التي يقضي بها ومن بينها تزكية الشهود التي قال عنها : اعلم أن العدالة من أشد الأشياء تفاوتاً وتبايناً . ومتى حصلت ذلك عرفت حالة الشهود ، لأن بين عدالة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وعدالة التابعين ، رضوان الله عليهم ، بوناً عظيماً وتبايناً شديداً . وبين عدالة أهل زماننا وعدالة أولئك مثل ما بين السماء والأرض . وعدالة أهل زماننا ، على ما هي عليه ، بعيدة التباين أيضاً ، والأصل في هذا عنده . والله الموفق للصواب . إن من كان الخير أغلب عليه من الشر وكان متنزهاً عن الكبائر فواجب أن تقبل شهادته .

وقيل إنه لم تحفظ عن البلوطي طول مدة توليه القضاء قضية جور .

وللبلوطي كتب في القرآن والسنَّة والرد على أهل الأهواء . منها « **الإنباء على استنباط الأحكام من كتاب الله** » . و « **الإبانة عن حقائق أصول الديانة** » . و « **الناسخ والمنسوخ** » .

٦ ـ القاضي العز بن عبد السلام : (٥٧٨ ـ ٦٦٠ هـ)

هو العز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن المهذب عز الدين أبو محمد السلمي الشافعي المذهب الملقب بسلطان العلماء وشيخ الإسلام .

أصله مغربي إلا أنه ولد في دمشق عام ٥٧٨ هـ . تفقه على الإمام فخر الدين عبد الرحمن بن عساكر . مهر في العربية . ودرس وأفتى وصنف وبرع في

المذهب الشافعي وبلغ مرتبة الاجتهاد . قصده الطلبة من مختلف الأقطار وتخرج أئمة على يديه فصار بذلك رأس الشافعية في وقته .

كان ابن عبد السلام عاقلاً ناسكاً ورعاً زاهداً متقشفاً أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر حتى إنه كان يضرب به المثل في الزهد والعلم . وكان لا يخاف في الله لومة لائم . ويحكى أنه كان في أول أمره فقيراً معدماً . ولم يشتغل بالعلم إلا على كِبَرٍ .

وَلِيَ خطابة الجامع الأموي بدمشق فأزال كثيراً من البدع التي كان الخطباء يفعلونها . ثم ذهب إلى القاهرة بعد أن أفرج عنه الملك الصالح أيوب لأنه تعرض له في خطبة الجمعة بسبب تنازله عن صفد والشقيف للفرنج . فأكرمه هناك الملك الصالح نجم الدين أيوب وبالغ في تعظيمه واحترامه وولاه قضاء مصر وأضاف إليه خطابة جامع عمرو بن العاص . ولم يتغير عن نهجه من حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطَرْح التكلُّف وتَرْكِ الاحتفال بالملبس .

وفي مجال الصراحة في القول والشجاعة والجهر بالحق ، يقال إنه طلع يوم العيد إلى القلعة والعساكر مصطفون بين يدي السلطان والأمراء من حوله . ونادى في ذلك الموكب مخاطباً السلطان بأعلى صوته بأن يزيل المنكرات المتفشية في البلاد . فأصدر السلطان في الحال مرسوماً يقضي بالعمل على مكافحة المنكرات .

لقد بالغ ابن عبد السلام في القيام بالأمر بالمعروف والتشدد فيه ، حتى إنه تشاجر مع الأمراء ودار بينه وبينهم نقاش حاد تطاول فيه عليهم بالحق فاستشاطوا غضباً وهموا بالإيقاع به حتى كاد أحدهم أن يقتله إلا أن الأمير

تراجع عن فعلته لما أدرك أن الحق بيد الشيخ .

ومن مواقف الشيخ في التمسك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما حدث بينه وبين أحد غلمان الوزير عندما بنى هذا الغلام بناء على سطح المسجد فأنكر عليه الشيخ ذلك وقام هو وجماعته بهدم البناء . ولعلمه بأن الوزير والسلطان يغضبان لذلك ، اعتزل القضاء . فعظم ذلك على السلطان . ثم طالب المغرضون السلطان بعزله عن الخطابة محتجين أنه سيشنع عليه في الخطبة فعزله . فأقام في بيته وأخذ يفقه الناس في أمور دينهم .

ومن مواقفه مع السلطان المظفر قطز . أنه لما عزم هذا على محاربة المغول ، جمع عساكره فضاقت يده عن نفقاتهم . فاستشار الشيخ العز فقال له : اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر . فقال السلطان : إن المال في خزائني قليل ، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار . فقال له : إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي المحرم اتخاذها ، وضربته سكة ونقداً ، وفرقته على الجيش ولم تعلم بكفايتهم ، في ذلك الوقت اطلب القرض وأما قبل ذلك فلا . فامتثل الجميع لقوله وكان لقطز وقائده بيبرس النصر المؤزر على المغول في معركة عين جالوت المشهورة .

ومن عظمة الشيخ في النفوس ، أن الملك بيبرس لم يبايع الخليفة العباسي إلا بعد أن تقدمه الشيخ بالمبايعة . ومن مواقفه في الفتيا أنه أفتى ثم ظهر له أنه أخطأ . فنادى في مصر والقاهرة على نفسه : من أفتى له فلان بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ .

ومن مواقفه في البر والإحسان أنه وقع بدمشق غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بثمن بخس . فأعطته زوجه مصاغاً ليشتري بستاناً . فأخذ المصاغ وباعه وتصدق بثمنه على الفقراء . وتولى آخر حياته تدريس الشافعية في المدارس الصالحية بالقاهرة حتى توفي في ١٠ جمادى الأولى عام ٦٦٠هـ .

وللقاضي ابن عبد السلام مصنفات كثيرة منها : **تفسير القرآن** ، **ومختصر مسلم** ، **والفتاوى المجموعة** .

٧ ـ الفناري : (٧٥١ ـ ٨٢٢ هـ)

الفناري هو شمس الدين محمد بن حمزة بن محمد . ولد عام ٧٥١ هـ . وكان عالماً كبيراً له مصنفات عديدة . وقد أمضى وقتاً طويلاً في إعدادها ، رغم اشتغاله بالقضاء ، والتحدث إلى الكثير من الطلبة في آسيا الصغرى الذين انتفعوا بعلمه . ولي القضاء في بورصة من أعمال تركيا .

كان رحمه الله متصلباً في الدين ومتشددًا في القضاء . وقد روي عنه في هذا المجال أنه رد شهادة السلطان العثماني با يزيد بن مراد في قضية . ولما سأله السلطان عن سبب ذلك الرد قال : إنك تارك للجماعة . فبنى السلطان أمام قصره مسجداً وعين لنفسه فيه موضعاً ولم يترك الجماعة بعد ذلك .

ويمتدح السيد أبو الطيب صاحب التاج المكلل الفناري بقوله : فلله در هذا العالم الصادع بالحق مع ما هو فيه من التقلب في نعمة سلطانه . ورب عالم لا يقدر على الكلمة الواحدة في الحق لمن عليه أدنى نعمة محافظة على زوالها . بل رب عالم يمنعه رجاء العطية ونيل الرتبة السنية عن تكلم بالحق ولم يكن بيده إلا مجرد الأماني الأشعبية . ورحم الله هذا السلطان الذي سمع الحق فاتبع ولم تصده سَوْرَةُ الملك وما هو فيه من السلطان الذي كاد يطبق الأرض .

كان الفناري متزهداً في ملبسه رغم عناية جيرانه بملابسهم الفاخرة وكان إذا ما عوتب في ذلك يقول : إن ثيابي وطعامي من كسب يدي ولا يفي كسبي بأحسن من ذلك .

خلف الفناري ثروة علمية طائلة تشمل عدة مصنفات منها : **فصول البدائع في أصول الشرائع** (الذي مكث في إعداده ثلاثين سنة وهو يعد من أجل كتب الأصول وأنفعها وأكثرها فوائد) . **وشرح المصباح في النحو** . وله كتاب

عين الأعيان في تفسير القرآن ، وكثير غيرها من المصنفات .

سادساً ــ نظام الأوقاف في الإسلام وعلاقته بالقضاء :

١ ــ نظام الأوقاف في الإسلام :

تعريف الوقف[1] : الوقف هو منع التصرف في رقبة العين التي يمكن الانتفاع بها مع بقاء عينها ، وجعل المنفعة لجهة من جهات الخير ابتداء وانتهاء[2] . والوقف الذي فيه حبس (وقف) العين على حكم الله تعالى والتصدق بالثمرة على جهة من جهات البر ، هو من أنواع الصدقات الجارية بعد وفاة المتصدق ، يعم خيرها ويكثر برها وتتضافر بها الجماعات في مد ذوي الحاجات وإقامة المعالم وإنشاء دور الخير من : مستشفى جامع لعموم الناس ، ونزل لإيواء أبناء السبيل ، وملاجئ تؤوي اليتامى ، وتقي الأحداث شر الضياع . فيكونون قوة عاملة ولا يكونون قوة هدامة .

الوقف في الفقه الإسلامي :

يعتمد وجود الوقف في الفقه الإسلامي على ثلاثة أصول هي :

١ ــ قول النبي صلى الله عليه وسلم : إذا ماتَ ابنُ آدم انقطع عملُهُ إلا من ثلاثٍ : « صدقةٍ جاريةٍ ، أَوْ علمٍ يُنتفعُ به ، أَوْ ولدٍ صالحٍ يدعو له » . فالصدقة الجارية المذكورة تتحقق في الوقف على أصل معناه المقرر الثابت وهو كونه نوعاً من الصدقات .

٢ ــ ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : إنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أصبت أرضاً بخيبر لم أحب مالاً قط أنفس عندي منه ، فما تأمرني به ؟ قال : إن شئت

---

(١) الوقف جمعها أوقاف . ويطلق على الوقف : كلمة حبس وجمعها أحباس .
(٢) يعتبر هذا التعريف بالوقف أضبط تعريف جامع لصور الوقف عند الفقهاء والذين قرروه .

حبست أصلها وتصدقت بها .

فتصدق بها عمر . وهي أنها لا تباع ولا توهب ولا تورث وتصدق بها : « في الفقراء وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم غير ممول » .

وفي رواية أخرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وجد أرضاً واسعةً قد هجرها أهلها وأن أجزاء منها رديئة ولا تسقى . فأعطى الرسول عليه الصلاة والسلام عمر بن الخطاب بعضها الذي اشترى فيما بعد أرضاً من قوم يهود ضمها إلى ذلك البعض فأصبحت الأرض كلها ذات فائدة وأصبح رضي الله عنه معجباً بها وأصبح ذا مال بسببها ، وهنا سأل عمر رضي الله عنه ، الرسول صلى الله عليه وسلم ، عن الكيفية التي يتصرف بها في ريع الأرض فقال له صلى الله عليه وسلم : حبِّس أصله (أي أصل المال) وسبل ثمرته ففعل عمر .

٣ ــ وما روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة . فقال من يشتري بئر رومة ، فيجعل دلوه مع أدلاء المسلمين بخير منها في الجنة . فاشتريتها من صلب مالي . وفي رواية أخرى أنه أضاف يقول : قد خليتها للمسلمين . وفي هذا حبس رقبة العين .

٤ ــ ما يُثبت من أن الصحابة جميعاً قد وقفوا . ولقد روي عن جابر قوله : لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ذا مقدرة إلا وحَبَس[1] وقال الشافعي : لقد حفظنا الصدقات عن عدد كثير من المهاجرين والأنصار . ولقد حكى عن عدد كثير من أولادهم وأهليهم أنهم ما زالوا يلون صدقاتهم حتى ماتوا .

شروط الواقف في الإسلام :

وبما أن الوقف هو من التبرعات ، اشترط في من يحق له التبرع بأن يكون : بالغاً عاقلًا ، حراً غير محجور عليه لسفه أو غفلة . وأن يكون وقفه في عين مملوكة له ملكاً

(١) أي جعل وقفًا لله تعالى .

باتاً . وأن تكون معرفة تعريفاً كاملًا .

الولاية على الوقف : يحتاج الموقوف إلى من يقوم برعايته ، ويحافظ عليه بإصلاح ما ينهدم منه أو العمل على كل ما فيه بقاؤه صالحاً نامياً . ثم يقوم باستغلاله بكل طرق الاستغلال المشروعة وإنفاق الغلات في وجوهها وتوزيعها على مستحقيها ، وكل ذلك لا يكون إلا بولاية قائمة عليه تتصرف فيه بالمصلحة وتحفظ أمواله بالأمانة وتوزعها على أصحابها بالعدالة .

فالولاية للواقف أي بمعنى أنه هو الذي يعين الوالي وله أن يعزله في حياته . وإذا مات الواقف بطلت ولاية القيم . ما لم يكن هناك نص مكتوب ثابت من الواقف بولاية شخص ما أو وصاية شخص ما . ولا تسقط هذه الولاية عنه إلا إذا ثبت عدم كفايته أو مات . وفي هذه الحالة فإن القاضي هو الذي يتصرف بشأن الوقف لأنه يعتبر القائم بالولاية العامة التي قوامها رعاية المصالح ، ودفع الأضرار عن الأوقاف .

هذا ويشترط في المولى على الوقف سواء أكان ذلك المولى معيناً من قبل الواقف نفسه أو من قبل القاضي ، أن يكون بالغاً عاقلاً من ذوي الكفاية والعدالة والأمانة . وإذا حاد عن جادة الصواب عزل .

وللوكيل أو المولى من قبل الواقف أو القاضي الحق في أن يولي من يشاء في التصرفات التي يملكها أو بعضها .

وهناك ما يسمى بالتفويض : وهو إسناد الناظر (المتولي على الوقف) لولاية الوقف إلى غيره وتفريغ نفسه منها . وفي هذا التفويض ما يعزل المتولي الأصيل وتمليك المفوض كل شيء وهذا يحق له التصرف بالكامل .

٢ ـ علاقة القضاء بالأوقاف :

إن علاقة القضاء بالأوقاف تتناول ناحيتين هما :

الناحية الأولى : وهي الفصل في المنازعات المتعلقة بالأوقاف مثلاً : النزاع في لزوم الوقف وعدم لزومه ، والنزاع في الاستحقاق ، والنزاع في تحقيق شرط الواقف وما إلى ذلك . وهذه الأمور كلها من اختصاص القضاء منذ أن وجد

القضاء اعتباراً من العهد الراشدي حتى يومنا هذا .

الناحية الثانية : الإشراف على الأوقاف وإدارتها وتنميتها : كانت الأوقاف في بادئ الأمر بأيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم إلى أن تولى قضاء مصر عام ١١٥ هـ القاضي توبة بن نمر الحضرمي زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، فوضع يده على الأحباس . وقد قال هذا القاضي نفسه في هذا المجال ما يلي : « ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من التواء (الهلاك) ، والتوارث . » . وهكذا اهتم توبة بالأوقاف وأنشأ لها ديواناً تحت إشرافه ولم يمت توبة حتى صار للأوقاف ديوان عظيم .

ولما ولي القاضي خير بن نعيم الحضرمي قضاء مصر ، أدخل أموال اليتامى بيت المال بموجب كتاب من أبي جعفر المنصور . وجعل سجلاً خاصاً بتلك الأموال لتدوين ما يدخل وما يخرج منها . وقد عمل فيما بعد صندوقاً خاصاً يحفظ أموال الأيتام ، والأموال التي لا وارث لها لوفاة مالكها بدون وارث .

ثم توسع ديوان الأوقاف إذ صار مكوناً من ثلاث شعب في عهد الفاطميين : ديوان لأحباس المساجد ، وديوان لأحباس الحرمين وجهات البر ، وديوان للأوقاف الأهلية . وكل ذلك تحت سلطان القضاء .

وقد استمرت تلك الدواوين في عصر المماليك . وكان انتظام هذه الدواوين يتبع أحوال الدولة في نظامها فإذا كان الحكم منتظماً ثابتاً قوي الأركان ، كان لهذه الدواوين شيء من النظام . والعكس بالعكس .

وبقي الوضع كذلك حتى محمد علي الذي جمع أوقاف المساجد وجهات البر وجعلها تحت سلطانه وأصدر عام ١٢٥١هـ أمراً بإنشاء ديوان لها . ثم ألغاه . وبعدئذ أعاده عباس الأول وجعله تحت إشراف محاسبة نظار الأوقاف الخيرية على أن تتولى المملكة جميع نفقات الديوان . ثم تدرج الوضع حتى أصبح للأوقاف ميزانية خاصة كباقي ميزانيات الدولة . وأصبح عجز وقف ما ، يسدده الفائض من وقف آخر .

سابعاً : الحسبة :

يقول العلماء : إنها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . وعرفها ابن خلدون بقوله : « أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين » .

وعرفها ابن تيمية بأنها « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من اختصاص الولاة والقضاة والديوان ونحوهم » فالمحتسب يأمر الناس بالجمعة والجماعات وبصدق الحديث وأداء الأمانات ، وينهى عن المنكرات مثل الكذب والخيانة وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والمبيعات ونحو ذلك . والغش يدخل في البيوع بكتمان الصواب وتدليس السلع ، كما يدخل في الصناعات .

منشأ الحسبة : يقول بعض المؤرخين إن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان أول محتسب إذ نهى عن الغش حين قال « من غشنا فليس منا » . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم ولى سعيد بن العاص على السوق بعد فتح مكة . وذلك لمراقبة الغشاشين في البيع ونحو ذلك .

مهام المحتسب : أعماله كثيرة تشمل نواحي أدبية ودينية وعمرانية وأخلاقية ، ولا تجد في الوقت الحاضر موظفاً حكومياً أو دائرة رسمية لها سلطة شبيهة بسلطة المحتسب ، فإنه يشبه رئيس البلدية ومدير الإعاشة ورئيس الشرطة الأخلاقية ومدير الشئون الاجتماعية وغير ذلك من الوظائف .

فكما ينظر المحتسب في مراعاة الأحكام الشرعية ، وإقامة الحدود على مستحقيها ، تمتد سلطته إلى الإشراف على الأسواق فيتفقد اللحوم والمآكل والمطبوخات ويزيل ما يبرز من الحوانيت التي تعيق نظام المرور ويحول دون مضايقة الناس في الطرقات ، ويمنع معلمي الكتاتيب من ضرب الصبيان ، ويحكم في الدعاوي المتعلقة بالغش والتدليس . ويحمل المماطلين على أداء ما عليهم من ديون ، ويمنع ارتفاع مباني أهل الذمة على مباني المسلمين .

تطور الحسبة :

وقد تطورت الحسبة بتطور البيئات والعصور ، فكانت لها في الأندلس خطة تسمى خطة الاحتساب . وكان لهـا في عهـد الفاطميين نواب يطوفون في الأسواق ، ويعاقبون فوراً من يرتكب المخالفات ، ويستعينون بالشرطة لتنفيـذ مـا يرونه مناسباً من الأحكام .

أسئلة

أجب عن الأسئلة الآتية :

١ ـ قارن بين أوضاع القضاء في عهد كل من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه والدولة العباسية .

٢ ـ ما أهم الأسس التي اعتمد عليها القضاء الإسلامي ؟

٣ ـ « تميز القضاء في العهد الأموي بميزتين » .
ناقش ذلك مبيناً الصفات التي يرى عمر بن عبد العزيز أن تتوفر في القاضي .

٤ ـ اشرح باختصار صورة من صور القضاء الإسلامي في عهد كل من : الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

٥ ـ « اشتهرت طائفة من القضاة في التاريخ الإسلامي بنزاهة الأحكام والثبات على الحق » .
وضح صحة ذلك على ضوء معلوماتك عن كل من القضاة : شريح ـ شريك ـ البلوطي ـ العز بن عبد السلام .

٦ ـ ما المقصود بالوقف ؟ ثم عدد الأصول التي يعتمد عليها الوقف في الفقه الإسلامي .

٧ ـ عرِّف الحسبة ، وما مهام المحتسب ؟

الباب الثاني

الحياة العلمية

الفصل الأول

اهتمام المسلمين بالعلم والتعليم

العلم والإيمان هما أساس الحضارة الإسلامية . والعلم في الإسلام يعتبر وسيلة إلى القرب من الله تعالى ، كما أنه وسيلة إلى بلوغ السعادة في الدنيا والدار الآخرة . وقد ارتبط العلم بالإيمان في الإسلام منذ أن بزغ نور هذا الدين الحنيف في غار حراء قبل أربعة عشر قرناً . من هنا نستطيع أن نتلمس الحكمة الإلهية في التوكيد على القراءة باعتبارها وسيلة للعلم والمعرفة وبناء الحضارة في أول ما نزل من القرآن الكريم من آيات وهو قوله جل شأنه :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [1]

والإسلام يدعو إلى التفكير والتأمل في حكمة الله وتدبيره . لذلك فهو يحض على استعمال العقل واعتماد اليقين أساساً بدلاً من الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً . ذلك أن الإنسان قابل للتعلم . فبالعلم ميّز الله تعالى أبا البشر آدم عليه السلام عن الملائكة . وبالإيمان والعلم النافع والعمل الصالح تنفتح أمام المسلم أبواب السعادة في الدارين . وهكذا يصبح الإسلام بحق دين العلم والمعرفة والرقي الحضاري . بل إن الإسلام قد جعل طلب العلم فريضة أو جهاداً في سبيل الله تعالى .

وسنحاول في هذا الفصل أن نتبين النواحي الآتية :

---

(١) الآيات (١ ــ ٥) من سورة العلق .

١ ــ منزلة العلم والعلماء في الإسلام .
٢ ــ أهمية العلم لدى الفرد والمجتمع في الإسلام .
٣ ــ تشجيع الخلفاء والأمراء للعلم والعلماء .
٤ ــ الرحلة في طلب العلم .

فلنبدأ ، إذن ، حديثنا عن هذه النواحي تباعاً .

١ ــ منزلة العلم والعلماء في الإسلام :

وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف نصوص كثيرة تُشيد بفضيلة العلم والعلماء وتحضّ المسلمين على طلب العلم والاستزادة منه . كما وردت أحاديث عديدة وآثار جليلة عن عناية الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة والتابعين بالعلم والتعلم . وإليك الشواهد الآتية :

أ ــ من القرآن الكريم :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[(١)] .

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[(٢)] .

﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(٣)] .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[(٤)] .

وليس العلم والذكر في هذه الآيات هو علم الدين وحسب ، بل هو كل علم نافع يرفع من قدر الإنسان وينمي عقله ويجعله أكثر خبرة بالحياة واطلاعاً على أحوالها .

ب ــ من الحديث الشريف :

« طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ على كُلِّ مُسْلِم »[(٥)] .

---

(١) من الآية (٢٨) من سورة فاطر .
(٢) من الآية (١١) من سورة المجادلة .
(٣) من الآية (٩) من سورة الزمر .
(٤) من الآية (١١٤) من سورة طه .
(٥) انظر «سنن ابن ماجة» ١/٨١ . والحديث حسن ، وقيل : صحيح .

« فَضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلي على أدناكم »[1] .

« تعلَّموا العِلْمَ ، وتَعَلَّموا لِلْعِلْمِ السكينَةَ والوقارَ ، وتَواضَعُوا لِمَن تتَعَلمون مِنه »[2] . « من سلكَ طريقاً يطلبُ فيه علماً سلَكَ اللهُ به طريقاً إلى الجنة »[3] .

جـ ـ ومن المأثور في ذلك عن الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

قال **علي بن أبي طالب** كرم الله وجهه لكميل بن زياد رضي الله عنه : (يا كميل : العلم خير لك من المال . العلم يحرسك وأنت تحرس المال . والعلم حاكم والمال محكوم عليه . والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق) .

إن هذه الشواهد وكثير غيرها تؤكد توكيداً قاطعاً على أن الإسلام يجلُّ العلم والعلماء الأبرار الذين يقصدون بعلمهم رضوان الله تعالى والزلفى لديه في جنات النعيم ولا يطلبون العلم ليماروا به السفهاء أو يكاثروا به العلماء لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ تَعَلَّم عِلماً لِغَيْرِ اللهِ أو أرادَ لَهُ غَيْرَ وَجْهِ الله فَلْيَتَبوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار)[4] .

كما ظهر لنا مما تقدم من الشواهد أن الاشتغال بالعلم لله أفضل من نوافل العبادات البدنية من صلاة وصيام وتسبيح ودعاء ونحو ذلك . ذلك لأن نفع العلم يعم صاحبه والناس . أما النوافل البدنية فمقصورة على صاحبها .

---

(١) رواه الترمذي .
(٢) رواه أبو نعيم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) أخرجه الترمذي .

كذلك فإن العلم مصحح لغيره من العبادات فهي تفتقر إليه وتتوقف عليه ولا يتوقف هو عليها . وكذلك فإن العلماء هم ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وليس ذلك للمتعبدين . كما أن طاعة العالم واجبة على غيره فيه . هذا بالإضافة إلى أن العلم يبقى أثره بعد موت صاحبه وغيره من النوافل تنقطع بموت صاحبها . ثم إن في بقاء العلم إحياء للشريعة وحفظ معالم الملة .

٢ ـ أهمية العلم لدى الفرد والمجتمع :

لقد كان شغف المسلمين بالعلم عظيماً إبان ازدهار حضارتهم الإنسانية الرفيعة في العصور الوسطى . ويعود ذلك أساساً إلى عاملين اثنين ، أحدهما ديني ، والآخر دنيوي ــ اجتماعي .

فأما **العامل الديني** فيتجلى في نظرة العلماء المسلمين إلى العلم بوصفه وسيلة إلى معرفة الله تعالى وابتغاء مرضاته . لذلك فقد حرصوا على التفقه في الدين وتعلم أحكامه والتحلي بالأخلاق الفاضلة . وهذا كان هدف عشرات ألوف من العلماء الذين بذلوا أعمارهم في سبيل العلم والبحث ولم يقبلوا عليه أجراً ولا وظيفة ولا أباحوا لأنفسهم أن يقبلوا درهماً ولا ديناراً في سبيل العلم والبحث أمثال عشرات من الصحابة والتابعين وفي طليعتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عباس وابن عمر .

وأما **العامل الدنيوي** فهو واضح في اتجاه العلماء المسلمين إلى اكتشاف العالم الطبيعي واستغلاله لصالح الفرد والمجتمع . لذلك فقد اندفعوا بحماس منقطع النظير إلى دراسة الكون والإنسان وإثراء الحضارة الإنسانية بابتكارات وإضافات أصيلة في شتى حقول المعرفة ، في العلوم والآداب والفنون .

أما **العامل الاجتماعي** فينحصر في عناية المسلمين بالعالم الطبيعي ومعرفة سبل استغلال خيراته والاستمتاع بما فيه من مظاهر الجمال والإبداع وفقاً لأحكام الشريعة السمحة بما يشير بوضوح إلى أن المسلمين قد فطنوا إلى القيمة الاجتماعية للتعليم باعتباره وسيلة لكسب العيش وسلماً إلى العز والجاه

والرفعة . وللمسلمين في ذلك مأثورات عديدة . فمن ذلك قول مصعب بن الزبير لابنه : (تعلم العلم ، فإن يكن لك مال كان لك جمالاً ، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً) . ويروى أن عبد الملك بن مروان قال لبنيه : (يا بنيَّ : تعلّموا العلم ، فإن كنتم سادة فقتم ، وإن كنتم وسطاً سدتم ، وإن كنتم سوقة عشتم) .

بل إن هذا الاتجاه الواقعي لطلب العلم كوسيلة لكسب الرزق والترقي الاجتماعي قد ذهب إليه بعض أساطين الفكر التربوي الإسلامي مثل ابن سينا وابن خلدون .

اهتمام المجتمع الإسلامي بتعليم القرآن الكريم :

كان الكتّاب ، وهو ما يعادل في عصرنا الحاضر المدرسة الابتدائية تقريباً ، يتولى تعليم الصبيان القرآن الكريم . وكان هذا الأسلوب معمولاً به في جميع أرجاء العالم الإسلامي . ذلك لأن تعليم الأولاد القرآن كان من أصول الحياة الإسلامية التي حرص عليها المجتمع الإسلامي في مختلف العصور . وهذا ما أكده المربون المسلمون بصورة عامة . ويجدر بنا أن ننتقل مرة أخرى إلى كل من كتاب **السياسة** لابن سينا **والمقدمة** لابن خلدون لنتبين موقفيهما من تعليم الأولاد كتاب الله .

أ ـ رأي ابن سينا في تربية الأولاد في الكتّاب :

يرى ابن سينا أن يبدأ الطفل بتعلم القرآن الكريم بمجرد أن يتهيأ للتلقين جسمياً وعقلياً . وفي الوقت نفسه يتعلم حروف الهجاء ويلقّن معالم الدين . ثم يروي الصبي الشعر . فإذا فرغ الصبي من حفظ القرآن وألمَّ بأصول اللغة نُظِر عند ذلك في توجيهه لما يلائم طبيعته واستعداده .

ب ـ وصف ابن خلدون لتعليم القرآن في العالم الإسلامي :

عالج ابن خلدون بإسهاب التعليم في مرحلة الكُتّاب في مختلف بقاع

العالم الإسلامي .

فأشار إلى أهمية تعليم الأطفال القرآن الكريم فيذكر أن تعليم القرآن هو نقطة البداية وأساس التعليم في مختلف البلدان الإسلامية . وذلك لأن تعليم الولدان القرآن شعيرة من شعائر الدين أخذ به المسلمون ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يؤدي إليه من رسوخ الإيمان .

تصنيف المسلمين للعلوم :

قسّم العلماء المسلمون العلوم من حيث أهميتها إلى قسمين رئيسين هما : فروض العين وفروض الكفاية .

أ ـ **فروض العين** : وهي العلوم التي يجب على كل مسلم معرفتها مثل علوم الدين التي لا يستقيم توحيد المسلم لربه وأداء عبادته بدونها وعلى رأسها القرآن الكريم والعلوم المتصلة به كالتفسير والحديث والفقه والأصول .

ب ـ **فروض الكفاية** : وهي العلوم التي يحتاج إليها في تسيير أمور الدنيا مثل علوم الحساب والطب والصناعات ، ويمكن أن يتعلمها البعض دون البعض الآخر .

أما الخط والتذهيب وما إلى ذلك فقد اعتبروها من العلوم المفيدة في الحياة الاجتماعية الراقية . وأما السحر والشعوذة وما إلى ذلك فقد حرمها الشرع الإسلامي .

نشوء العلوم وتقدمها :

إن عناية المسلمين بالدين لم تقتصر على دراسة القرآن الكريم وإنما أدت إلى الاهتمام بدراسات مختلفة لها صلة بالدين كعلوم اللغة وعلم الأخبار والحديث والتفسير . وقد نمت تلك العلوم في القرنين الأول والثاني للهجرة . ففي الكوفة والبصرة جد العلماء في وضع قوانين النحو لصيانة اللسان العربي والمحافظة على نقاوته لضرورة ذلك في فهم القرآن عماد الإسلام . ومن أجل هذا الغرض درس الشعر دراسة علمية . فجمعت نماذج من الأشعار العربية القديمة لتساعد على توضيح معنى بعض الآيات القرآنية . ولذلك كتبت التواريخ في أول الأمر مدفوعة بالعامل الديني . فكان أول كتاب تاريخي قام

بتدوينه علماء المسلمين السيرة النبوية لابن إسحاق المتوفى سنة ١٥٠ هـ . وتبع ذلك تاريخ الفتوح الإسلامية . ولم تكتب التواريخ العامة إلا في القرن الثالث الهجري .

ونشأت الحاجة إلى التشريع والتقنين فظهرت علوم الفقه والأصول . وطمح المسلمون إلى مزيد من التعرف على أحوال الكون لتسخيره وإعماره فظهرت العناية بالعلوم التجريبية والمجردة كالرياضيات والفلك وعلم الحياة . وأرادوا الاستفادة مما عند الأمم الأخرى فاستجدت دراسة علوم الفلسفة والأديان والعقائد . وبلغت هذه الدراسات ذروتها في القرن الرابع الهجري . وهكذا لم يكتمل هذا القرن حتى كانت الشعوب الإسلامية أغنى الشعوب علماً وفكراً وثقافة وكفاية وأقواها عُدّة وشخصية . فازدهرت دور العلم أو دور الحكمة في كل من بغداد والقاهرة حيث ترجمت إلى العربية ودرست علوم الإغريق والهنود والفرس من علوم رياضية وطبيعية وفلسفة وطب وغيرها .

وقد خلف آلاف المفكرين والعلماء المسلمين آلاف الألاف من الذخائر والنفائس التي زخرت بها آلاف المكتبات التي كانت تغطي العالم الإسلامي من مشارف الصين إلى المحيط الأطلسي ومن تركستان إلى عدن ودلهي في أضخم نهضة ثقافية عرفها العالم حتى ذلك الحين . ولقد دامت هذه الثقافة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، وكانت بداية النهضة والتقدم في أوربا والعالم الغربي كله .

ويلخص الخوارزمي في كتابه **مفاتيح العلوم** المنهج الديني الأدبي الذي كان يتبعه في القرن الرابع الهجري طلاب العلم في المراحل الدراسية المتقدمة على النحو الآتي :

١ ــ علم الفقه الذي يبحث في الصلاة والصوم والزكاة والزواج والبيع والشراء . . إلخ .

٢ ـ علم النحو .

٣ ـ علم الكلام .

٤ ـ الكتابة .

٥ ـ العروض .

٦ ـ علم الأخبار وخصوصاً التاريخ الإسلامي وما قبل الإسلام وتاريخ الفرس وتاريخ الإغريق والرومان .

وفي حالات كثيرة كان يدرس الحساب نظراً لفائدته في الميراث ومعرفة التقويم .

أما أهم العلوم غير الشرعية التي كان يحتويها المنهج العلمي في ذلك القرن فيلخصها الخوارزمي كالآتي :

١ ـ العلوم الطبيعية وتشمل الطب بفروعه : التشريح وعلم تشخيص الأمراض وعلم العقاقير والعلاج والتغذية . . إلخ . ثم علم المعادن والمناجم والنبات والحيوان وكيمياء تحويل المعادن إلى ذهب .

٢ ـ العلوم الرياضية : وتشمل الحساب والجبر والهندسة وعلم الفلك والميكانيكا وعلم الآلات الرافعة . . إلخ .

٣ ـ المنطق .

وعلى هذا فإن مناهج التعليم الإسلامي في العصور الوسطى لا تختلف كثيراً في شكلها ومضمونها عن المناهج الحديثة وبخاصة في المستويات التعليمية المتقدمة .

٣ ـ تشجيع الخلفاء والأمراء للعلم والعلماء :

أ ـ في العهد الأموي :

كان الخلفاء يعدون أنفسهم حماة للعلم ، ويرون أن قصورهم يجب أن

تكون مراكز تشع منها الثقافة والعرفان ونوادي يلتقي فيها العلماء والأدباء .

وكان **معاوية** يستدعي إلى مجلسه بعض العلماء والأدباء وأرباب السِّير ليقرءوا له ويحدثوه عن تاريخ العرب ومواقعهم الشهيرة وعن تاريخ ملوك الفرس ونظم حكوماتهم وإداراتهم وسير الأمور في ممالكهم . ويذكر المؤرخون أن **عبد الملك بن مروان** وابنه **سليمان** و**عمر بن عبد العزيز** كانوا يرعون الإمام **رجاء بن حيوة** ويقدمون إليه كل ما يحتاج إليه في سبيل نشر العلم وتوطيد أركان الثقافة . كما أن خلفاء بني أمية أحاطوا **الإمام الأوزاعي** بكل ضروب الإكبار والرعاية وأعانوه على إتمام بحوثه بإقامة حلقات الدرس في جامع دمشق بل وفي قصورهم أيضاً . وكان **عمر بن عبد العزيز** يناقش بنفسه بعض الخوارج في معتقداتهم المذهبية . ويقال إن **هشام بن عبد الملك** كان أوصى غلامه **سالماً الرومي** بالتنقيب عن بعض كتب الحكمة اليونانية القديمة لجمعها وترجمتها إلى اللغة العربية ، وأن مما ترجم سالم هذا بعض آثار أرسطو . هذا بالإضافة إلى عناية الخلفاء الأمويين بالشعر وتشجيعهم للشعراء المبرزين أمثال جرير والفرزدق والأخطل .

ب ـ في العهد العباسي :

وقد بدأ تشجيع الخلفاء العباسيين للعلم والعلماء يظهر في **عهد الرشيد** (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) إذ كان الخليفة نفسه في درجة عالية من الثقافة والمعرفة ، ثم كانت الدولة قد وصلت إلى حياة الاستقرار . ففي مجلس الرشيد كانت تعقد مناظرات بين الشعراء ومناقشات بين الفقهاء ومساجلات بين أهل الفنون والأدباء . وكانت هالة الرشيد في بغداد تتكون من أسماء لامعة جمعها الرشيد حوله ممن لهم باع طويل في كل ناحية من نواحي الثقافة . فمن هؤلاء الشعراء : **أبو نواس ، وأبو العتاهية ، ودعبل الخزاعي ، ومسلم بن الوليد ، والعباس بن الأحنف .**

ومن اللغويين : أبو عبيدة ، والأصمعي ، والكسائي (وكان معلم الرشيد) . ثم

ابن السمان الواعظ ، **والواقدي** المؤرخ ، وكثير غير هؤلاء .

أما عهد **المأمون** (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣ م) فكان بحق أزهر فترة في تاريخ النهضة بالعالم الإسلامي . إذ كان الخليفة نفسه عالماً من أساطين العلماء . واختار أصحابه ورجال دولته من الصفوة الأفذاذ في الشرق والغرب . هذا إلى جانب الأساتذة والمشيرين والمترجمين والمفكرين الذين حلى بهم بلاطه وزين ملكه . فكان بلاطه يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والأدب والشعراء والأطباء والفلاسفة ، الذين استدعاهم المأمون من جهات متعددة من العالم المتمدين وشملهم جميعاً بعنايته مهما اختلفت مشاربهم أو جنسياتهم .

هـ ـ عهد الضعف السياسي :

وبموت **الواثق** (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) انتهى عهد الخلفاء الأقوياء ذوي الهيبة والجلال وبدأ عهد الانحلال السياسي ، ولكن بعد أن أشرب القادة والأمراء حب العلم والأدب وأصبحوا يجدون متعة ولذة في حماية العلم وتكوين مجالس لهم على غرار تلك التي كان يعقدها الخلفاء . وعلى هذا فالتدهور السياسي صحبته نهضة علمية ، وضعف العاصمة واضمحلالها نشأ عنه عدة عواصم كل منها مثَّلَتْ دور بغداد بنجاح عظيم . مثل بلاط سيف الدولة الحمداني ، وبلاط الغزنويين ، وقصور السلاجقة وخاصة قصر نظام الملك .

كما شجع الخلفاء الفاطميون العلماء المسلمين في شتى ضروب المعرفة ، في الفقه والحديث ، وفي الطب والعلوم والرياضيات والمنطق ، وفي غير ذلك .

كذلك فقد تولى كل من **نور الدين بن عماد الدين زنكي** (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ) وخلفه **صلاح الدين الأيوبي** (المتوفى سنة ٥٨٩ هـ) ، الذي كان محباً

لمجالس العلم ورعاية النهضة العلمية وإكرام العلماء الذين وفدوا على سورية ومصر من البلدان الإسلامية المجاورة . فقد قرب **صلاح الدين** إليه **بهاء الدين والقاضي الفاضل وعماد الدين الكاتب** .

وهكذا نجد أن الخلفاء والأمراء كانوا في طليعة حماة العلم بفضل ما قدموه لأهله من التشجيع والمؤازرة .

٤ ـ الرحلة في طلب العلم :

وهي تقليد إسلامي أصيل ، ويقصد بها انتقال طالب العلم من بلد إلى آخر للالتقاء بأستاذ مشهور في علم من العلوم ليأخذ عنه مباشرة . والمراجع الإسلامية تفيض بأسماء الأعلام الذين رحلوا في طلب العلم دون أن يقف في سبيلهم بعد المسافات ولا مشقة الأسفار . وقد تستغرق رحلة طالب العلم عدة سنين يقضيها متنقلاً في مختلف البلاد الإسلامية يلتقي في أثنائها بمشاهير العلماء فيستقي العلم من مناهله الأصلية .

وكانت الرحلة في أول الأمر لغرض جمع الأحاديث النبوية عندما شعر المسلمون بضرورة تدوينها وتمحيصها بوصفها المصدر الثاني للدين الإسلامي بعد القرآن الكريم . فانتشر العلماء في أنحاء الدولة الإسلامية في القرن الثاني للهجرة للاتصال بمن كانت لهم صلة بالمعاصرين لرسول الله علية الصلاة وأتم التسليم ولصحابته رضوان الله عليهم .

فقد رُوي أن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال : «كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلو أشاء أن أرسل إليه حتى يجيئني فيحدثني فعلت ، ولكني كنت أذهب إليه فأقبل على بابه حتى يخرج إليّ فيحدثني » . ويعزى إلى يحيى بن سعيد أنه قال : « إني كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد » .

وهكذا فقد صار ديدن كثير من طلاب العلم المسلمين في أن يشدُّوا الرحال إلى شتى أرجاء العالم الإسلامي المترامي الأطراف والأمثلة على ذلك لا تحصى ، هاك بعضاً منها :

فقد أراد **الإمام البخاري** (المتوفى عام ٢٦٥ هـ) رضي الله عنه أن يجمع أكبر قدر من الأحاديث الصحيحة، فجمع أحاديث بلده بخارى (في ولاية تركمان تحت الاحتلال السوفيتي اليوم)، ثم رحل إلى بلخ بأفغانستان وسمع محدثيها وروى أحاديثهم. ثم رحل إلى مرو (في ولاية تركمان المذكورة) ونيشابور[1] والري (في شمال شرقي إيران اليوم) وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ومصر ودمشق وحمص ثم قيسارية وعسقلان وهما تحت الاحتلال الإسرائيلي اليوم. فجمع بهذا ما تفرق من الحديث في الأمصار. وأقام في هذه الرحلات ستة عشر عاماً، لقي فيها عناء شديداً لا يتحمله إلا المجاهدون الصابرون، وأخيراً عاد إلى وطنه بعد أن وثق نحو أربعة آلاف حديث من أصل ثلاثة ومائتي ألف حديث قام بجمعها.

وأما البيروني عالم الرياضيات المعروف (ت ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م) الذي نشأ في عهد السلطان محمود الغزنوي ولازمه في أغلب غزواته لبلاد الهند ونشر الإسلام في أكثر ربوعها، فقد عاش بين الهنود، فعرف لغتهم ودرس علومهم وفلسفتهم وآدابهم، وتعرف على عاداتهم وأخلاقهم، وعرف قوانينهم ودياناتهم وخرافاتهم العجيبة. ثم درس جغرافية البلاد وطبيعتها. واتسعت ثقافته بما أفاد من العلماء الهنود في التاريخ والرياضيات والجغرافيا والعلوم الطبيعية. ثم حشد معرفته هذه عن بلاد الهند في كتابه تاريخ الهند أو (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة).

ولا بد لنا من أن نشير في خاتمة هذا الفصل إلى ذلك الدور الرائع الذي قام به الرحالة المسلمون في إثراء تراثنا الحضاري. هؤلاء الرحالة ليسوا طلاباً

---

(١) وتكتب أحياناً نيسابور.

يسعون ليجلسوا إلى الأساتذة والشيوخ ، وإنما هم علماء باحثون لهم ميول مختلفة في دراساتهم . فمنهم من يميل إلى الدراسات الدينية ، ومنهم من يجد متعة بالغة في تتبع الأحوال الاجتماعية للأمم والشعوب في البلدان المختلفة . وقد عمد هؤلاء الرحالة إلى جمع المادة التي كانوا يصبون إليها ليس من الكتب أو النقلة ، بل من انطباعاتهم الشخصية وملاحظاتهم الخاصة . فزاروا البلاد وجابوا البقاع يسجلون ما يلاحظون ويدونون ما يتعرفون عليه . وقد ترك هؤلاء ثروة من المعلومات لا غنى عنها لطالب الدراسات الإسلامية ، وبخاصة في المجالات الجغرافية والتاريخية .

أسئلة

أجب عن الأسئلة التالية :

١ ـ لماذا شغف المسلمون بالعلم في أثناء ازدهار الحضارة الإسلامية ؟

٢ ـ « قسَّم علماء المسلمون العلوم من حيث أهميتها إلى قسمين رئيسيين » .
اشرح ذلك بإيجاز .

٣ ـ ما أهم أساليب الخلفاء والأمراء لتشجيع العلم والعلماء في العهدين الأموي والعباسي ؟

٤ ـ اكتب مذكرات موجزة فيما يلي :
أ ـ منزلة العلم والعلماء في الإسلام .
ب ـ نشوء العلوم وتطورها عند المسلمين .
جـ ـ الرحلة في طلب العلم .

الفصل الثاني

نظام التربية الإسلامية

كان للمسلمين في جميع أنحاء دولتهم المترامية الأطراف في العصور الوسطى ، نظام تعليمي واحد ساعد على تحقيق الوحدة الروحية والعقلية بين شتى الأجناس والشعوب التي تألفت منها الدولة الإسلامية . وكان من مظاهر ذلك النظام الفريد الذي عنى بتربية الإنسان المسلم عقلاً وجسماً وخلقاً ظهور مؤسسات تعليمية متعددة نشأت في أزمنة مختلفة بتأثير ظروف خاصة أملتها طبيعة الحياة الإسلامية آنذاك . كما كان من مظاهر ذلك النظام ظهور مربين أفذاذ سبقوا علماء التربية في العصر الحديث إلى كثير من حقائق التربية وأصولها الأولى . وسنحاول في هذا الفصل أن نتعرف على أبرز جوانب ذلك النظام من خلال معالجتنا للأمور التالية :

١ ــ معاهد التربية الإسلامية .

٢ ــ طرائق التعليم عند المسلمين .

٣ ــ صفات العلماء المسلمين وأخلاقهم .

٤ ــ خصائص التربية الإسلامية .

ويجدر بنا أن ننتقل الآن إلى بيان هذه الأمور فقرة فقرة .

أولاً : معاهد التربية الإسلامية :

كانت حلقات التعليم الإسلامي تجرى في أمكنة مختلفة ، منها المساجد ، والكتاتيب ، والمكتبات (خزائن الكتب) والخوانك ، والزوايا ، والربط ، والبيمارستانات ، والمدارس .

١ ــ **المسجد** : والحق فإن المسجد يعتبر أول وأقدم معاهد التربية

الإسلامية . ففي مسجد المدينة كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلّم الناس أمور دينهم ودنياهم . فالمسجد لم يكن ، إذن ، مكاناً للصلاة فحسب ، بل كان أيضاً معهداً للتعليم ، وداراً للقضاء واستقبال الوفود ، وساحة تتجمع فيها جموع المجاهدين في سبيل الله .

ولما كان المسجد هو المدرسة الأولى في الإسلام ، فقد صار من المألوف أن نجد عامة الناس الذين يرغبون في تعليم أولادهم يبعثون بهم إلى المساجد حيث كانت تعقد حلقات لتعليم القرآن الكريم والحديث الشريف . وعلى ذلك فإن أقدم المعلمين في الإسلام هم القراء .

وقد كثرت المساجد وزاد انتشارها بتوسع الإسلام ، وأصبح من المتبع أن يبنى مسجد أو أكثر في كل مكان فتحه المسلمون أو في كل قرية أو مدينة أسسوها . وهذا ما حصل عند بناء كل من البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وبغداد وغيرها . وبمرور الزمن ، زاد عدد المساجد زيادة مطردة وبخاصة في عاصمة الخلافة العباسية . فما إن جاء القرن الثالث الهجري حتى كانت بغداد تغص بالمساجد ، إذ يحكي اليعقوبي (ت ٢٨٥ هـ) أنه كان فيها حوالي ٣٠,٠٠٠ مسجد . وهكذا الحال في بقية البلدان الإسلامية ، فقد ذكر الرحالة المسلم بن جبير (ت ٦١٤ هـ) أن بمدينة الإسكندرية التي زارها حوالي ١٢,٠٠٠ مسجد .

ولم يكن التدريس في المسجد قاصراً على المواد الدينية ، بل شمل أيضاً الدراسات اللغوية والأدبية والفلك والحساب ، وأحياناً كان يدرس الطب كذلك . وكانت أبواب المساجد والجوامع التي تلقى فيها العلوم المختلفة مفتوحة للجميع . ذلك أن الدخول لتلقي العلم في الجامع أو المسجد كان كالدخول لأداء الصلاة ، أي أنه لم يكن مقيداً بقيود . فلكل فرد الحق في الاستماع لأي درس من الدروس ما دامت لديه الرغبة في العلم والقدرة على الفهم . وكان الطلاب الذين يحضرون حلقات العلم في المساجد على نوعين :

أ) طلاب منتظمون في الدراسة لا ينقطعون عن الدرس إلا بعد إتمام

المنهج والحصول على إجازة من الأستاذ المختص ، وهؤلاء يتفرغون للعمل سنوات عدة فيحضرون إلى المسجد في الصباح الباكر وينكبون طول النهار على الدرس .

ب) طلاب مستمعون غير منتظمين ، وهؤلاء يذهبون لاستماع بعض الدروس كما نذهب نحن لاستماع بعض المحاضرات العامة دون تقيد بمنهج معين .

وكان الأستاذ يختار له مكاناً معيّناً في جانب من صحن الجامع حيث يجلس إليه طلابه على بساط أو حصير . على شكل حلقة يتصدرها الأستاذ . وتختلف سعة الحلقة باختلاف مهارة العالم وشهرته . وقد يكون بالجامع الواحد عدة حلقات للدرس وعدة أساتذة . ومن الأساتذة من خصص له راتب معين من الأوقاف المخصصة للجامع ، ومنهم من لم يتقبل شيئاً ابتغاء ثواب الله بينما عمل على كسب قوته بمزاولة مهنة أخرى إلى جانب التدريس ، إذ اعتبر من أكبر الفضائل لديهم ألا يتلقى الأستاذ أجراً على قيامه بالتدريس . أما الطلاب فلم يكونوا يدفعون أجرًا في الدراسات العامة في المسجد ، بل كانوا في حالات كثيرة يتلقون الهبات والعطايا من الدولة والأوقاف الخاصة بالمسجد . وكان لكثير من المساجد خزائن للكتب . فكانت مكتبات المساجد غنية بما يهدى إليها من كتب مختلفة .

ومن أشهر المساجد أو الجوامع التي قامت فيها حلقات العلم خارج الحرمين الشريفين ثلاثة : **جامع المنصور** ، الذي بني في عهد الخليفة المنصور ببغداد وكلف بناؤه ثمانية عشر مليوناً من الدنانير . وكان هذا الجامع قبلة أنظار الطلاب والأساتذة وجلس فيه الكسائي النحوي . كما جلس فيه أبو العتاهية وأملى من شعره . **وجامع دمشق** الذي بناه الوليد بن عبد الملك وأنفق على بنائه خراج المملكة سبع سنين . وكان هذا الجامع مركزاً هاماً من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي وفيه حلقات متعددة وله أوقاف كثيرة ، وكان للخطيب البغدادي حلقة كبيرة عام ٤٥٦ هـ . **وجامع عمرو** الذي بناه عمرو بن العاص

بمصر عام ٢١ هـ . وظل منذ ذلك الحين مركزاً ثقافياً ومحكمة للقضاء .

وهناك ثلاثة جوامع مشهورة أخرى حافظت على رعاية التعليم العالي عبر العصور الإسلامية المختلفة . هذه الجوامع التي هي في واقع الحال جامعات إسلامية تشمل الجامع الأزهر بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس .

٢ ــ **الكتاتيب** : وتعتبر من أقدم معاهد التربية الإسلامية أيضاً . ويبدو أنها ظهرت في عهد الفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . فقد شعر المسلمون بحاجتهم إلى التوسع في نشر الدين وتحفيظ أبنائهم القرآن الكريم في أماكن متخصصة بذلك . إذ أن تعلم الأطفال القرآن قد اعتبره كثير من علماء المسلمين من قواعد التربية الإسلامية ، هذا إلى جانب أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حضَّ على ضرورة التعلم فكلف كل أسير من أسرى الحرب بعد موقعة بدر بتعليم اثني عشر طفلاً من أبناء المسلمين على سبيل الفدية .

ولقد انتشرت الكتاتيب مع انتشار الإسلام في الأمصار وأصبح بناء الكتاتيب لتعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم والكتابة والدين عملاً من أجلِّ الأعمال وأكرمها عند الله يتنافس فيها المتنافسون من عباد الله المخلصين . وكان الكتّاب عاماً للجميع يتعلم فيه الغني إلى جانب الفقير ، نجده في القرى الصغيرة النائية كما نجده في المدن الكبيرة العامرة لأنه أصبح بسبب صلته بالدين من ضروريات الحياة الدنيا والآخرة . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نستنتج أن التعليم الأولي كان منتشراً إلى حد كبير وخصوصاً في عصور الإسلام الزاهية . وقد ظهر في تلك الكتاتيب معلمون موهوبون ، من أشهرهم الضحاك بن مزاحم العالم اللغوي الشهير بالكوفة (ت ١٠٥ هـ) والذي بلغ عدد تلاميذه ٣٠٠٠ تلميذ وعبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢ هـ) .

٣ ــ **خزائن الكتب (المكتبات)** : لقد كان من عناية المسلمين بالعلم والمعرفة في عهود مدنيتهم الزاهرة أن شغفوا بالكتب وإنشاء الخزائن لها على

نحو لم يكن معروفاً في تاريخ الأمم من قبل . ولم تكن هواية المسلمين في اقتناء الكتب وقفاً على فئة معينة منهم كالحكام والعلماء والأغنياء ، بل إن ذلك شمل خاصتهم وعامتهم على سواء . وتتحدث المستشرقة الألمانية المعاصرة **الدكتورة (زيغريد هونكه) عن هذا الأمر في كتابها النفيس (شمس العرب تسطع على الغرب)** فتقول ما نصه : « إن متوسط ما كانت تحتويه مكتبة خاصة لعربي في القرن العاشر الميلادي كان أكثر مما تحويه كل مكتبات الغرب مجتمعة » .

وقد عني الخلفاء المسلمون منذ فجر العهد الأموي بإنشاء الخزائن التي تضم الكتب والسجلات ، كما عنوا بالحصول على كتب العلم القديمة لتكون مرجعاً لهم ولأولادهم . وكانوا يزودون المساجد الجامعة في كل إقليم بالخزائن التي تضم المصاحف وكتب العلم . وكان هذا أيضاً شأن كثير من العلماء الذين كانوا يقفون كتبهم وأوراقهم ومخطوطاتهم على خزائن المساجد ودور العلم يتقربون بذلك إلى الله ويرجون نشر العلم ومعونة أصحابه .

ولعل أقدم الخزائن العربية التي عرفت بعض أخبارها هي خزانة كتب خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (ت ٨٥ هـ) الذي كان قد أمر بترجمة كتب القدماء في الطب والنجوم والكيمياء إلى اللغة العربية . وقد ظلت هذه الخزانة محفوظة في البلاط الأموي حتى ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ففتحها للناس للإفادة منها والتعلم من نفائسها . ومن الخلفاء الأمويين الذين عنوا أيضاً بجمع الكتب في الخزائن الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك .

بيد أن النمو الحقيقي للمكتبات أو خزائن الكتب إنما كان في عهد الدولة العباسية . ومما ساعد على ذلك اتساع حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي الأول وتقدم صناعة الورق وظهور كثير من الوراقين الذين يقومون بنسخ الكتب . واتخذ الأدباء والعلماء أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم . فكثرت المكتبات التي تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية وغيرها . وصار لكل مدينة مكتبة عامة أو خزانة للكتب فيها قاعات للمطالعة والنسخ . وأحصي

في بغداد وحدها في سنة ٨٩١ م أكثر من مائة خزانة عامة للكتب . أما في قرطبة بالأندلس فقد اجتمعت فيها سبعون داراً للكتب .

ويمكن تقسيم المكتبات التي ظهرت في العالم الإسلامي إلى ثلاثة أقسام : مكتبات عامة ، ومكتبات بين العامة والخاصة ، ومكتبات خاصة .

فأما **المكتبات العامة** فقد أنشئت بالمساجد لتكون في متناول الدارسين . وقد كانت هذه المكتبات كثيرة جداً بحيث كان من الصعب أن تجد مسجداً أو مدرسة دون أن تكون مزودة بمجموعة من الكتب يرجع إليها طلاب العلم والباحثون .

ومن أشهر هذه المكتبات **بيت الحكمة** الذي أسسه أبو جعفر المنصور (وكان من العلماء الأعلام في الفقه والأدب والحكمة) ووسعه هارون الرشيد وبلغ ذروته في عهد المأمون (٨١٣ ــ ٨٣٣ م) . فقد كان من شدة اهتمام المأمون بالعلم وأهله وجمع الكتب وترجمتها أنه كان يتحف ملوك عصره بالهدايا النفيسة طالباً منهم أن يعطوه ما في خزائنهم من كتب الحكمة والفلسفة . فبعثوا إليه بعدد كبير من آثار أفلاطون وأرسطو وأبقراط وجالينوس وبطليموس وأقليدس وغيرهم فأمر بترجمة تلك الآثار واختار لها البارعين من التراجمة ونشرها بين الناس وحض على قراءتها واستنساخها . وكان لهذه المكتبة التي تقوم بنسخ الكتب وترجمتها إلى العربية ، رئيس للمترجمين ومساعدون ، كما كان فيها مدير وأعوان ومجلدون . ولقد كان بيت الحكمة أول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الإسلامي ، بل إنه كان أول جامعة إسلامية اجتمع فيها العلماء والباحثون ولجأ إليها الطلاب . وظل بيت الحكمة مقراً للنشاط الفكري وخزانة عظيمة للكتب حتى عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م فأصابها ما حل بالبلاد من خراب ودمار على أيدي الغزاة المغول .

وثمّة مكتبة شهيرة ببغداد هي **مكتبة المدرسة المستنصرية** التي بناها الخليفة المستنصر بالله العباسي والتي أنفق على بنائها مع المدرسة ٧٠٠,٠٠٠ دينار ذهباً . ودام العمل في هذه المدرسة التي كانت آية في الفن المعماري

بمساحة قدرها ٤٨٣٦ متراً مربعاً نحواً من سبعة أعوام (٦٢٥ ـ ٦٣١ هـ) . أما مكتبتها فقد ضمت من نفائس كتب الدين ما حمله مائة وستون جملًا وقد بلغت نحو ثمانين ألف مجلد .

أما في مصر فإن أشهر المكتبات العامة كانت **دار الحكمة بالقاهرة** التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٣٩٥ هـ . وكان الحاكم يريد أن يمحو من الأذهان ما علق بها عن مجد بيت الحكمة ببغداد . وقد كان بدار الحكمة بالقاهرة ثماني عشرة قاعة للمطالعة علقت على جميع أبوابها وممراتها الستور . ثم حملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ، ودخل الناس إليها يقرأون وينسخون ، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء . وأقيم لها خُزَّان وبوّابون ، وأجريت الأرزاق لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره . وحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم : إما لقراءة الكتب ، أو للنسخ ، أو للتعلم . وكان بها كل ما يحتاج إليه الناس من الحبر والأقلام والمحابر والورق .

وأما **المكتبات التي بين العامة والخاصة** فهي مكتبات أنشأها الخلفاء والملوك تقرباً للعلم وتظاهراً على أنهم من أهله وجعلوا دخولها مباحاً لطبقة خاصة من الناس .

ومن هذه المكتبات التي بين العامة والخاصة **مكتبة الخلفاء الفاطميين أو دار الكتب** التي أنشأها الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م إلى جانب الجامع الأزهر . وتعتبر هذه المكتبة أجمل وأكمل مكتبة في العالم كله آنذاك دون منازع . وقد وصفت بأنها من عجائب الدنيا . فقد ضمت خزائنها ١٨٠٠٠ مخطوطة في الفلسفة و ٦٥٠٠ مخطوطة في الرياضيات ، و ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبري . وقيل إن خزاناتها الأربعين احتوت على ما يقرب من ٢,٠٠٠,٠٠٠ مجلد . وكان يجري بأمر الخليفة ألف دينار في كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين (النساخين) والمجلدين .

أما في بلاد **الأندلس** فتعتبر **مكتبة الحكم الثاني** (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) من النوع الثاني من المكتبات الإسلامية في العصر الوسيط، أي المكتبات بين العامة والخاصة . فقد كان هذا الخليفة الأموي غزير العلم واسع الاطلاع ذا ولع شديد بالكتب . وكانت هناك طائفة من الباحثين والسماسرة والناسخين تعمل لحساب هذا الخليفة لشراء الكتب في جميع أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة عند أول ظهورها . فمن ذلك أنه لما علم بظهور كتاب الأغاني طلب من مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني أن يبيعه إياه . وبعث له بألف دينار من الذهب، فبعث به إليه قبل أن يخرجه في العراق . وقد ضمت مكتبة الحكم الثاني بقصره بقرطبة بين خزائنها ٤٠٠,٠٠٠ مجلد . وكان فهرس مكتبته يتألف من أربع وأربعين كراسة، كل منها عشرون ورقة ولم يكن بها سوى أسماء الكتب .

ويلاحظ أنه غالباً ما حوّلت المكتبات بين العامة والخاصة إلى مكتبات عامة، كما حصل في مكتبة الخليفة العباسي الناصر لدين الله حيث نقل جزء كبير من كتبها إلى المدرسة النظامية ببغداد . وكما حصل أيضاً في نقل مجموعات كبيرة من كتب الفاطميين إلى دار الحكمة بالقاهرة .

وأما النوع الثالث من هذه المكتبات الإسلامية فهو **المكتبات الخاصة** التي أنشأها العلماء والأدباء والأغنياء، لاستعمالهم الخاص، وقد كانت كثيرة جداً ومنتشرة . ومن الصعب أن تجد عالماً أو أديباً دون أن تكون له مكتبة يرجع إليها في دراسته واطلاعه . ومن أشهر هذه المكتبات **مكتبة الفتح بن خاقان** وزير المتوكل العباسي .

وكان لمعظم المكتبات وبخاصة العامة منها وراقون يقومون بنسخ الكتب . بل قلما خلت مكتبة ذات شأن من ناسخ أو نساخ يعملون بها . فلقد روي أنه كان بمكتبة ابن عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخاً وكانت كل مكتبة مشهورة تضم بالإضافة إلى النساخ، خازناً للكتب ومترجمين ومجلدين

ومناولين . وكان عدد هؤلاء الموظفين يختلف باختلاف منزلة المكتبة وشهرتها العلمية . وقد عرفت المكتبات الإسلامية نظام الإعارة . بل إن طالب العلم كان يجد في داخل خزائن الكتب كل ما يحتاج إليه من أدوات الكتابة ، من ورق وحبر وأقلام بالمجان . بل كان في بعض المكتبات مساكن لطلاب العلم وفيها طعام لهم ونفقة . وكان في بعض المكتبات ، كمكتبة الخلفاء الفاطميين بمصر ، معلمون يتولون التدريس فيها .

وهكذا نجد أن خزائن الكتب أو المكتبات الإسلامية في العصور الوسطى كانت بمثابة معاهد لنشر العلم والثقافة في المجتمع .

٤ ـ **الخوانك والزوايا والرّبط:** وهذه أمكنة كان طلاب العلم ينقطعون فيها للدرس والعبادة ، وقد أعدت في الغالب للمتصوفين .

والخانكاه ، أو الخانقاه وتجمع على خوانق وخوانك ، هي كلمة فارسية الأصل معناها البيت . والخوانك أكثر اتساعاً وأعظم شأناً من الزوايا والربط وفي الخانقاه غرف عديدة لسكنى الفقراء والصوفية ويشير المقريزي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م) في كتابه (**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**) إلى إحدى هذه الخوانك التي كان يسكنها الصوفية وقد رتبت فيها دروس عدة ، منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة ، ودروس للحديث النبوي ، ودروس لقراءة القرآن الكريم بالروايات السبع . وجعل لكل درس مدرس وخصص له جماعة من الطلبة وشرط عليهم حضور الدرس والقيام بأمور التصوف . ورتب لكل طالب في اليوم الطعام واللحم والخبز ، وفي الشهر الحلوى والزيت والصابون . وفي بعض الخوانك كان يعمل على توفير حاجات الطلاب داخل الخانقاه من المأكل والملبس والأشربة والأدوية . بل كان يوجد فيها من يقوم بحلاقة رؤوس الطلاب حتى يمكنهم التفرغ للدرس والعبادة داخل الخانقاه والانقطاع عن العالم الخارجي .

أما **الزاوية** فهي أصغر من الخانقاه وكانت تبنى للفقراء من الصوفية

للدرس والتعبد . وربما بنيت الزاوية لشيخ مشهور يقوم بنشر العلوم وينقطع للعبادة . بل لربما أطلقت على ناحية من نواحي المساجد الكبرى تقام بها بعض حلقات العلم .

وأما **الرّبط**، وواحدها الرّباط ، فكانت في الأصل تطلق على الثكنات العسكرية التي تبنى على الحدود الإسلامية وقرب الثغور التي يرابط فيها المجاهدون ويلازمونها مترصدين للعدو ومستعدين للغزو . ثم صار الرباط ، بمرور الزمن ، يطلق على المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة ومجاهدة النفس وطلب العلم . فقد كان العلماء يتخذون من الرّبط أماكن للمطالعة والكتابة والاستنساخ والتأليف يساعدهم على ذلك وجود مكتبات زاخرة بالكتب ومكوثهم بها أوقاتاً طويلة . وكانت الربّط عامرة بالفقهاء والصلحاء الذين بلغ من اشتغالهم بالعلم في بعض الربّط أكثر من الاشتغال في سائر معاهد التعليم . أما الشيوخ الذين كانوا يتولون مشيخة الربط فكانوا من أكابر العلماء وفضليات النساء . إذ كان للنساء العابدات الزاهدات أحياناً ربط خاصة ، منها رباط الشيخة زينب البغدادية الذي بني سنة ٦٨٤ هـ فسكنته ومعها عدد من النساء ممن انقطعن للدرس والعبادة .

٥ ـ البيمارستانات : المارستان (بفتح الراء) كلمة معرّبة من الفارسية معناها دار المرضى أو المستشفى . وأول من بنى البيمارستانات في الإسلام الوليد بن عبد الملك لمعالجة المجذومين وكان ذلك سنة ٨٨ هـ . وكانت البيمارستانات تشبه المستشفيات التعليمية في عصرنا الحاضر . فبالإضافة إلى قيامها بمعالجة المرضى جسمياً وعقلياً كانت تعنى أيضاً بتدريس الطب نظرياً وتطبيقياً . لذلك كان أطباء البيمارستانات يقومون بتأليف الكتب الطبية فمن هؤلاء الأطباء أبو بكر الرازي الذي ألّف (٢٣٧) كتاباً في الطب من أشهرها **الحاوي** ، وأبو علي بن سينا صاحب كتاب **القانون** في الطب ، وعلي بن عيسى أشهر كحّالي الإسلام الذي وصف في كتابه **تذكرة الكحّالين** مائة وثلاثين مرضاً من أمراض العيون ، وعلي بن العباس الذي صنف لعضد الدولة

كتابه المشهور **الملكي** وهو كتاب جليل يشتمل على أجزاء الصناعة الطبية ، وابن جزلة مؤلف كتاب **تقويم الأبدان في تدبير الإنسان** الذي وصف فيه الأمراض وأعراضها وإنذاراتها وعلاجها . وانتشرت المارستانات على نطاق واسع حتى لم يكن يخلو منها بلد إسلامي . ومن أشهر المارستانات : **المارستان العضدي** ببغداد ، **والمارستان النوري** بدمشق ، **والمارستان المنصوري** بالقاهرة الذي بناه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٢ هـ على غرار المارستان الذي شاده المستنصر بالله العباسي في مدرسته المستنصرية العظمى ليكون معهداً لتدريس الطب والصيدلة . فقد جعل الملك المنصور قلاوون في مارستانه مكاناً تفرق فيه الأدوية والأشربة ، ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء الدروس في الطب . كما نظمت دروس في التفسير والحديث والفقه . وكان لهذه المواد مدرسون ثابتون يتسلمون أعطيات جارية . هذا بالإضافة إلى خمسين مقرئاً كانوا يتناوبون ، في القبة ، قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً .

و ـ المدارس : كان أول ظهور المدارس في الإسلام في العصر العباسي الثاني في القرن الرابع الهجري ، إذ يذكر المقريزي في خططه أن أول مدرسة بنيت في ديار المسلمين كانت **المدرسة البيهقية** بنيسابور من أرض فارس وكان ذلك في النصف الأول من القرن المذكور . وقد وجدت مدارس عديدة في بلاد خراسان وما وراء النهر خلال ذلك القرن . وكانت تلك المدارس تقوم بتدريس مذهب واحد من المذاهب الفقهية الأربعة .

غير أن بداية ازدهار المدارس وانتشارها على نطاق واسع في أرجاء العالم الإسلامي يرتبط بقدوم السلاجقة إلى العراق ودخولهم بغداد سنة ٤٤٧ هـ وإخراج البويهيين الفرس من البلاد . فقد أنشأ الوزير السلجوقي والعالم الفاضل نظام الملك **المدرسة النظامية** ببغداد سنة ٤٥٧ هـ ، لتدريس الفقه وفق المذاهب الأربعة لأهل السنَّة وهذا يعني بداية تدخل الدولة في شؤون التعليم وتوجيه الناس عقيدياً لما فيه صلاح دينهم ودنياهم . بل إن ظهور المدرسة يمثل

أهم محاولة جدية في الإسلام لتنظيم الدراسة واستمرارها بتوفير وسائل التفرغ لها . إذ جعلت مرتبات ثابتة للمدرسين وزود الطلاب في حالات كثيرة بالمسكن والمأكل مما ساعد على إيجاد نظام ثابت وتقاليد مرعية للدرس والإدارة وعمل على الاستقرار والنمو في تلك المعاهد .

وعلى غرار نظامية بغداد التي طبقت شهرتها الآفاق وقصدها طلاب العلم من شتّى الأمصار واحتوت خزانتها ألوف الكتب النفيسة، قامت مدارس نظامية في بلدان المشرق الإسلامي في كل من بلخ ونيسابور ومرو وهراة وأصبهان والبصرة وآمل (بطبرستان) والموصل .

أما في مصر فلم يبن بها مدارس إلا بعد زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية التي انتشرت المدارس في عهدها انتشاراً كبيراً واستمر هذا الانتشار في عهد المماليك . كما كثرت المدارس في ذلك العهد في سورية .

وبلغ عدد مدارس القاهرة وحدها ، كما ذكر المقريزي ، حوالي ثلاثاً وستين مدرسة . وكان أشهر تلك المدارس دون منازع **المدرسة الناصرية** ، التي بناها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصوري وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ ، وكانت من أجمل مباني القاهرة وبابها من أعجب ما صنعته يد إنسان . وكانت بها إيوانات للمذاهب الفقهية الأربعة وخزانة كتب عامرة .

أما الأندلس فلم تؤسس بها مدارس بل كانت حلقات العلم في المساجد والكتاتيب المنتشرة في كل مكان .

وعلى الرغم من أن المدارس قد عنيت بصفة خاصة بدراسة الفقه ، إلا أن العلوم الطبيعية والطبية قد وجدت طريقها إلى مناهج كثير من المدارس وبخاصة حين كان يلحق بالمدرسة مارستان لممارسة الطب نظرياً وعملياً . وعلى هذا الأساس يمكن تشبيه تلك المدارس الإسلامية بجامعات العصر الحاضر . بل إن كثيراً من التقاليد الجامعية المعاصرة سواء في سلك التدريس (الإمام أو

الشيخ أو الأستاذ المحنك Distinguished Professor / أو Emeritus Professor ـ المدرس ـ المعيد) أو في تنظيم المناهج الدراسية بما يتفق وقابليات الطلاب ، أو في أساليب التدريس ، أو في نظام السكنى الداخلية قد استمد أصوله من تراث مدارسنا وأصالة حضارتنا الإسلامية . كما نراه اليوم في جامعتي اكسفورد وكمبردج .

ثانياً : طرائق التربية والتعليم عند المسلمين :

كان للمسلمين أسلوبان أساسيَّان من أساليب التربية وطرق التعليم : الأسلوب الأول خاص بتعليم الصبيان في الكتاتيب والأسلوب الآخر خاص بتعليم الكبار في المساجد أو المدارس وسنعالج الأساليب والطرق الخاصة بكل فريق على حدة .

١ ـ أساليب تربية الصغار وتأديبهم :

أ ـ سن التعليم : حدد الشرع الشريف السنة السابعة من العمر بداية لتعلم الطفل المسلم الصلاة والفضائل الخلقية . لذلك فقد جرت عادة المسلمين في تعليم أبنائهم أن يبعثوا بهم إلى الكتاتيب في سن السابعة . وكان مكوث الصبيان في الكتاتيب يستمر عادة إلى سن الاحتلام أو ما بعد العاشرة من العمر .

ب ـ الفصل بين الذكور والإناث في التعليم : اقتصرت الكتاتيب على الذكور دون الإناث . والعلة في منع البنات عن الذهاب إلى الكتاتيب ترجع إلى الغيرة على الأخلاق وحفظ الدين . وقد جرت العادة على تعليم البنات داخل الدور . والنساء الكاتبات والشاعرات اللاتي نجد ذكرهن في كتب الأدب أكبر دليل على انتشار التعليم بين النساء .

ج ـ المنهج الدراسي : المواد الدراسية التي يتعلمها الصبيان أساساً في الكتاتيب تشمل القرآن الكريم والصلاة والدعاء والقراءة والكتابة . وأحياناً كان يضاف الحساب والنحو والشعر وأيام العرب وأخبارها . إن معرفة القرآن

ضرورية لأداء الصلاة المفروضة . ولا سبيل إلى معرفة العبادات والمعاملات والحدود الشرعية الصحيحة إلا بمعرفة الأصل الأول من أصول الدين ، وهو القرآن . وللقرآن فضائل كثيرة . وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين على تَعَلُّم القرآن وتعليمه فقال عليه الصلاة والسلام (خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ) . أما حفظ القرآن فهو فرض كفاية . وأما تعليم الصلاة فهو فرض عين على جميع المسلمين لأن الصلاة عماد الدين . كما أن العلم بالنحو والعربية من المستلزمات لفهم القرآن والنطق به صحيحاً . أما تعلم الحساب فيخدم غرضاً دينياً أيضاً لأنه عند فقهاء المسلمين ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها . أما تعليم الشعر فقد كان لتقويم اللسان وتهذيب الأخلاق وبخاصة إذا ما قيل الشعر في فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وما حث منه على برّ الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف : وكذلك الحال في تعليم الصبي أيام العرب وأخبارها فالغرض من تعليم التاريخ هو أن يكون محركاً لهمم الأطفال نحو أعمال البطولة وباعثاً لهم على أعمال الخير .

جـ ـ الأسبوع الدراسي واليوم المدرسي :

كان الأسبوع الدراسي يبدأ من صباح السبت وينتهي في عصر الخميس . وكان يوم الجمعة عطلة رسمية وكذلك أيام كل من عيد الفطر وعيد الأضحى ، ويؤذن للصبيان بأجازة يوم ختم القرآن .

أما اليوم المدرسي فكان يجري على النحو التالي :

(أ) يدرس الصبيان القرآن من أول النهار حتى الضحى .

(ب) يتعلمون الكتابة من الضحى إلى الظهر .

(جـ) ينصرف الصبيان إلى بيوتهم للغداء ، ويعودون بعد صلاة الظهر .

(د) تدرس بقية العلوم كالنحو والحساب وأيام العرب وغيرها بعد الظهر إلى آخر النهار .

(هـ) **طريقة التعليم** : كانت طريقة المسلمين في تعليم الصبيان تعتمد إجمالاً على **التلقين والحفظ** ولا سيما في تعليم القرآن الكريم . وكان الحفظ من أهم شروط العلم عند المسلمين .

وكان التلقين يقوم على تكرار الصبي لما يذكره المعلم من فقرات إلى أن يتم له حفظها. وكان يعاون المعلم في هذه العملية بعض كبار التلاميذ (العرفاء) فيعهد إليهم بالإشراف على المبتدئين.

وكان الأطفال يتعلمون كتابة الآيات القرآنية على الألواح ليس بقصد حفظها فحسب وإنما أيضاً لغرض تعليم الطفل الكتابة والقراءة. ويبدأ في تعلم الكتابة برسم الحروف الهجائية مع حفظها حرفاً حرفاً بترتيبها المعروف.

وقد نبه أئمة الفكر التربوي في الإسلام، أمثال الغزالي وابن خلدون وابن سينا، إلى ضرورة مراعاة مدارك الأطفال في التعليم نظراً لقصور عقولهم وعدم اكتمال نضجها. كذلك دعوة المربين المسلمين إلى العناية بالأمثلة الحسية والتدرج في التعليم من المعلوم إلى المجهول ومن البسيط إلى الصعب ومن المحسوس إلى المعقول. كما شملت عناية العلماء المسلمين بطرق التدريس دراسة الفروق الفردية في المواهب والقدرات والميول أو الدوافع الفطرية (الغرائز).

و ــ **العقاب والثواب:** أفاض المربون المسلمون في شرح طرق معاملة الصبيان وتأديبهم، واهتموا اهتماماً بالغاً بالتنويع في طرق التهذيب ومقتضياتها. وقد نصحوا **بالترهيب والترغيب، والثناء** مرة **والتوبيخ** مرة أخرى، **والضرب** بعد التهديد.

فلا يؤخذ الولد أولاً بالعنف وإنما بالتلطف، ثم تمزج الرغبة والرهبة. وتارة يستخدم **العبوس** أو ما يستدعيه التأنيب. وتارة أخرى يكون المديح والتشجيع أجْدَى من التأنيب.

ولكن إذا أصبح من الضروري الالتجاء إلى الضرب فينبغي ألا يتردد المربي على أن تكون الضربات الأولى موجعة حتى تحدث في نفس الطفل الأثر اللازم وتجعله ينظر إلى عقابه بعين الجد. ولكن الالتجاء إلى الضرب لا يكون إلا بعد التهديد والوعيد وتوسط الشفعاء لإحداث الأثر المطلوب في نفس الطفل، وهذا ما تقره التربية الحديثة اليوم. وقد أبيح الضرب للصبيان الذين تجاوزوا

العاشرة من أعمارهم تمشياً مع أوامر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في أن يؤمر الطفل بالصلاة وهو ابن سبع ويضرب عليها وهو ابن عشر.

٢ ــ طرائق العلماء في التعليم العالي

أ ــ بدء التعليم العالي ومدته:

كانت مرحلة التعليم العالي، سواء في المساجد أو في المدارس، تبدأ بعد سن الثانية عشرة وتتفاوت مدة استمرارها بين خمس سنوات أو ست عشرة سنة.

ب ــ نظام الحلقات:

كان التدريس يقوم على نظام الحلقات حيث يجلس الأستاذ على كرسي في الوسط ويحيط به الطلبة يستمعون إلى شرحه أو يسجلون ما يملي عليهم. ولم يكن هناك قيود في حضور الطلاب للدروس. وكثيراً ما كانت الحلقة الواحدة تضم طلاباً من بلدان إسلامية شتى.

جـ ــ خطة الدرس:

كانت الدراسة تبدأ غالباً بعد أداء الصلاة التي يؤديها الطلاب مع أستاذهم. وكان الأستاذ يبتدئ درسه بحمد الله والصلاة والسلام على نبيِّه الكريم بعد قراءة قارئ حسن الصوت شيئاً من القرآن ثم يدعو للبلد وللسامعين. وكلما ورد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام صلى عليه وترضى عن الصحابة حينما يرد ذكرهم.

وكان تدريس الحديث يعتبر نوعاً من العبادة يحتاج إلى آداب خاصة فيستحب للمحدث قبل أن يجلس للحديث أن يتطهر ويتطيب ويسرح لحيته، وأن يجلس متمكناً بوقار. فإن رفع أحد الحاضرين صوته زجره، وعليه أن يقبل على الحاضرين كلهم. فإذا انتهى من درسه استمع إلى المناقشة. وأعطى

طلابه الفرصة للأسئلة والاعتراض غير برم بها أو ضجر من كثرتها أو الإلحاح فيها .

د ـ طريقة التدريس :

وقد جروا فيها على ثلاثة أساليب هي : **المحاضرة** ،**والتملية** ، **والمناظرة** ، فبحسب الأسلوب الأول كان الأستاذ يعد محاضرته كتابة ويلقيها على الطلاب الذين يثبتونها . وعند إلقاء الدرس ينبغي أن يتكلم المدرس بهدوء ووداعة ولا يعطي الطلاب فرصة للمقاطعة بالأسئلة في أثناء الدرس وإنما ينبههم بلطف أن ينتظروا نهاية الدرس عندما يمكنهم أن يسألوا ما يريدون .

وكان المدرس يملي الدرس على الطلاب أحياناً . واذا كان عدد الحاضرين كبيراً استعان المدرس بمعيد أو أكثر ليكرر ما يقول حتى لا يضيع على الطلاب شيء مما قال الأستاذ .

أما طريقة المناظرة فقد أولاها المسلمون عناية كبرى في أساليب تعليمهم وفي مواضع عدة من مؤلفاتهم،لما لها من أهمية في شحذ الذهن وتقوية الحجة وانطلاق البيان والتفوق على الأقران وتأصيل الثقة بالنفس .

هـ ـ الأسلوب الفردي في التعليم :

كان أسلوب التعليم العالي عند المسلمين فردياً إلى حد كبير بمعنى أن الطالب يختار ما يلائم استعداده وميوله من المواد التي يتلقاها عن أستاذ يختاره بنفسه ، وهو وإن كان يستمع لأستاذه في محاضرات عامة إلا أنه يسير بسرعته الخاصة في استيعاب المادة ودراستها ومناقشتها وحفظها في مراجع معينة دون أن يتقيد بنظام للنقل من مستوى دراسي معين لآخر أو بأداء امتحانات فالطالب لم يكن ، إذن ، مطالباً بتأدية امتحانات في نهاية المنهج الدراسي إلا فيما ندر . وعوضاً عن الامتحان المعروف كان الأساتذة يمنحون طلابهم شهادة أو إجازة دون تأدية امتحان معين ينص فيها على أن الطالب قد أتم دراسة منهج معين تحت إشراف الأستاذ .

وكانت الإجازة تمكن الطالب من استخدام كتب أستاذه التي دارسها معه وكذلك المحاضرات التي أخذها . فالغرض من الإجازة كان مزدوجاً : الاعتراف بحقوق المؤلف وإقرار بكفاية الطالب . وقد كان من الممكن أن يجمع الطالب عدداً كبيراً من الإجازات من الأساتذة الذين يحضر دروسهم في مختلف البلدان مما يشهد بالضرورة على جدية الطالب وانكبابه على العلم . ولهذا كانت **الرحلة في طلب العلم** في التعليم العالي لا غنى عنها لمن أراد من الطلاب أن يزداد ثقافة واطلاعاً ومعرفة بالعلوم التي يتخصص فيها .

ثالثاً صفات العلماء المسلمين وأخلاقهم

كان للمدرس في الإسلام مكانة عالية ، فقد اشترط المسلمون في أساتذة المساجد والمدارس شروطاً عديدة وتحدثوا عن أخلاقهم وصفاتهم وواجباتهم . ويمكن إجمال هذه الشروط على النحو الآتي :

١ ــ **الكفاية العلمية** : ألا يتصدى أحد للتدريس إلا بعد أن يستكمل عدته ويشهد له بذلك أفاضل أساتذته وكبار علماء عصره أو بلدته على الأقل .

٢ ــ **التفرغ للتعليم** : أن يتفرغ المدرس للتدريس فلا يشرك بعمله الشريف هذا عملاً آخر ، إلا إذا كان ممن ينزه نفسه عن أخذ أموال الأوقاف فيحتاج حينئذ إلى القيام ببعض المهن الشريفة ليقوم بأود نفسه وإصلاح أهله .

٣ ــ **المعرفة بطلابه** : أن يستعلم عن أسماء طلبته وحاضري درسه وأنسابهم ومواطنهم وأحوالهم لما في ذلك من تقوية الصلات بينه وبينهم والتعرف إلى ماضيهم .

٤ ــ **الرفق بالمتعلمين ومراعاة قابلياتهم** : والشفقة فيما يتصل بطريقة التدريس في رأي علماء المسلمين تستدعي عدم إرهاق المتعلم بما هو فوق إدراكه وفهمه . فلا يمتنع عن تعليم أحد منهم علماً أو بحثاً إذا أنس منه

الفهم . وأن يتدرج معه في تفهيمه مبتدئاً بضرب الأمثلة والشواهد ومنتهياً بـذكر الأدلة والعلل والمآخذ .

٥ ـــ **التثبت من مدى فهم التلاميذ :** على المدرس أن يـطرح أسئلة كثيرة على طلابه ليتبيّن له مقدار ما استوعبوه من دروســه ومـا فهمــوه مــن مقرراته . فإن لم يجدهم قد استفادوا أعاد عليهم الـكرَّة . وإن وجـدهم قـد فهمـوا منـه أثنـى على البـارع منهم وشجّـع المتـوسط . وأن يختـبر مقـدار فهمـهـم وعلمهم فيوصي كل واحد منهم بقراءة الكتب التي تلائم مستواه وعلمه . فقـد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَه » .

٦ ـــ **التحلي بالأخـلاق الفاضـلة** : ويـكون المـدرس مهـذباً متدينـاً متحلياً بالآداب الإسلامية ، كاظماً لغيظه حليماً وقوراً متئداً رفيقاً بطلابه . فقـد قالوا : « إن من تمام آلة العالم أن يكون مهيباً وقـوراً بـطيء الالتفـات قليـل الإشارة لا يصخب ولا يلعب ولا يجفو ولا يلغو » . ومـن الخلـق أيضــاً أن يراعي مصلحة طلابه في تعيين مواعيد الدروس وساعاتها . وألا يـرفع صـوته ، وألا يدّعي علـم مـا يجهــل . فـإذا سـأله تلاميــذه عن شيء يجهلــه قــال : « لا أعلم » .

رابعاً : خصائص التربية الإسلامية

يمكن إيجاز خصائص التربية الإسلامية فيما يأتي :

١ ـــ التعليم للجميع :

أو العمل بمبدأ المساواة في الفرص التعليمية .

فقد أتاح نظام التربية الإسلامية فرص التعليم لجميع المسلمين دون اعتبار لحالتهم المالية أو مركزهم الاجتماعي . ففي الـكتاتيب كنـت تـرى أبنــاء المسلمين ، الأغنياء منهم والفقراء،وقد جلسوا جميعاً إلى معلـم واحـد يعلمهم كتاب الله وأصول دينهم . وكنت ترى هذا المنظر ، الـذي تتجلى فيه عــظمة

الإسلام في المساواة الاجتماعية وبالذات في مجال العلم ، يتكرر في حلقات المساجد والمدارس . وقد نجم عن تطبيق المسلمين لمبدأ تكافؤ الفرص التعليمية ، هذا المبدأ الذي لم تعرفه أوربا إلا منذ عقود قليلة ، ظهور حشد من العلماء الأفذاذ من بين أسر فقيرة معدمة أمثال الإمام الشافعي والإمام البخاري والإمام الغزالي والجاحظ والخليل بن أحمد والضحاك بن مزاحم وأبي تمام وكثير غيرهم .

٢ ــ تعدّد المعاهد التعليمية وكثرتها :

فقد أدت الحركة العلمية المزدهرة في العالم الإسلامي إلى ظهور فيض من المعاهد التربوية من أنواع شتى . فالكتاتيب تجاوز انتشارها إلى القرى النائية . وكانت هذه تمثل المرحلة الأولية في التعليم . أما حلقات العلم في المساجد والمدارس فكانت عامرة بالدارسين من كل مكان . وبينما كانت هذه الحلقات تعني أساساً بالدراسات الدينية كانت المناظرات الفلسفية تجد طريقها إلى دور الحكمة ودور العلم . وبالمثل أيضاً ، فبينما كان من أعمال المارستانات إجراء البحوث الطبية والصيدلانية فإن المراصد الفلكية كانت تهتم عادة بالدراسات الفلكية والطبيعية . وانتظمت البلاد الإسلامية من أقصاها إلى أدناها بسلسلة فخمة من المعاهد التعليمية التي أمدت المجتمع الإسلامي الكبير بمختلف الكفايات العلمية .

٣ ــ السمو الأخلاقي :

أدرك المسلمون قيمة التنشئة الأخلاقية الرصينة في وحدة الأمة وتماسكها . واعتبروا الدين هو المنبع الغزير الذي تستمد منه كل مكارم الأخلاق . وتبوأ العلماء مكانة رفيعة في المجتمع الإسلامي لأنهم ورثة الأنبياء في العلم وفي سمو الخلق . وقد أدت هذه النزعة الأخلاقية في التربية الإسلامية إلى حماسة شديدة في تحصيل العلم والتفرغ له والرحلة من أجله مهما نأت المسافات وقست الأحوال . وتلك النزعة المثالية الرائعة هي سر عظمة الأمة الإسلامية وتماسكها وقوتها ووحدتها الروحية .

٤ ـ أصالة الأساليب التعليمية :

أسهم المسلمون كثيراً في تطوير طرائق التعليم وأساليبه . فمن ذلك مثلاً :

أ ـ مراعاة مبدأ الفروق الفردية في التعليم ، فقد ترك للطالب أن يختار المنهج الدراسي والمعلم الذي يريده .

ب ـ اتباع مبدأ التدرج في التعليم من السهل إلى الصعب ومن المحسوس إلى المعقول ومن الكل إلى الجزء .

جـ ـ تطبيق مبدأ الأسلوب الفردي في التعليم ، بمعنى أن كل طالب يتعلم بالطريقة التي تناسب قدراته واستعداداته .

د ـ تقدير قيمة اللعب في التربية ، والمقصود باللعب هنا هو التمرينات الرياضية والنشاط الترويحي .

هـ ـ تطبيق مبدأ التكرار في التعليم لما في ذلك من أثر في ترسيخ المعرفة في الذهن .

و ـ شيوع طريقة المناظرة في المناقشات التي كانت تجرى في المعاهد العليا والجوامع الكبرى .

٥ ـ العناية بعلوم الدين واللغة العربية :

لما كان الغرض الأسمى للتربية الإسلامية هو تنشئة الفرد المسلم وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية . لذلك فإن المحور الذي كان يدور عليه التعليم في الكتاتيب هو حفظ القرآن الكريم وما يتصل به من معرفة للنحو واللغة والأدب ، وما يتصل بالتعاليم الدينية من عبادات كالصلاة وسائر الفروض الأخرى . كما كانت علوم الدين من تفسير وفقه وحديث ، وعلوم اللغة العربية وآدابها من نحو وصرف وعروض وبلاغة هي أساس الدراسات في المساجد والمدارس . بل إن المدارس لم تؤسس ، كما ذكرنا ، إلا لتدريس علوم الدين ، وبالذات الفقه . وهذا يعني أن الطلاب المسلمين في الماضي كانوا على معرفة بكتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ولغة القرآن وأحكام دينهم أكثر بكثير مما هو عليه الحال في الحاضر . بل إن اللغة العربية كانت لغة الكتابة والتخاطب بين علماء المسلمين .

٦ ــ التوكيد على مبادئ الحرية والمساواة والتطور :

أما الحرية في التربية الإسلامية فكانت تتجلى بشكل خاص في مرحلة التعليم العالي في المدارس والمساجد على حد سواء . ففي المسجد ، مثلاً ، كان الطالب يتمتع بحرية مطلقة . فليس هناك موعد لحضور الطلاب أو لانصرافهم . وليس الطالب مقيداً بالاستماع إلى أستاذ معين ، أو دراسة علم معين . وليس الشيخ مقيداً بمنهج ثابت . فكان طلاب العلم يحضرون عند الشيخ الذي يروقهم في حلقته . فإذا أحب طالب درس شيخ لزمه ، وأخذ عنه ، حتى يتخرج على يديه ويجيزه للتدريس فيما بعد . كما لم يكن المدرس مقيداً بنظام معين لتوزيع المحاضرات . فبعض الأساتذة كانوا يدرسون كل يوم ، والبعض الآخر مرة في الأسبوع ، في يوم الاثنين بصفة خاصة .

وأما المساواة ، أو كما يصطلح عليه في عصرنا الحاضر بالديمقراطية في التعليم ، فقد لاحظناها في التزام المسلمين المربين بمبدأ تكافؤ الفرص التعليمية أو التعليم للجميع . ولتعزيز هذا المبدأ وتأصيله فقد ابتكر المسلمون نظاماً يشجع على التعليم ويرفع أعباءه عن عاتق الطلاب ، هو وقف الضياع والعقار وصرف ريعها على المدارس وعلى الكتاتيب .

وأما التطور في التربية الإسلامية فيتكشف في تعدد صورها بتعدد الثقافات التي اتصل بها الإسلام خلال تاريخه الطويل . فأخذ عن الفرس كما أخذ عن الروم ، وتطور بما أخذ عنهما . ذلك أن الإسلام ، وهو النظام الصالح لكل زمان ومكان ، لا يحول دون امتصاص المسلمين للخبرات النافعة من مجتمعات غير إسلامية إن كانت هذه الخبرات غير منافية لجوهر الدين وفيها قوة للإسلام والمسلمين . وكان من آثار هذا الامتصاص الثقافي النافع من الحضارات الأخَر أن قذفت لنا الحضارة الإسلامية خلال القرون الأربعة الأولى من ظهور الإسلام فيضاً عجيباً من المؤلفات الثمينة ، وبلغ نتاج بعض كبار المؤلفين حدًّا عظيمًا . واستطاعت هذه الحضارة الرائعة في بحر قرون قليلة أن تقدم من المكتشفات العلمية ومن الأنظار الفكرية ومن المبدعات الأدبية ، ما غذّى الإنسانية طوال قرون وما يزال مصدرًا غنيًّا لها .

أسئلة

أجب عن الأسئلة التالية :

١ ــ « يعتبر المسجد المدرسة الأولى في الإسلام » .
اشرح ذلك باختصار موضحاً أنواع الطلاب الذين كانوا يدرسون بالمساجد ونظام التدريس بها .

٢ ــ علل لما يلي :
أ ــ نشأة الكتاتيب وانتشارها في الدولة الإسلامية .
ب ــ نمو المكتبات في عهد الدولة العباسية .

٣ ــ « تنقسم المكتبات في الدولة الإسلامية إلى ثلاثة أنواع » .
وضح ذلك مبيناً دورها في نشر العلم والثقافة في المجتمع الإسلامي .

٤ ــ قارن بين كل من الخانكاه والزاوية كنوعين من أنواع معاهد التربية الإسلامية .

٥ ــ كيف يتم تربية التلاميذ الصغار وتأديبهم في العصر الإسلامي ؟

٦ ــ عدد أهم الشروط التي يجب أن تتوفر في العلماء والمدرسين المسلمين .

٧ ــ « تتميز التربية الإسلامية بخصائص معينة » .
اذكر بإيجاز أهم تلك الخصائص .

الفصل الدراسي الثاني

الفصل الثالث

العلوم الشرعية

قسّم المسلمون العلوم إلى قسمين رئيسين هما : العلوم الشرعيّة ، أو النقليّة ، والعلوم العقلية ، أو الحكميّة .

فأما العلوم الشرعيّة فهي العلوم التي تتصل مباحثها بالدين الإسلامي والتي بها يتميز المسلمون ثقافياً عمّا سواهم من الأمم الأخرى . فالعلوم الشرعية ، إذن ، هي علوم مختصة بالأمة الإسلامية ، أو ، هي علوم إسلامية صرفة ، وتصنف هذه العلوم إلى ثلاثة أنواع رئيسية هي :

١ ــ **العلوم القرآنية** : ومنها علوم القرآن ، وعلم القراءات ، وعلم التفسير .

٢ ــ **علوم السنّة** : ومنها علم الحديث ، مصطلح الحديث ، وعلم الرجال ، وعلم الجرح والتعديل .

٣ ــ **العلوم الفقهية** : ومنها أصول الفقه ، والفقه .

وقد يضاف إلى العلوم الشرعية ، أو النقلية علوم اللسان العربي الأساسية ، وهي علم النحو ، وعلم اللغة ، والبيان ، والأدب وذلك لما لهذه العلوم اللسانية من الأهمية في معرفة الإسلام . بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كان يرى أن اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي لغة القرآن وشعار أهله مجانب للدين .

وأما العلوم العقلية فهي العلوم التي أخذها المسلمون عن غيرهم من الأمم الأخرى ، وكانوا يطلقون عليها أحياناً علوم العجم ، أو ، العلوم القديمة وعلوم الأوائل . وتشمل هذه العلوم : الفلسفة ، والهندسة ، والطب ، والكيمياء ،

والموسيقى ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وعلم النجوم (وهو يبحث في تأثير النجوم في أحوال الكائنات ومصائرها) ، والسحر ، والشرع الإسلامي يحرم التنجيم والسحر لمضارهما وما يؤولان إليه من الكفر بالله .

وسنقصر حديثنا في هذا الفصل على عدد من العلوم الشرعية . أما العلوم العقلية فميدانها هو الفصل المقبل إن شاء الله .

أولاً : العلوم القرآنية :

وأصناف هذه العلوم المتصلة بكتاب الله كثيرة ومتنوعة . ولذلك فسنكتفي بالإشارة إلى ثلاثة منها ، هي : علوم القرآن ، وعلم القراءات ، وعلم التفسير .

١ ـ علوم القرآن :

تعريفه :

هو العلم الذي يتألف من مباحث متعلقة بالقرآن الكريم من حيث نزوله ، وترتيبه ، وجمعه ، وكتابته ، وقراءته ، وتفسيره ، وإعجازه ، وناسخه ، ومنسوخه ، ودفع الشبه عنه ، ونحو ذلك .

نشأة مصطلح علوم القرآن وتطوره :

بدأت الدراسات القرآنية بالظهور منذ القرن الثاني الهجري الذي نشطت فيه الحركة العلمية بين المسلمين تأليفاً وتدويناً واتسع مجالها حتى شملت كل أنواع المعارف والعلوم .

فمن أوائل من كتبوا في تفسير القرآن مقاتل بن سليمان (المتوفى سنة ١٥٠ هـ) . ثم نهج نهجهم بعد ذلك جماعة من العلماء وضعوا تفسيراً متكاملاً للقرآن وفق ترتيب آياته ، واشتهر منهم ابن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) .

ومن أوائل من ألف في **أسباب النزول** علي بن المديني ، شيخ الإمام البخاري ، المتوفى سنة ٢٣٤ هـ . وألف ابن قتيبة الدينوري (المتوفى سنة ٢٧٦ هـ) كتاب **تأويل مشكل القرآن** .

ويلاحظ أن طريقة أولئك المؤلفين تميزت بالاستيعاب والاستقصاء حيث يعمد أصحابها إلى الإحاطة بجزئيات القرآن من الناحية التي كتبوا فيها بقدر ما تسمح به طاقاتهم البشرية . فمن يكتب في غريب القرآن ، مثلاً ، يذكر كل مفرد من مفردات القرآن التي فيها غرابة وإبهام . ومن يكتب في مجاز القرآن يقتفي أثر كل لفظ فيه مجاز أيًّا كان نوعه في القرآن . ومن يكتب في أمثال القرآن يتحدث عن كل مثل ضربه الله تعالى في القرآن . وهكذا سائر أنواع علوم القرآن . ولا ريب في أن تلك الجهود الجبارة لا يتهيأ لإنسان أن يحيط بها ولو أفنى عمره واستنفد وسعه . لهذا تطلع العلماء إلى علم جديد يكون كالفهرس لكل تلك العلوم والدليل عليها والمتحدث عنها . فكان هذا العلم هو ما اصطلح عليه باسم علوم القرآن . ويعتبر كتاب **علي بن سعيد الحوفي** (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) المسمى **البرهان في علوم القرآن** الأول من نوعه في هذا المضمار ، أي في مصطلح (علوم القرآن) . فقد جمع الحوفي شتات علوم القرآن ونسقها ورتبها في مؤلف واحد يقع في ثلاثين مجلداً مخطوطاً (نصفه محفوظ بدار الكتب المصرية ونصفه مفقود) عرض فيه للتفسير ، والإعراب ، والوقف ، والابتداء ، والقراءات ، والأحكام ، وغيرها .

وعلى هذا فإن نشوء (علوم القرآن) كعلم ، أو ، فن جديد إنما كان في القرن الخامس الهجري ، وإن كانت جذوره التاريخية تمتد إلى القرن الثاني الهجري وبداية التدوين العلمي .

ثم جاء **القرن السادس** فألف فيه **ابن الجوزي المتوفي** سنة ٥٩٧هـ كتاباً أسماه **فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن** .

وفي **القرن السابع** ألف **علم الدين السخاوي** (المتوفى سنة ٦٤١ هـ)

كتاباً سماه **جمال القراء** ، وألف **أبو شامة** (المتوفى سنة ٦٦٥ هـ) كتاباً أطلق عليه **المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز** .

ثم أهلَّ **القرن الثامن** فكتب فيه **بدر الدين الزركشي** (المتوفى سنة ٧٩٤ هـ) كتاباً وافياً سماه **البرهان في علوم القرآن** . وفي هذا القرن أيضاً ألف ابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١ هـ) كتابه **التبيان في أقسام القرآن** .

وفي **القرن التاسع** ألف **جلال الدين البلقيني** (المتوفى سنة ٨٢٤ هـ) كتابه **مواقع العلوم من مواقع النجوم** ورتبه على خمسين نوعاً وقد اطلع عليه الإمام السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) وانتفع به . وفي سنة ٨٧٢ هـ ألف **السيوطي** كتاباً سماه **التجبير في علوم التفسير** ضمنه ما ذكره البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها ، وأضاف إليه فوائد سمحت قريحته بنقلها . وقد أوفى هذا الكتاب الاثنين بعد المائة من الأنواع . غير أن نفس الإمام الكبيرة لم تقنع بهذا المجهود العظيم بل طمح إلى التبحّر والتوسع والترتيب فوضع كتابه الثاني **كتاب الإتقان في علوم القرآن** ، وهو عمدة الباحثين في هذا العلم . وقد ذكر فيه ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والإدماج ، ثم قال بعد أن سردها نوعاً نوعاً ولو نوعت باعتبار ما أدمجته فيها لزادت على الثلاثمائة .

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في **عصر النهضة الحديثة** أقل من العلوم الأخرى . فقد اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامي اتجاهاً سديداً في معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر ، مثل كتاب **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** لمصطفى صادق الرافعي ، **والتصوير الفني في القرآن ومشاهد القيامة في القرآن** ، وكلاهما للشهيد سيد قطب ، **وترجمة القرآن** للشيخ المراغي **والنبأ العظيم** للدكتور محمد عبد الله دراز ، **ومناهل العرفان في علوم القرآن** للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني .

٢ ـ علم القراءات :

تعريفه :

هو مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم ، مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها ، وهي ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نشأته : يرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة رضوان الله عليهم . فمنهم من أخذ القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحرف واحد ، ومنهم من أخذه عنه بحرفين ، ومنهم من زاد .

فمنشأ القراءات ، إذن ، اختلاف في اللهجات وكيفية النطق بها وطرق الأداء من تضخيم ، وترقيق ، وإمالة ، وإدغام ، ومد ، وقصر ، وتشديد ، وتخفيف ، إلى آخره ، وجميعها ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمشتهرون من الصحابة **بإقراء** القرآن عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأُبَيّ (بضم الألف وفتح الباء وتشديد الياء) بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق ، عقب تدوين القرآن رسمياً ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ثم تفرق الصحابة في البلاد وهم يقرأون القرآن في حدود السبعة الأحرف التي نزل عليها القرآن وكلها من عند الله تعالى لا من عند أحد من الناس . وأخذ عن هؤلاء الصحابة خلق كثير من التابعين في كل قطر من الأقطار .

فكان منهم **بالمدينة** : ابن المسيب ، **وبمكة** : عطاء بن أبي رباح ، **وبالكوفة** :

علقمة ، **وبالبصرة** أبو العالية **وبالشام** : المغيرة المخزومى صاحب عثمان وفي عهد التابعين وعلى رأس المائة الأولى للهجرة تجرد قوم وعُنوا بضبط القراءة عناية تامة وجعلوها علماً ، كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخرى ، وصاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم . واشتهر منهم ومن الطبقة التي تلتهم **الأئمة السبعة** الذين تنسب إليهم **القراءات** إلى اليوم ، وهم : **نافع بن عبد الرحمن ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعاصم ابن أبي النجود ، وحمزة ، وعلي الكسائي ، وابن عامر ، وابن كثير** .

واشتهرت قراءات الأئمة السبعة على رأس المائتين في البلدان الإسلامية . غير أنها مكثت على هذه الحال من دون أن تأخذ مكانها من التدوين حتى خاتمة القرن الثالث ، إذ نهض ببغداد الإمام **أبو بكر بن مجاهد** (المتوفى سنة ٣٢٤ هـ) فجمع هذه القراءات ودونها . والسبب في اقتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة مع أن هناك في أئمة القراء من هو أجلّ منهم قدراً وأعظم شأناً يعود إلى أنه أخذ على نفسه ألا يروي إلا عمّن اشتهر بالضبط والأمانة وطول العمر في ملازمة القراء واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقي منه .

تعريفه :

هو علم يبحث فيه عن أحوال كتاب الله من جهة نزوله ، وسنده ، وأدائه ، وألفاظه ، ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام .

نشأته :

روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعد ،علمهن إياه جبريل . فكان النبي صلى الله عليه وسلم يفهم القرآن جملة وتفصيلاً . وكان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون القرآن كذلك لأنه نزل بلغتهم .

فلما كان عصر الفتوح واتسعت رقعة الدولة ودخل جمع غفير من العجم في الإسلام دعت الحاجة إلى فهم آيات القرآن الكريم . فنهض بهذه المهمة بعض كبار الصحابة من أمثال علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأُبَيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبي موسى الأشعري ، وأنس بن مالك وغيرهم . وصاروا يفسرون القرآن اعتماداً على ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بحسب ما وصل إليه فهمهم ويعتبر هؤلاء الصحابة مؤسسي مدرسة التفسير في الإسلام .

وقد ظل التفسير في عصر الصحابة والتابعين محتفظاً بطابع التلقي والرواية . ولكن في عصر التابعين تضخم التفسير بالإسرائيليات والنصرانيات لكثرة من دخل منهم في الإسلام وميل النفوس لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية ونصرانية . ومثال ذلك ما نجده في تفسير ابن جرير الطبري .

بُدِئ في تدوين التفسير في القرن الثاني الهجري ، ببعض سور القرآن ، ثم أصبح علماً قائماً منفصلاً عن الحديث . وفسر القرآن حسب ترتيب المصحف . ومن أشهر المفسرين ابن جرير الطبري (المتوفي سنة ٣١٠ هـ) . وتفسيره مروي بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى الصحابة والتابعين وأتباع التابعين فيما يروى من آراء ، واستنباط بعض الأحكام ، والإعراب عند الحاجة .

ثم اتسعت العلوم ، وتم تدوينها ، وتشعبت فروعها ، وكثر الاختلاف ، وأثيرت مسائل الكلام ، وظهر التعصب المذهبي ، واختلطت علوم الفلسفة العقلية بالعلوم النقلية . وحرصت الفرق الإسلامية على دعم مذاهبها فأصاب التفسير من هذا الجو غباره ، وأصبح المفسرون يعتمدون في تفسيرهم على الفهم الشخصي ويتجهون اتجاهات متعددة . وتحكمت فيهم المصطلحات العلمية ، والعقائد المذهبية ، والثقافة الفلسفية . واهتم كل واحد من المفسرين بحشوه بما برز فيه من العلوم الأخرى . فصاحب العلوم العقلية يعنى في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، كفخر الدين الرازي ، وصاحب الفقه يعنى بالفروع الفقهية ، كالجصاص والقرطبي ، وصاحب التاريخ يعنى بالقصص والأخبار ،

كالثعلبي والخازن . وصاحب البدعة يؤول كلام الله على مذهبه الفاسد ، كالرماني والجبائي ، والقاضي عبد الجبار والزمخشري من المعتزلة ، وصاحب التصوف يستخرج المعاني الإشارية ، كابن عربي ، وهكذا .

وهكذا أصبحت كتب التفسير تحمل في طياتها الغث والسمين ، والنافع والضار ، والصالح والفاسد ، وحمل كل مفسر آيات القرآن ما لا تتحمله انتصاراً لمذهبه ورداً على خصومه . وبذلك طغى التفسير بالرأي على التفسير بالأثر . وتدرج التفسير في العصور المتأخرة على هذا النمط .

أشهر كتب التفسير :

يمكن أن نصنف كتب التفسير إلى ثلاثة أنواع رئيسية هي :

التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأي ، والتفسير الحديث .

فأما التفسير بالمأثور فهو تفسير القرآن بالقرآن ، أو بالسنَّة ، لأنها جاءت مُبيِّنة له ، أو بما روي عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله ، أو بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة . وهذا النوع من التفسير هو الذي يجب اتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة .

ومن أشهر كتب التفسير بالمأثور الآتي :

تفسير جامع البيان في تفسير القرآن للطبري ويعتبر المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير بالمأثور ، ويقع في ثلاثين مجلداً . ويمتاز بمادته التاريخية .

وأما التفسير بالرأي فهو ما يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأي المجرد . والرأي المجرد الذي لا شاهد له مدعاة للشطط في كتاب الله . وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذه الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين ، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم . وتفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير

أصل لا يجوز تعاطيه لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾(١) .

ولقول رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ برأيه أو بما لا يَعْلَم فَلْيَتَبَوَّأْ مقعده من النار » ومن أشهر كتب التفسير بالرأي :

مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) ويقع في ثمانية مجلدات . وتجد في هذا التفسير أثر الفلسفة واضحاً . ويهتم الرازي ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره ويكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والفلسفية . وهذا الكتاب يعتبر موسوعة علمية في علم الكلام وفي علوم الكون والطبيعة ، وبهذا فقد أهميته كتفسير للقرآن الكريم .

وأما **التفسير الحديث** فهو الذي بدأ في الظهور منذ عصر النهضة الحديثة . علماً بأن بعض التفاسير الحديثة بها خلط وإساءة بالغة للقرآن مثل كتاب **الجواهر في تفسير القرآن** للشيخ طنطاوي جوهري . فالمفسر يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون الفيلسوف الإغريقي وعن إخوان الصفا في رسائلهم ويستخدم الرياضيات ويفسر الآيات تفسيراً يقوم على نظريات علمية حديثة . هذا بينما هناك بعض كتب حديثة للتفسير تعتبر بحق مفخرة للثقافة الإسلامية المعاصرة لاهتمامها بالمأثور عن سالف الأمة ، ولمحاولتها شرح المعاني العظيمة لكتاب الله بلغة العصر دون المساس بجوهره . من هذه التفاسير النفيسة في العصر الحديث **تفسير المنار** للسيد محمد رشيد رضا **وفي ظلال القرآن** للشهيد سيد قطب **والتفسير البياني للقرآن الكريم** للدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) .

---

(١) من الآية (٣٦) من سورة الإسراء.

ثانياً : علوم السنّة :

تعريفها :

يراد بالسنّة أو الحديث ، وهما كلمتان مترادفتان ، كل ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من **قول** أو **فعل** أو **تقرير** .

فأما **القول** فهو أحاديثه صلى الله عليه وسلم التي قالها في مختلف الأغراض والمناسبات كقوله : (إنما الأعمالُ بالنيّات ، وإنما لِكل امْرِئٍ ما نوى) ، وقوله : (مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنيه) ، وقوله : (لا ضَرَرَ ولا ضِرار) .

وأما **الفعل** فهو أفعاله صلى الله عليه وسلم التي نقلها إلينا الصحابة رضوان الله عليهم ، مثل وضوئه ، وأدائه الصلوات الخمس بهيئاتها وأركانها ، وأدائه مناسك الحج ، وقضائه باليمين والشاهد ، وما إلى ذلك .

وأما **التقرير** فهو كل ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال بسكوت منه وعدم إنكار أو بموافقته وإظهار استحسانه وتأييده .

أهمية الحديث ومكانته :

وللحديث النبوي قيمة كبرى في الدين تلي رتبة القرآن . فكثير من آيات القرآن مجملة أو مطلقة أو عامة . فجاء قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم أو عمله فبينها أو قيّدها أو خصّصها . فالقرآن ، مثلاً لم يبين تفاصيل الصلاة ، إنما أمر بها مجملة . وفعل النبي صلى الله عليه وسلّم أوضح أوقاتها وكيفياتها . كذلك كانت تعرض للنبي صلى الله عليه وسلّم حوادث يقضي فيها ، وأسئلة يجيب عنها ، ومبادلة أخذ وعطاء وتصرف في الشؤون السلميّة والحربية . كل هذه كانت تنزل بحقها أحيانـًا آيات قرآنية ، وأحيانـًا لا تنزل . وهذا النوع الثاني كالأول مرجع للمشرعين فاقتضى ذلك جميعه العناية بالحديث ، لأن السنّة تفسر القرآن وتدل عليه وتعبر عنه .

تدوين الحديث :

بدأت كتابة الحديث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن قبل بعض الصحابة . غير أن ذلك التدوين كان يجري على نطاق ضيق للغاية . فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : (لا تكتُبوا عَنّي ، ومَنْ كَتَبَ عَنّي غَيْرَ القرآن فَلْيَمْحه ، وَحَدِّثوا عَنّي ولا حَرَجَ ، ومن كَذَبَ عليَّ متعمداً فَلْيَتَبَوَّأ مقعدَه مِنَ النَّار) . ثم أذن عليه الصلاة والسلام إذناً عاماً حين نزل أكثر الوحي وحفظه الكثيرون وأمن اختلاطه بسواه فقال عليه الصلاة والسلام : (قَيِّدوا العِلْمَ بالكتاب) . وحفظ عنه صلوات الله عليه المنع من كتابة أحاديثه بوجه عام ، لأن كلامه كان موجهًا إلى عامة أصحابه ، وفيهم الثقة والأوثق ، والصالح والأصلح ، والضابط والأشد ضبطاً ، والحافظ والأمتن حفظاً . وأذن في الوقت نفسه لبعض أفرادهم إذناً خاصاً بالكتابة **وقد ترك عدد من الصحابة صحفاً ضاع معظمها ، ومن أشهرها صحيفة أبي هريرة رضي الله عنه . والتي جاءت برمتها في مسند الإمام أحمد وتعداد هذه الصحيفة ١٣٨ حديثاً**[1] .

ولقد ظهرت محاولة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتدوين السنَّة وأشار عليه عدد من الصحابة بذلك . فلبث شهراً يستخير الله في ذلك ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : « **إني كنت** قد ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم . ثم تذكرت ، فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم ، قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً » . وهكذا ترك عمر كتابة السنن .

---

(١) تعرف صحيفة أبي هريرة باسم **الصحيفة الصحيحة** ، وقد عثر عليها في مخطوطتين متماثلتين في برلين ودمشق . ومن صحف الحديث المدونة في عهد النبوة : صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري ، وصحيفة جابر بن عبد الله ، وصحيفة **عبد الله بن عمرو** بن العاص المعروفة باسم **الصحيفة الصادقة** والتي اشتملت على ألف حديث كما يقول ابن الأثير .

غير أن **كتابة السنن** دخلت طور التنفيذ الفعلي بعد عهد الخلفاء الراشدين وبالذات في جيل التابعين . وكان ذلك في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . فقد خشي هذا الخليفة الراشد اندراس السنّة ، وبخاصة بعد أن تسرب الوضع إليها بتأثير عوامل مختلفة لعل من أخطرها الخلافات السياسية بين الجماعات الإسلامية كتلك التي كانت بين العلويين والأمويين ، فأمر هذا الخليفة الأموي بجمعها على أيدي كبار علماء التابعين ، وأمر المسئولين في مختلف أقاليم الدولة الإسلامية بالاعتناء بالحديث الشريف وتشجيع العلماء على عقد حلقات دراسية في المساجد . وكان أول من استجاب لدعوة عمر بن عبد العزيز في تدوين الحديث عالم الحجاز والشام محمد بن مسلم بن شهاب **الزهري** المدني (المتوفى سنة ١٢٤ هـ) الذي دوّن له كتاباً في ذلك . فغدا عمر يبعث ، إلى كل أرض من ديار الإسلام بدفتر من دفاتر الحديث للزهري . وقد حقّ للزهري أن يفخر بعمله قائلاً : (لم يدوّن هذا العلم أحد قبل تدويني » وإذن فالمحاولة الرسمية لتدوين الحديث إنما كانت في عهد عمر بن عبد العزيز .

فلما جاء العصر العباسي وانتصف القرن الثاني ، بدأ التأليف في الحديث ، كما بدأ في العلوم الأخرى . ووجدت هذه النزعة إلى تدوين الحديث في أمصار مختلفة وفي عصور متقاربة . ففي مكة جمع الحديث **ابن جريج** (ـ ١٥٠ هـ) ، وفي المدينة اثنان : **محمد بن إسحاق** (ـ ١٥١ هـ) **ومالك بن أنس** (ـ ١٧٩ هـ) ، وبالبصرة **حماد بن سلمة** (ـ ١٧٦ هـ) ، وبالكوفة **سفيان الثوري** (- ١٦١ هـ) ، وبالشام **الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي** ، وباليمن **معمر بن راشد** (ـ ١٥٣ هـ) ، وبخراسان **عبد الله بن المبارك** (ـ ١٨١ هـ) ، وبمصر **الليث بن سعد** (ـ ١٧٥ هـ) . ولم يصل إلينا من هذه المجموعات إلا **موطأ مالك** . وكان الغرض الأول من جمع الأحاديث في عصر التابعين هذا ، خدمة التشريع بتسهيل استنباط الأحكام من الأحاديث . فالموطأ مرتب ترتيباً فقهياً . وإذن فميزة التدوين في هذا العصر ،

أن الحديث كان ممزوجاً غالباً بفتاوى الصحابة والتابعين .

وفي عصر أتباع التابعين ممن كانوا على رأس المائتين عني العلماء بتأليف **المسانيد** خالية من فتاوى الصحابة والتابعين ، مقصورة على السنّة النبوية وحدها . وأول من ألف تلك المسانيد أبو داود الطيالسي (ـ ٢٠٤ هـ) . ويعتبر مسند أحمد بن حنبل (ـ ٢٤١ هـ) أوفى تلك المسانيد ، وأوسعها .

ويبلغ **تدوين الحديث عصره الذهبي** في جيل أتباع أتباع التابعين أو في القرن الثالث . ففي هذا العصر ظهرت الكتب الستة الصحيحة أو **كتب الصحاح** كما تعرف عادة ، وهي : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن أبي داود ، والمجتبى للنسائي ، وجامع الترمذي ، وسنن ابن ماجه .

وهكذا مرّ الحديث النبوي الشريف بمراحل طويلة حتى وصل إلينا محرراً مضبوطاً .

ولقد نشأ الفقه في ظل الحديث ثم أضحى جزءاً لا يتجزأ من كله الكبير ، كما وجد التفسير أيضاً طريقه في رحاب الحديث حين عوَّل المفسرون على السنَّة النبوية في تأويل كتاب الله . وظل التفسير بعد ذلك ، كالفقه ، جزءاً من الحديث حتى استقلَّ علماً قائماً بذاته له مناهجه وأصوله ، ولكنه على استقلاله ، ما انفكَّ شديد الارتباط بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما التفسير بالمأثور . وهكذا نشأت عن الحديث علوم كثيرة ، وكذلك نشأت عن التفسير نفسه علوم كثيرة أيضاً .

علوم الحديث :

كان من أثر الجهود العظيمة التي بذلها المسلمون في عهود مختلفة في سبيل جمع الحديث وتدوينه قيام علوم كثيرة حول الحديث النبوي لم يحظ بمثلها علم من العلوم أو قانون من القوانين . فنشأ علم مصطلح الحديث ، وعلم الجرح والتعديل ، وعلم الرجال أو تاريخ الرواة ، وعلم أصول الحديث ،

وعلم غريب الحديث ، وعلم ناسخ الحديث ومنسوخه ، وعلم علل الحديث ، وعلم مختلف الحديث ومشكله ، وعلم ورود الحديث ، وغيرها من العلوم التي خدمت السنّة النبوية وتكفلت ببيانها ، فمازت الصحيح من الضعيف ، والسليم من العليل ، والمقبول من المردود ، والمرفوع من الموقوف ، والدخيل من الأصيل .

ولم يكن جمع الحديث ونقله جمعاً اتفاقياً عادياً ، بل جمع ونقل بالكتابة والرواية على مختلف صورها ، على أسلم القواعد العلمية . فما كان يقبل الحديث إلا إذا توفرت في حامله شروط دقيقة نصّ عليها العلماء وبسطوا القول فيها في كتب أصول الحديث . وقد نشأت جميع هذه العلوم في أوقات متقاربة كل علم منها يساعد الآخر . ونقدم فيما يلي نبذة موجزة عن ثلاثة من أهم هذه العلوم ، وهي : علم مصطلح الحديث ، وعلم رجال الحديث ، وعلم الجرح والتعديل .

أولاً : علم مصطلح الحديث :

وهو العلم الذي يعنى بدراسة أقسام الحديث أو مصطلحاته من ناحيتين اثنتين هما : من حيث عدد نقلته ، ومن حيث القبول والرد .

أ ـ أقسام الحديث من حيث عدد نقلته :

ينقسم الحديث باعتبار نقلته ثلاثة أقسام هي : الحديث المتواتر ، والحديث المشهور ، والحديث الآحادي .

١ . **الحديث المتواتر** : وهو ما رواه جمع لا يتوهم تواطؤهم على الكذب من أول السند (بمعنى سلسلة أسماء الرواة) إلى منتهاه كحديث « مَنْ كَذَبَ عَليَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار » وحديث «إنَّما الأعْمَالُ بالنيّات». وهذا النوع من الحديث قطعي الثبوت ، يجب العمل به ، ويكفر جاحده ، والتواتر أعلى مراتب النقل .

٢ . **الحديث المشهور** : وهو ما رواه من الصحابة عدد لا يبلغ حدّ التواتر ثم تواتر بعد الصحابة ومن بعدهم . وأقل ما تثبت به الشهرة ثلاثة رواة .

والمشهور دون المتواتر ، وهو يوجب علم طمأنينة (عند الحنفية) أي ظناً قريباً من اليقين فيجب العمل به ، لكنه لا يكفر جاحده كحديث « إنّ اللهَ لا يَقْبضُ العِلْمَ انْتزاعاً .. » وحديث « طَلَبُ العِلْمِ فَريضةٌ على كُلِّ مُسْلِم » . وعند علماء السنّة يجب العمل به وعدم مخالفته .

٣ . **الحديث الآحادي أو خبر الآحاد :** وهو ما رواه الواحد أو الاثنان فأكثر مما لم تتوفر فيه شروط المتواتر أو المشهور . فلا يفيد الآحادي أنه خبر الواحد دائماً . وحكمه وجوب العمل به ، متى توفرت فيه شروط القبول ، وعلى هذا جمهور علماء المسلمين .

ب ـ أقسام الحديث من حيث القبول والرد :

ينقسم الحديث من حيث قبوله أو رفضه إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي : الحديث الصحيح ، والحديث الحسن ، والحديث الضعيف .

١ . الحديث الصحيح :

هو ما احتوى على اتصال السند[1] والعدالة[2] والضبط التام[3] وخلا من الشذوذ والعلل الفادحة . ومراتب الحديث الصحيح تتباعد في الفضل وتتفاوت في الدرجة كما يبدو تفاوته في الإسناد والمتن أيضاً . ويعرف التفاوت في الإسناد بقول أئمة المحدثين بأن إسناده من أصح الأسانيد . أما المتن فيعرف التفاوت فيه باتفاق الشيخين البخاري ومسلم عليه ، واتفاقهما على حديث يجعله أعلى

---

(١) يراد باتصال السند أن يكون كل راوٍ قد سمع الحديث ممن فوقه بحيث لا يروي فيه أحد عمّن لم يسمع منه مباشرة .

(٢) تعني العدالة مجموعة الصفات التي تشترك في تكوين الثقة بصدق الراوي كحسن العقيدة ، والقيام بأوامر الشرع ، واجتناب ما نهى عنه ، وترك كل ما يخل بالمروءة ، والاتصاف بالورع والتقوى ومحاسن الأخلاق .

(٣) يقصد بالضبط كمال الملكات العقلية كالنباهة ، وعدم الغفلة ، واليقظة ، وحسن الفهم ، والحفظ ، والمعرفة بأحوال الناس .

رتبة ويليه في الرتبة ما انفرد به البخاري وحده ثم ما انفرد به مسلم ثم ما كان على شرط البخاري ثم ما كان على شرط مسلم ثم ما كان على شرط أحد رجال الصحاح الأربعة الباقين .

٢ . الحديث الحسن :

هو ما اتصل سنده بنقل عدل ضابط قلّ ضبطه بالنسبة إلى راوي الحديث الصحيح وسلم من الشذوذ والعلل الفادحة . والحسن كالصحيح في تفاوت المراتب إسناداً بقولِ أئمة الحديث وهو « أحسن الأسانيد » ، وما نزلت رتبته عن ذلك فهو أدناها . كما يعرف أعلاها في الرتبة متناً باختلاف الأئمة المحدثين في صحته وحسنه ، وأدناها هو ما اختلف الأئمة في صحته وضعفه .

٣ . الحديث الضعيف :

هو ما انحط عن رتبة الصحيح والحسن وفقد وصفاً أو أكثر من أوصاف القول . وقد أوصل علماء الحديث أنواعه إلى (٣٨٠) **ثمانين وثلاثمائة نوع ، منها المقطوع والموضوع**[١] ، وقد أجاز العلماء العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال كالترغيب والترهيب بشرط ألّا يشتد ضعفه ، ولكنه لايحتج به في الأحكام الشرعية . وهذا مثال للحديث الضعيف : (مَنْ حَفظَ عَلى أُمَّتي أربعين حَديثا مِنْ أَمْرِ دِينِهابَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ في زمْرَةِ الفُقَهاء والعُلَماء) .

ثانياً : علم رجال الحديث :

هو العلم الذي يُعرِّف برواة الحديث من الناحية التي تتعلق بروايتهم للحديث . فهو يتناول بالبيان أحوال الرواة ، فيذكر تاريخ ولادة الراوي ، ووفاته ، وشيوخه وتاريخ سماعه منهم ، ومن روى عنه ، وبلادهم ومواطنهم ،

(١) المقطوع : ما أضيف إلى التابعي أو مَن دونه من قول أو فعل ، أما الموضوع فهو الكذب المنسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم من أول السند إلى آخره .

ورحلات الراوي ، وتاريخ قدومه إلى البلدان المختلفة ، وسماعه بعض الشيوخ قبل لقياهم أم بعده ، وغير ذلك مما له صلة بأمور الحديث . فهذا العلم ، إذن ، ذو طبيعة تاريخية . من هنا كانت تسميته أيضاً (علم تاريخ الرواة) .

وقد نشأ هذا العلم مع نشأة الرواية في الإسلام ، واهتم العلماء به ليتمكنوا من معرفة رجال الأسانيد وليتثبتوا من صحة ما يدّعيه الرواة من سماع . وكان التاريخ خير سلاح يتسلح به العلماء تجاه الكذابين .

ثالثاً : علم الجرح والتعديل :

هو علم يبحث عن الرواة من حيث ما ورد في شأنهم بقصد تمييز الحديث الصحيح من السقيم والمقبول من المردود .

وقد نشأ هذا العلم ذو الطبيعة الانتقادية مع نشأة الرواية في الإسلام ، إذ كان لا بد لمعرفة الأخبار الصحيحة من معرفة رواتها معرفة تمكن أهل العلم من الحكم بصدقهم أو كذبهم حتى يتمكنوا من تمييز المقبول من المردود . لذلك سألوا عن الرواة ، وتتبعوهم في مختلف أحوالهم العلمية ، وعرفوا جميع أحوالهم ، وبحثوا أشدّ البحث حتى عرفوا الأحفظ فالأحفظ ، والأضبط فالأضبط ، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة . وقد وصلنا كثير من أقوال الصحابة رضي الله عنهم في هذا المجال . وتكلم بعد الصحابة التابعون وأتباعهم وأهل العلم من بعدهم . وكانوا يبينون أحوال الرواة وينقدونهم ويعدلونهم حسبة لله ، لا تأخذهم خشية أحد ولا تتملكهم عاطفة .

وقد أكد العلماء ضرورة بيان أحوال الرواة ، وأنه ليس في هذا غيبة ، بل في ذلك حفظ السنّة ، وصيانتها عن الدخيل ، وبيان الصحيح من الضعيف ، والمقبول من المردود .

وقد وضع علماء الجرح والتعديل في بحث أحوال الرواة ونقدها منهجاً علمياً موضوعياً يستند إلى القواعد الآتية :

١ . **الأمانة والنزاهة في الحكم** : فكانوا يذكرون للراوي ما له وما عليه ، من هذا قول محمد بن سيرين (ـ ١١٠ هـ) : « ظلمت أخاك إذا ذكرت مساوئه ولم تذكر محاسنه » .

٢ . **الدقة في البحث والحكم** : فكثيراً ما كان علماء الجرح والتعديل يميزون بين من كان ضعف روايته ناشئاً عن وهن في دينه ومن كان ضعفه ناشئاً عن الحفظ والإتقان .

٣ . **التزام الأدب في الجرح** : فلم يخرج علماء الجرح والتعديل عن أدب البحث العلمي الصحيح في نقدهم واجتهادهم . وأقسى ما يروى عنهم قولهم فلان وضّاع أو كذّاب فيمن يضع الحديث أو يكذب فيه ، وهو وصف لا يعدو الحقيقة . بل بعضهم يجتنب ذكر مثل هذه الأوصاف ويكتفي عنها بما يدل عليها كقولهم « لم يكن مستقيم اللسان » ونحو هذا .

٤ . **الإجمال في التعديل والتفصيل في التجريح** : فلم يحاول أئمة الجرح والتعديل أن يذكروا أسباب تعديلهم الرواة . فلا يقولون فلان ثقة أو عدل لأنه يصلي ويصوم ويجتهد ولا يؤذي الناس ، مثلاً ، بل يقولون ثبت ثقة أو صدوق من غير أن يبينوا أسباب ذلك . ذلك لأن أسباب العدالة كثيرة يثقل على المرء ذكرها جميعها ، بخلاف الجرح فغالباً ما يبينون سبب جرح الرواة من غفلة أو كثرة وهن أو عدم ضبط أو كذب وفسق وغير ذلك . لأنه يكفي ذكر سبب واحد قادح في عدالة الراوي أو حفظه ليجرّحه .

ثالثاً : العلوم الفقهية

يتناول الفقه الإسلامي الحياة الإنسانية ، الدينية والسياسية والقانونية والاجتماعية بمعناها الواسع ، حياة المسلم كافة وحياة غير المسلم من أهل العهد والذمة في حدود خاصة ، بحيث لا تتعارض حياتهم في مظاهرها الخارجية مع الإسلام بشكل ما .

وهكذا فقد ألبس الدين كل شيء من أمور المسلمين ثوب التشريع . وفتح المسلمون منذ عصر الرسالة باب الاجتهاد حتى وصل إلى بناء هائل منظم لكل أنواع المعاملات والعلاقات الإنسانية للمسلمين تنظيماً دقيقاً . وأصبحت القوانين كلها تبعاً لهذا المبدأ الذي لا يفرق بين أمور الدين والدنيا فقهاً دينياً إلهياً . ومن هنا يختلف الفقه الإسلامي عن سائر التشريعات الوضعية التي لا تستند أحكامها إلى فكرة الحلال والحرام .

معنى الفقه وأصول الفقه :

يراد **بالفقه** مجموعة الأحكام المشروعة في الإسلام التي تعلم مشروعيتها بطريق النص الصريح في القرآن ، أو بيان الرسول صلى الله عليه وسلم وسنّته ، أو بطريقة إجماع المسلمين ، أو باستنباط الفقهاء المجتهدين سابقاً ولاحقاً من دلائل نصوص القرآن والسنّة وقواعد الشريعة ومقاصدها .

أما **أصول الفقه** فهو القواعد التي يُتوصَّلُ بها لاستنباط الأحكام الشرعية من الأدلة .

والأحكام الشرعية أو الفقهية سبعة أقسام هي : العبادات (من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد) ، والمعاملات (كالبيع والشراء والإجارة والقروض والرِّبا) ، والأسرة ، أو الأحوال الشخصية (كالنكاح والطلاق والنفقة والميراث والنسب) . والعقوبات (لمعاقبة المجرمين وحفظ الأمن الداخلي) ، والأحكام السلطانية أو السياسة الشرعية (الأحكام المتعلقة بسلطان الحاكم على الرعية وبالحقوق والواجبات المتقابلة بينهما) ، والسِّيَر (بكسر السين وفتح الياء) ، أو نظام السلم والحرب ، والاصطلاح القانوني المعاصر لتلك الحقوق الدولية ، والآداب (الأحكام المتعلقة بالأخلاق والحشمة والمحاسن والمساوئ) .

مصادر الفقه :

عدّ العلماء مصادر الفقه ، أي منابعه التي يستقي منها ، أربعة هي :

١ . **الكتاب** : وهو كتاب الله تعالى وقرآنه الذي نزل على رسوله محمد

صلى الله عليه وسلم وهو الأصل الأول في التشريع الإسلامي . فقد بُيِّنَتْ فيه أسس الشريعة وأوضحت معالمها في العقائد تفصيلاً وفي العبادات والحقوق إجمالاً . على أن القرآن قد تناول تفصيل جزئيات الأحكام في بعض الموضوعات ، كما في المواريث ، وكيفية اللعان (المباهلة) بين الزوجين ، وحدود بعض العقوبات ، والنساء المحارم في النكاح .

٢ . **السنّة** : فهي ، كما تقدم ذكره ، كل ما جاء منقولاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير . والسنّة تلي كتاب الله بوصفها مصدراً تشريعياً مبيّناً وتابعاً للكتاب ، ومن هنا كان تشدد العلماء في قبول الأحاديث وتجريحهم لرواة الحديث لتمييز الصحيح من السقيم لما في ذلك من أهمية بالغة في إصدار الأحكام الشرعية ، حيث إن السنّة هي المصدر الثاني للتشريع .

٣ . **الإجماع** : هو اتفاق المجتهدين في أي عصر على حكم شرعي . والإجماع حجة قوية في إثبات الأحكام الفقهية ومصدر يلي السنّة الشريفة في الرتبة . وقد كان الإجماع في زمن الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما سهلاً ميسوراً ، لأن عمر في خلافته منع الصحابة رضوان الله عليهم أن يخرجوا من المدينة لتمكنه مشاورتهم فيما يحدث من أمور العلم أو السياسة . ولكنهم تفرقوا بعد ذلك في أواخر خلافة عثمان في الأمصار ونشأ على أيديهم علماء وفقهاء في الحجاز والعراق والشام واليمن ومصر وغيرها فلم يمكن بعد ذلك تحقق إجماع من المجتهدين لانقطاع إمكان الشورى العلمية العامة ، ولأن اتفاق علماء بلد واحد على حكم لا يعتبر إجماعاً . فالإجماع ، إذن ، قد اقتصر ، من الناحية التاريخية ، على فترة الخلافة الراشدة .

٤ . **القياس** : هو إلحاق أمر بآخر في الحكم الشرعي لاتحاد بينهما في العلّة . والقياس يأتي في المرتبة الرابعة بعد الكتاب والسنّة والإجماع من حيث حجيته . ولكنه أعظم أثراً من الإجماع في كثرة ما يرجع إليه من أحكام الفقه ،

لأن مسائل الإجماع محصورة ولم يتأت فيها زيادة ، لانصراف علماء المسلمين في مختلف الأقطار عن مبدأ الشورى العلمية العامة ، ولتعذر تحققه بمعناه الكامل فيما بعد العصر الأول كما أوضحناه . أما القياس فلا يشترط فيه اتفاق كلمة العلماء . بل كل مجتهد يقيس بنظره الخاص في كل حادثة لا نصّ عليها في الكتاب والسنّة ، ولا إجماع عليها . وواضح فإن النصوص في الكتاب والسنّة محدودة متناهية ، والحوادث الواقعة والمتوقعة غير متناهية . فلا سبيل إلى إعطاء الحوادث والمعاملات الجديدة منازلها وأحكامها في فقه الشريعة إلا طريق الاجتهاد بالرأي الذي رأسه القياس . فالقياس أغزر المصادر الفقهية في إثبات الأحكام الفرعية للحوادث .

نشأة المذاهب الفقهية الأربعة :

كان لاتساع رقعة الدولة الإسلامية اتساعاً عظيماً وسريعاً ، وامتزاج الحضارات العريضة التي كانت سائدة في بلاد العراق والشام ومصر وفارس بحضارة الإسلام الطالعة أن عرضت للناس وقائع جديدة تستدعي وضع بعض التشريعات في المعاملات والحلال والحرام . وكان لابد للفقهاء من الاجتهاد ، واستتبع ذلك ظهور مدارس أو مذاهب فقهية .

ومن العوامل التي ساعدت على تكوين المذاهب الفقهية تدوين القرآن (كاملاً في عهد عثمان) والسنّة (بداية عهد عمر بن عبد العزيز) ، وجمع فقه الصحابة وفتاوى التابعين ، وتصنيف طائفة غير قليلة من العلوم تقوي ملكة الاجتهاد والقياس والاستنباط ، كعلوم اللغة العربية وتفسير القرآن وأدب المناظرة والكلام . أضف إلى ذلك كله تشجيع الخلفاء للحركة الفقهية ، ومؤازرتهم للعلماء ، وعنايتهم بمجالس البحث والنظر ، ورغبة الكثيرين منهم في الجدل العلمي الدقيق .

والمذاهب التي نشأت ، نتيجة لتلك العوامل ، منها الفردية التي انقرضت ولم يكتب لها البقاء ، ومنها الجمعية[1] التي كونت مدارس ووضعت مناهج للبحث التشريعي العميق .

وقد تمثلت المذاهب الفردية في فتاوى بعض التابعين وأتباعهم ممن لم يتح لهم نشر آرائهم مختلطة بآراء أصحابهم وأتباعهم : كسفيان بن سعيد الثوري ، واللّيث بن سعد ، والأوزاعي . على حين تمثلت المذاهب الجمعية فيمن نقلت آراؤهم وآراء أصحابهم في مجموعة واحدة ومناهج متشابهة ، منها المذاهب الأربعة (وهي : المذهب الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي) ، وكثير غيرها . وفيما يلي نورد خلاصة عن كلٍّ واحد من هذه المذاهب الأربعة :

١ ـ المذهب الحنفي :

ينسب هذا المذهب إلى إمامه أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، وهو فارسي الأصل ويسمى الإمام الأعظم . ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ في عهد عبد الملك بن مروان وتوفي بالسجن في بغداد سنة ١٥٠ هـ في عهد أبي جعفر المنصور ، وكان إمام العراقيين . وقد انتقلت زعامة أهل الرأي إليه[1] ، واستقرت عليه . فقد وطد طريقة الاستحسان ، واشتهر بقوة الحجة وسرعة الجواب المفحم وعبقرية الفهم والاستنباط .

لقد كان أبو حنيفة رحمه الله واسع الاجتهاد . فقد خرج على الناس بمذهب جديد فيه حرية للعقل بكثرة استعمال الرأي والقياس ، وبما استتبع ذلك من كثرة الفروع ورجوعها إلى أصول ، وبمقدرة فائقة في الاستنباط ،

---

(١) نسبة إلى جماعة وليس الجماعية كما هو الشائع خطأ .

(١) من الأعلام المؤسسين لمدرسة أهل الرأي في العراق ، الإمام علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعلقمة النخعي ، ومسروق بن الأجدع الهمداني ، والأسود بن يزيد النخعي ، وإبراهيم النخعي ، وحماد بن أبي سليمان أستاذ أبي حنيفة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وبشجاعة في مواجهة المسائل حتى الفرضية منها والإفتاء فيها ، وبتعرف وجوه الحيل في المسائل ، وبتقريب الفقه إلى الأذهان .

كان أبو حنيفة يأخذ بالرأي عند فقدان النص ، إذ النصوص متناهية بينما الوقائع غير متناهية . غير أنه لم يكن يقدم القياس والنظر على الحديث الصحيح . لكن أصحاب الحديث أفرطوا في انتقاده وتجاوزوا الحد في ذلك . والحق أن أبا حنيفة رد كثيراً من أخبار الآحاد لا سيما إذا عرفنا أن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشا في عهده فشواً مخيفاً فإذا هو يضع شروطاً شديدة للغاية في قبول خبر الآحاد . بل إنه لم يقبل الحديث إلا إذا رواه جماعة عن جماعة أو إذا اتفق فقهاء الأمصار على العمل به .

وقد عرض بعض حكام بني أمية القضاء على أبي حنيفة ، فأبى ، فضرب عدة أسواط ثم حبسوه ، ولكن السوط والحبس لم يحملاه على القضاء . ودعاه أبو جعفر المنصور إلى القضاء أيضاً . فأبى ، فحبسه . ثم دعاه فقال له : أترغب عما نحن فيه ؟ فقال أبو حنيفة : أصلح الله أمير المؤمنين لا أصلح للقضاء . فقال له : كذبت . ثم عرض عليه القضاء ثانية ، فقال أبو حنيفة : قد حكم عليَّ أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء لأنه نسبني إلى الكذب . فإن كنت كذاباً فلا أصلح للقضاء ، وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح ، فرده في الحبس الذي كان فيه من قبل وبقي هناك إلى أن مات .

وأشهر تلاميذ أبي حنيفة اثنان : الأول **أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم** الذي تولى سلطة القضاء في الدولة العباسية في عهد الرشيد ، وألف كتاب الخراج . والثاني **محمد بن الحسن الشيباني** ، وهو من عباقرة الفقهاء الأذكياء ، ومن أئمة اللغة أيضاً . وأبو يوسف ومحمد يلقبان « الصاحبين » وإليهما في الدرجة الأولى يعود الفضل في تدوين فقه أبي حنيفة ونشر مذهبه[1]

---

(١) يظهر أن أبا حنيفة لم يؤلف في الفقه . فلم يصلنا من آثاره المدونة في الفقه شيء ، وكل ما رواه ابن النديم عن كتبه : كتاب الفقه الأكبر ، ورسالته إلى البستي ، وكتاب العالم والمتعلم ، وكتاب الرد على القدرية .

٢ ـ المذهب المالكي :

وينسب إلى إمامه مالك بن أنس الأصبحي وكان عالم المدينة وإمام الحجازيين . ولد رحمه الله بالمدينة سنة ٩٣ هـ وعاش طوال حياته فيها ومات سنة ١٧٩ هـ .

ويعتبر مذهبه وسطاً معتدلاً بين أهل الرأي والحديث ، لكثرة استناده إلى الحديث إذ كانت روايته قد انتشرت ولا سيما في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن مالكاً يعد إلى جانب ذلك من أهل الرأي ، ومذهبه وأصوله إلى الرأي أقرب نسباً .

وقد استفاد من مركزه في المدينة الاتصال الدائم بعلماء الآفاق كلها في موسم الحج ، واجتمع فيه إلى أبي حنيفة وناظره وقال عنه « إنه لفقيه » .

أدرك الإمام مالك أربعين عاماً في العهد الأموي من غير أن يُذاع له حديث ، وظل منقطعاً عن الخلفاء العباسيين لفترة طويلة ولقي منهم ضروب التعذيب ، فقد ضربه حاكم المدينة بالسياط حتى انخلعت كتفه ، فكان يستعين على حمل يده اليمنى باليسرى لأنه أفتى بفساد بيعة الخلفاء بالقهر والإكراه .

وكان مالك أول من كتب في العلوم الدينية في العصر العباسي . وكتابه القيّم **الموطأ** ، الذي استغرق في تأليفه أربعين سنة عرضه خلالها على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة وجمعه من مائة ألف حديث ، يعد أول كتاب ظهر في الفقه الإسلامي . وقد روى « الموطأ » عنه أكثر من ألف رجل ، ولذلك اختلفت نسخه فكانت ثلاثين لم يشتهر منها إلا عشرون . ومن كتبه أيضاً : **المدونة** ، وهي مجموعة رسائل جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابوري وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة .

وقد انتشر مذهب مالك في شمال أفريقيا والأندلس . أما الذين أعانوه على نشر مذهبه في هذه البلاد فأشهرهم أسد بن الفرات الذي نشأ في تونس ودوّن

فتواه في « المدوّنة » ، ويحيى بن يحيى الليثي الأندلسي المصمودي الذي نشر هذا المذهب في الأندلس . وممن اشتهر بالفقه من تلاميذ مالك في العراق محمد بن الحسن .

٣ ـ المذهب الشافعي :

ينسب إلى إمامه محمد بن إدريس الشافعي القرشي . وقد ولد رحمه الله بغزة سنة ١٥٠ هـ ، وربي يتيماً ، ورحل إلى العراق والحجاز ، فأخذ عن أصحاب أبي حنيفة وعن مالك ، ثم استقر في مصر سنة ١٩٩ هـ ، حيث أسَّس مذهبه الجديد وتوفي بالفسطاط سنة ٢٠٤ هـ .

وللشافعي مذهبان : قديم وجديد . فما وضعه بالعراق من الأحكام هو مذهبه القديم ، وما استقر عليه في مصر هو مذهبه الجديد . وبين المرحلتين تفاوت غير قليل في طريقة الاستنباط والاستنتاج ، ولم يكن بد من هذا بعد أن مارس الشافعي البحث والنظر في مصر ، ورأى في رحلته إليها ما أنضج فكره وأوسع أفقه ، ونمَّى معرفته بشئون الفقه والتشريع .

ومع توسط الشافعي بين المغالين في الرأي والمنصرفين عنه ، كان يميل ميلاً صريحاً إلى تأييد أهل الحديث . وقد أنكر على شيخه مالك طريقة الاستحسان . وقد ظهر هذا الميل فيما ألفه من كتب قيّمة : **كالأم** ، **والرسالة** ، **واختلاف الحديث والمبسوط** .

ويتلخص مذهب الإمام الشافعي في إيثار الرجوع إلى النصوص من آيات وأحاديث . فيعمل بظاهر القرآن ما لم يقم دليل على إخراجه عن ظاهره ، ثم بالسنَّة ولو كانت خبراً واحداً غير مشهور . فإن لم يكن في المسألة قرآن ولا سنَّة فلا بأس بالإجماع . ولكن الإجماع ليس مقيداً بعمل أهل المدينة . ويؤخذ في هذا المذهب أيضاً بالقياس من غير توسع ، ولا بد من أن يكون لهذا القياس أصل من الكتاب أو السنَّة . أما الاستحسان ، (أو مجرد الرأي من غير أن يكون مستنداً إلى أصل شرعي ، أو هو قطع المسألة عن نظائرها)

والمصلحة المرسلة فباطلان لانقطاع العلاقة بينهما وبين الأصول الدينية . وقد شبه الشافعي المستحسن في أثناء كلامه بالتاجر يقدر للشيء ثمناً من غير أن يدخل السوق ويعرف أسعار اليوم . فتقديره لا ينبني على أساس ، كذلك الفقيه يستحسن من غير أن يرجع في استحسانه إلى أصول الشريعة ، ولذلك هاجم مالكاً في قوله بالمصالح المرسلة (وهي كل مصلحة لم يرد في الشرع نص على اعتبارها بعينها أو بنوعها ، أو هي استحسان بالضرورة لاتفاقها والمقاصد العامة للشريعة دون أن يكون هناك نص شرعي عليها أو على ما يماثلها بحيث يمكن أن تقاس عليه) .

ويعتبر الشافعي بحق أول من أرسى قواعد علم أصول الفقه إذ ألَّف فيه كتابه الرسالة ، كما أرسى الخليل بن أحمد أصول علم العروض والقافية . وقد قال عنه تلميذه أحمد بن حنبل : « لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث » .

وأشهر أتباع الشافعي الذين نشروا مذهبه يوسف بن يحيى البويطي المصري ، وإسماعيل بن يحيى المزني ، والربيع بن سليمان المرادي .

٤ ـ المذهب الحنبلي :

وينسب إلى إمامه أحمد بن حنبل الشيباني تلميذ الإمام الشافعي . وقد ولد رحمه الله ببغداد سنة ١٦٤ هـ وبها توفي سنة ٢٤١ هـ .

كان ابن حنبل فقيهاً ورعاً مخلصاً يقوم بالعمل الصالح ويستره على الناس ، زاهداً لا يتحدث في أمور الدنيا ، رقيق الحال ولكنه عفيف النفس كريم اليد . قال الشافعي : « ما خلفت ببغداد أفقه ولا أورع ولا أعلم من أحمد » !.

تنقّل أحمد بن حنبل في البلاد وأكثر الرحلة في طلب الحديث حتى انفرد بمعرفة آثار الصحابة والتابعين ، مع الضبط والتحقيق والتمحيص .

كان الإمام أحمد يكره الفتوى في المسألة التي لم يرد فيها أثر ، فلم يكتب في الفقه ما كتبه في الحديث . حتى إن أشهر كتبه وأعظمها **المسند** لم يرتبه

على الأبواب الفقهية ، بل بحسب السند . ففيه ثمانية عشر مسنداً ، أولها مسند العشرة المبشرين بالجنة . وقد اشتمل كتابه هذا على أربعين ألف حديث مسند ، المكرر منها نحو عشرة آلاف ، ولابنه عبد الله فيها نحو عشرة آلاف .

والإمام أحمد بن حنبل عرف بالحديث أكثر مما عرف بالفقه . ولم يذكر له أشد أتباعه إعجاباً به كتاباً في الفقه ، وإنما عزوا إليه رسائل في بعض المسائل والفروع .

والأصول التي يعتمد عليها في فقهه هي : **الكتاب** ، **والسنَّة** ، **وفتوى الصحابة** ، **والاستصلاح** (أو الاستحسان ، وهو بناء الأحكام الفقهية على مقتضى المصالح المرسلة) ، **والقياس** ، وهو أضعف الأدلة عنده .

ولشدة عناية الإمام أحمد بالحديث صار مذهبه أكثر اصطباغاً به . وقيل إنه كان يحفظ ألف ألف حديث . وقد وهب نفسه لعقيدته وتمسكه بكتاب الله والسنَّة الشريفة . وناهض مذهب الاعتزال الذي ساد في أيامه رغم أن المأمون قد اعتنق هذا المذهب وأمر بمعاقبة كل شاهد أو قاض يخرج على الاعتزال بوصفه مذهب الدولة الرسمي . ولما رفض ابن حنبل هذا المذهب الذي أفرط في تطبيق النزعة العقلية على المسائل الدينية وتصدى لأتباعه قبض عليه وحبس وهو يصر على الامتناع . وظلّ يُضرب حتى فقد وعيه . لقد امتحن الإمام أحمد في زمن المأمون والمعتصم والواثق بالضرب والحبس . ولكنه ما وهن وما ضعفت عزيمته . وصار بذلك زعيم أهل السنَّة والجماعة . وزاد مهابة في قلوب الناس حتى إنه عندما توفي خرجت بغداد عن بكرة أبيها تودعه الوداع الأخير .

أسئلة

أجب عن الأسئلة التالية :

١ ــ تتبع تطور علوم القرآن منذ نشأتها حتى عصر النهضة الحديثة .

٢ ــ « أدت ظروف الدولة الإسلامية إلى تطور علم التفسير حتى يمكن تصنيف كتبه إلى ثلاثة أقسام » .
اشرح هذه العبارة موضحاً تطور علم التفسير وأقسامه الثلاثة مع ذكر أهم كتاب لكل قسم .

٣ ــ « يراد بالسنَّة كل ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير » . فسِّر ذلك .

٤ ــ علل لما يلي :
أ ــ ظهور علم القرآن في القرن الثاني الهجري .
ب ــ نشأة علم القراءات .
ج ــ نشأة علم التفسير .
د ــ أهمية الحديث في العقيدة الإسلامية .
هـ ــ نشأة المذاهب الفقهية الأربعة .

٥ ــ ماذا يعني علم مصطلح الحديث ؟ وما أقسامه ؟

٦ ــ ما المقصود بالفقه ؟ وما أحكامه الشرعية ؟

٧ ــ اكتب مذكرات موجزة فيما يلي :
أ ــ تدوين الحديث .
ب ــ علم رجال الحديث .
ج ــ علم الجرح والتعديل .

٨ ــ « تنحصر مصادر الفقه في أربعة منابع » .
اشرح بإيجاز هذه المصادر .

٩ ــ وضح أوجه التشابه والاختلاف بين المذاهب الفقهية الأربعة مع ذكر البلدان التي انتشر فيها كل مذهب .

الفصل الرابع

العلوم الكونية

لم يقف الإبداع الحضاري للمسلمين في العصور الوسطى عند حدّ العلوم الشرعية التي تمثل نقلة بعيدة المدى في مجالات التنظيم الاجتماعي والضمير الإنساني ، بل تعداه إلى سائر المعارف والعلوم الكونية التي كانت معروفة في ذلك الزمان .

عناية المسلمين بالعلوم الكونية ونبوغهم المبكر فيها :

بدأ اهتمام المسلمين في دراسة العلوم الطبيعية والرياضية والحياتية منذ وقت مبكر في تاريخ حضارتهم ، وتولى الخلفاء رعاية العلم وأهله . واتجهوا إلى العلوم القديمة فعملوا على إحيائها وترجمتها إلى العربية . واتسمت حركة الترجمة بحماس منقطع النظير . وعن طريق الترجمة نفذ المسلمون بسرعة مذهلة إلى ثقافات الأمم الأخرى وامتصوا ما فيها من الآداب والفنون والعلم ، وإن لم يمتصوا خير ما فيها دائماً . ولم يستمر عصر الامتصاص الثقافي هذا ، أو التأثر بالثقافات الأجنبية ، طويلاً . إذ لم يلبث أن تحول بعد فترة من الزمن إلى إفراز حضاري أصيل وغزير والمسلمون لا زالوا في أوائل نهضتهم . ولم يحدث أن عرف التاريخ نظيراً لهذا في غير أمة الإسلام . ويبدو أن علوم الكيمياء والفلك والطب قد جذبت إليها انتباه المسلمين ابتداء . غير أن الاهتمام لم يلبث أن انتشر إلى بقية العلوم الكونية الأخرى .

وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من ترجم له من العلوم القديمة ، وأول من اشتغل من المسلمين بالكيمياء والطب والفلك ، فأتقنها وألّف فيها رسائل .

وقد ترجمت إحدى رسائله في الكيمياء إلى اللاتينية بعنوان (D2 Compositione Alchemia) وكانت تدرّس في أوربا في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي . وقد استفاد من رسائله العلمية عدد من المشتغلين بالعلوم من بينهم أبو بكر الرازي ــ ٣١١هـ (٩٢٥م) أحد أعظم أطباء الإنسانية إطلاقاً .

غير أن هذه الحركة العلمية التي بدأها هذا الأمير الأموي ، وكان قد نزع نفسه من الخلافة واتجه للعلم وخدمته ، كانت قصيرة الأجل . إذ انقطعت أخبار الترجمة بعد وفاته وكأنما كان لها أن تنتظر زهاء ستين عاماً ، حتى عهد أبي جعفر المنصور لتستأنف مسيرتها بقوة وعزم شديدين وهي تمضي قدماً نحو الترقي والابتكار .

لم يكن أبو جعفر المنصور أول من عني من خلفاء بني العباس بالعلم والترجمة فحسب ، بل كان من عداد العلماء والأعلام في الفقه والأدب والحكمة . ولاهتمامه العظيم بالفلك أمر أن تترجم له كتب النجوم . فترجم **أبو يحيى البطريق** كتاب **الأربع مقالات في صناعة أحكام النجوم** لبطليموس الذي كان وضعه ليكون ملحقاً لكتابه المعروف **المجسطي** في علم الفلك . ثم ترجمت كتب أخرى في هذا العلم بعد ذلك .

وهكذا بدأ المترجمون من سريان وفرس وهنود وغيرهم يتقاطرون على مدينة المنصور وكل منهم يطمع في أن ينقل إلى العربية كتاباً في علم من العلوم ينال به رضا الخليفة .

وهكذا كان العلماء المسلمون منذ فجر حضارتهم لا يكتفون بمجرد الترجمة والنقل بل يعملون على تهذيب ما يقع تحت أيديهم من كتب الأمم الأخرى وعلومها ثم تطويع ذلك لأوضاعهم الحضارية والاستفادة منه عملياً .
كما يعود اهتمام المسلمين بعلم الفلك في تاريخ مبكر من حضارتهم إلى صلة الحسابات الفلكية ببعض أحكام الشريعة لتحديد أوقات الصلاة ، وتحديد اتجاه القبلة في سائر أرجاء البلاد الإسلامية ، وغير ذلك .

ثم إن اهتمام المسلمين بالفلك دفعهم إلى دراسة الهندسة والرياضيات عموماً . فترجمت كتب إقليدس في الهندسة وغيره من قدامى علماء الرياضيات الإغريق إلى العربية .

ونقل جورجيس طبيب المنصور الخاص ورئيس مدرسة جنديسابور الطبية في فارس من قبل عدداً من الكتب الطبية من الإغريقية إلى العربية .

وهكذا بدأ المنصور حركة ثقافية قدر لها أن تنمو وتزدهر وتتسع بعد ذلك بدرجة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً من قبل .

وفي عهد الرشيد ـ وكان من أشهر رعاة العلم في الإسلام ـ ترجمت كتب كثيرة في الطب والفلك من اليونانية (الإغريقية) والهندية والفارسية إلى العربية . ومن أعظم ما ترجم في هذا العصر الذهبي للحضارة الإسلامية كتاب **المجسطي** لبطليموس . وقد دارت حول هذا الكتاب بحوث عدد من العلماء المسلمين في الفلك . فتناولوه بالشرح والنقد والتنقيح . إذ استطاعوا بشكل عام أن يصححوا كثيراً من أرصاد الإغريق .

وفي عصر المأمون أراد أن يتحقق من قياس جرم الأرض ، ولم يعتمد في ذلك على القياسين اللذين أجراهما كل من ايراتوستين وبطليموس في مصر . فأمر المأمون سند بن علي وخالد بن عبد الملك أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح الأرض . وأمر عيسى بن علي الاسطرلابي وعلي بن البحتري بمثل ذلك . فسار كل فريق في ناحية ، وقاس كل منهما درجة . ثم ورد الكتابان إلى المأمون من الناحيتين في وقت واحد بقياسين متفقين .

فقد ألّف محمد بن موسى الخوارزمي **كتاب الجبر والمقابلة** نزولاً على طلب الخليفة المأمون والذي لا شك في أنه كان على دراية بالمسائل الرياضية العويصة . والخوارزمي أول من استعمل كلمة جبر التي دخلت بنطقها العربي إلى اللغات الأوربية فنطقوها Algebra . وينحصر فضل الخوارزمي في أنه استطاع أن يوفق بين حساب الهنود وهندسة الإغريق فنشأ علم الجبر الذي بناه على الفكرة الهندسية والفكرة العددية للكميات .

وهكذا لم يكد يمضي قرنان على انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية حتى كان المسلمون قد بلغوا مبلغ الأصالة والإبداع والابتكار في ميادين علمية مختلفة ، وأصبحوا بحق حماة العلم في العالم ومريديه .

منهج المسلمين في البحث العلمي :

لقد كان لأسلوب الجرح والتعديل الذي اتبعه علماء الحديث في تنقية الحديث وتمييز صحيحه من موضوعه أثر كبير في توجيه أساليب العلماء عموماً .

ومن ينظر فيما كتبه العلماء المسلمون في شتى الميادين لابد من أن يجلّ دعوتهم إلى جعل البرهان دليلاً وشاهداً . فالدعوة إلى الإنصاف وإلى الحق والصدق والمعرفة كانت تدخل في مقدمات كتب المسلمين .

فقد قال **الحسن بن الهيثم** عالم البصريات المعروف في مقدمة كتابه **المناظر** بأن غرضه في جميع ما يستقريه ويتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، وأنه يتحرى في جميع ما يميزه وينتقده « طلب الحق لا الميل مع الآراء حتى يظفر بالحقيقة ويصل إلى اليقين .

غير أن دعوة العلماء المسلمين إلى الإخلاص للحق والحقيقة قد نأت ببعضهم عن جادة الصواب حين غالوا في استعمال العقل وعدُّوه المقياس الوحيد الذي به وحده يقاس صدق الحقائق . ومعلوم فإن طاقة العقل ــ رغم سموها وانطلاقها ــ محدودة بما يعقل وبالزمان والمكان ، بالبدء والنهاية ومحكومة بالفناء .

لذلك كان **إغراق بعض المفكرين المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا والكندي في الفلسفة** وإطلاق العنان لسلطان العقل إطلاقاً مطلقاً قد أنتج بحوثاً سقيمة حين تحدثوا عن الخالق جلّ شأنه وعن خالق العالم وعن النبوة وجعلوا سلطان العقل يسمو ويهيمن على سلطان الروح . وهم في جميع ما ذهبوا إليه كانوا يطبقون مفاهيم ومصطلحات إغريقية الأصل وثنية المنشأ فاسدة

المحتوى على عقيدة الإسلام الخالصة . وهكذا أيضاً كان **انحراف إخوان الصفا** (في القرن الرابع الهجري) ومن قبلهم المعتزلة (في القرن الثاني الهجري) .

ومهما يكن من أمر ، فإن مما يميز أساليب العلماء المسلمين في البحث وبخاصة في ميادين العلوم الطبيعية والرياضية والحياتية هو اعتمادهم الأسلوب التجريبي الذي يقوم على المشاهدة والملاحظة وفحص الفروض عملياً للتثبت من مدى صحتها . وقد أخذ العلماء المسلمون به فتولد عن ذلك الطريقة المعملية أو المنهج التجريبي العلمي . وعن هذه الطريقة التي انتقلت إلى أوربا في أعقاب الحروب الصليبية قامت كل الكشوف العلمية الحديثة .

فلقد دعا جابر بن حيان شيخ علماء الكيمياء المسلمين إلى الاهتمام بالتجربة وحث على إجرائها مع دقة الملاحظة وترك العجلة وقال : (إن واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة وإن المعرفة لا تحصل إلا بها) . وطلب من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية ألا يحاولوا عمل شيء مستحيل أو عديم النفع ، وعليهم أن يعرفوا السبب في إجراء العملية وأن يفهموا التعليمات جيداً (لأن لكل صنعة أساليبها الفنية) ، على حد قوله . وطالبهم بالصبر والمثابرة والتأني في استنباط النتائج .

أما العناصر الإسلامية في طريقة البحث العلمي الحديث فهي الاستقراء والقياس والاعتماد والمشاهدة أو التجربة والتمثيل .

ولقد أدرك الحسن بن الهيثم الطريقة المثلى وقال بالأخذ بالاستقراء والقياس والتمثيل وضرورة الاعتماد على المواقع الموجودة على المنوال المتبع في البحوث العلمية الحديثة .

وبيَّن أن الأسلوب العلمي هو في الواقع مدرسة للخلق الرفيع: قواعده التجرد عن الهوى والإنصاف بين الآراء . فيكون قد سبق علماء هذا العصر في كونه لمس المعاني وراء البحث العلمي الحديث. وكان يرى الطريق المؤدي إلى الحق والحقيقة « ما يثلج الصدر » ، على حد تعبيره ، وهذا ما يراه باحثو هذا العصر من رواد الحقيقة

العاملين على إظهار الحق . فإن وصلوا إلى ذاك فهذا غاية ما يبغون ويؤملون . وابن الهيثم في طريقته العلمية التي اتبعها في بحوثه وكشوفه الضوئية قد سبق فرنسيس بيكون (١٥٦١ ــ ١٦٢٦ م) البريطاني في طريقته الاستقرائية . وفوق ذلك سما عليه وكان أوسع منه أفقاً وأعمق تفكيراً .

مآثر المسلمين في العلوم الكونية :

أولاً ــ في العلوم الرياضية والفلكية :

نبغ المسلمون في جميع فروع الرياضيات والفلك وكانوا رياضيين وفلكيين من الطراز الأول . أخضعوا علوم الإغريق لتصحيحاتهم ثم أضافوا إليهما إضافات كثيرة . وزاوجوا بين علوم الهنود والإغريق فأنتجوا مباحث جديدة . وفتحوا آفاقاً جديدة في الفلك بقياساتهم وأرصادهم ونظرياتهم .

وفيما يلي خلاصة لأبرز مآثر المسلمين في العلوم الرياضية والفلكية :

أ ــ في الرياضيات :

١ ــ تهذيب **نظام الترقيم** المنقول عن الهنود وتكوين سلسلتين منه ، عرفت إحداهما **بالأرقام الهندية** وهي المستعملة في الأقطار الإسلامية والعربية وفيها استعملت النقطة **لتدل على الصفر** . وعرفت الأخرى **بالأرقام الغبارية** وفيها استعملت الدائرة لتدل على الصفر . والأرقام الغبارية هذه انتشرت في المغرب والأندلس ومنها دخلت إلى أوربا ، ويسميها الغربيون الأرقام العربية (Arabic numerals) .

٢ ــ ابتكار طريقة الإحصاء العشري واستعمال الصفر لنفس الغاية التي نستعملها الآن . وحل هذا النظام في العد العشري محل النظام اللاتيني الذي كان يشتمل على عدد من الأرقام بقدر حروف الهجاء . والعالم الرياضي المسلم الذي ابتكر استعمال الكسر

العشري **هو غياث الدين جشميد الكاشي** .

٣ ـ حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية .

٤ ـ تأسيس علم الجبر الذي ابتكره الخوارزمي .

٥ ـ نقل كتاب **الأصول** في الهندسة لإقليدس إلى العربية وتأليف كتاب آخر على نسقه .

٦ ـ قياس السطوح الكروية والمستوية وقد برع في هذا أولاد موسى بن شاكر الثلاثة محمد وأحمد والحسن في عصر المأمون .

٧ ـ استخدام الجيوب بدل الأوتار وحل بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية والتمهيد (وبالذات ثابت بن قرة الحراني الذي يعتبر بحق أعظم المهندسين الرياضيين المسلمين) لعلم التفاضل والتكامل . بل إن ثابتاً هذا كان من بين الذين اشتغلوا بالهندسة التحليلية وأجادوا فيها .

٨ ـ فصل المثلثات عن الفلك وجعله علماً مستقلاً . ولولا ذلك لما كان بالمستطاع تحقيق العديد من الاختراعات والاكتشافات .

ب ـ في الفلك :

١ ـ قياس زاوية الكسوف والخسوف .

٢ ـ تقدير حجم الأرض .

٣ ـ دراسة ظاهرة الاعتدالين والانقلابين .

٤ ـ تطوير أدوات الرصد لدراسة الأجرام السماوية .

٥ ـ تصحيح طول السنة الشمسية . حددها البتاني بـ ٣٦٥ يوماً و ٥ ساعات و ٤٦ دقيقة و ٣٢ ثانية .

(وكان بطليموس وأبرخس قد حسباها ٣٦٥ يوماً و ٥ ساعات و ٥٥ دقيقة و ١٢ ثانية) .

٦ ـ اختراع الخطار (البندول) . وهو من اختراع كمال الدين بن يونس المصري .

٧ ـ إثبات كروية الأرض . وقد دلل على ذلك أبو الريحان البيروني (الذي وصف بأنه ألمع علماء زمانه في الرياضيات) عن طريق جذب جميع الأجسام نحو مركز الأرض .

٨ ـ عمل الأزياج (الجداول الفلكية) والاسطرلابات .

ثانياً ـ في العلوم الطبيعية :

أ ـ في الكيمياء :

١ ـ اختراع الأنبيق .

٢ ـ التفريق بين الأحماض والقلويات واكتشاف العلاقة بينهما .

٣ ـ أول من أعطى الكيمياء هذا الاسم .

٤ ـ تطبيق الكيمياء في مجال الطب .

٥ ـ صنع الماء الملكي لإذابة الذهب .

٦ ـ ابتكار طرق محسنة للتبخر والترشيح والتصعيد والانصهار والتقطير والتبلور (جابر بن حيان) .

٧ ـ تركيب نوع من الصبغة اللامعة من المرقشيتا المذهب ليحل محل الصبغة المصنوعة من الذهب الخالص والمرتفعة الثمن (أبو بكر الرازي) .

٨ ـ تأسيس علم الكيمياء على الأساليب العلمية الحديثة (أبو بكر الرازي) .

ب ـ في الفيزياء :

١ ـ دراسة البصريات والصوت والضوء .

٢ ـ استعمال المرايا المقعرة والمحدبة .

٣ ـ اكتشاف أن العين ترى الأشياء عن طريق الأشعة الساقطة عليها والمنعكسة إلى العين خلافاً لنظرية الإغريق القائلة إن العين ترسل أشعة إلى الأشياء فتراها بها .

٤ ـ اكتشاف نظرية الغرفة المظلمة التي يدخل الضوء فيها من ثقب صغير فتنعكس المناظر الداخلة على الحائط المقابل مقلوبة . وقد بنيت على هذه النظرية فكرة آلة التصوير فيما بعد .

ويلاحظ أن جميع هذه المآثر تعود لشيخ علماء البصريات في الإسلام أبو علي الحسن بن الهيثم (٣٢٤ ـ ٤٣١ هـ) .

ثالثاً ـ في الطب والأحياء :

أ ـ في الطب والجراحة :

١ ـ معرفة أعراض المرض .

٢ ـ التفريق من حيث التحليل التشخيصي بين مرضي الحصبة والجدري .

٣ ـ إدخال المركبات الكيماوية لكل من الحصبة والجدري .

٤ ـ معرفة الدورة المرضية لكل من الحصبة والجدري .

٥ ـ بناء المستشفيات والمصحات (دور النقاهة) وتزويدها بكل وسائل الراحة وبما يتفق والمبادئ الحديثة في الصحة العامة .

٦ ـ إجراء الفحص اليومي على المرضى بالمستشفيات وتدوين خلاصة الفحص على لوحة سرير المريض .

٧ ـ استخدام التخدير في العمليات الجراحية وطرق التعقيم .

٨ ـ ابتكار نظام الحميات أو الأغذية الخاصة بالمرضى .

٩ ـ وضع قواعد في طب العيون .

١٠ ـ صنع آلات جراحية مختلفة الأنواع كالمقاشط (لتنظيف الأسنان) والكلاليب (لخلع الأسنان) والحقن المعدنية (لاستخراج حصاة المثانة) والمشارط (لشق الجلد) .

١١ ـ اكتشاف الدورة الدموية (ابن النفيس) .

ويعود الفضل في تقدم علم الطب عند المسلمين إلى عدد من العلماء من أبرزهم **أبو بكر الرازي** صاحب كتاب **الحاوي** وابن سينا وكتابه **القانون في الطب** ، **وعلي بن عيسى** ومؤلفه القيم **التذكرة في طب العيون** ، **وأبو القاسم الزهراوي** وكتابه المشهور **التصريف لمن عجز عن التأليف** .

ب ـ في الصيدلة :

١ ـ أول من أسس علم الصيدلة على أساليب علمية منظمة .

٢ ـ أول من أدخل استعمال السكر في الصيدلة فحلت الأشربة الحلوة للمرضى محل الأشربة المرة .

٣ ـ استخدام العقاقير والأدوية وتطويرها .

جـ ـ في الحيوان والنبات :

١ ـ تصنيف النباتات وبيان أنواعها واستعمالاتها المختلفة وبخاصة في المجالات الطبية وصناعة العقاقير .

٢ ـ مراقبة سلوك الحيوانات وأفعالها وأنواع الحيوانات . وقد اشتهر في هذا بصفة خاصة الجاحظ في كتابه الحيوان .

أما الكتاب الذي يعد من أنفس الكتب النباتية فهو **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية** لابن البيطار أعظم نباتي ظهر في العصور الوسطى إطلاقاً .

أسئلة

أجب عن الأسئلة التالية :

١ ــ متى بدأ اهتمام المسلمين بالعلوم الكونية ؟ وكيف تطور هذا الاهتمام في العهد العباسي ؟

٢ ــ وضّح منهج المسلمين في البحث العلمي ثم اذكر اثنين من علماء المسلمين اللذين طبقا هذا المنهج في بحوثهما .

٣ ــ عدّد مآثر المسلمين في فروع العلوم الكونية .

الباب الثالث

معالم الحضارة الإسلامية

الفصل الأول

الصناعات الإسلامية وانتشارها

نشأت الصناعات بصورة بسيطة ثم تطورت تدريجياً بما يتفق وحاجات الإنسان وإمكاناته . وبمرور الزمن استفادت المجتمعات من الخبرات السابقة في تطوير صناعاتها . ولقد تركت حضارات منطقة الشرق الأدنى القديم تراثاً مادياً وعلمياً رائعاً ورثته الدولتان البيزنطية والفارسية ثم آل هذا التراث الحضاري الضخم إلى الدول الإسلامية ، بالإضافة إلى ما خلفته الحضارتان الصينية والهندية نتيجة امتداد الفتوحات الإسلامية إلى حدود الصين شرقاً واحتواء الدولة الإسلامية لحضارات هذه الشعوب التي ضمتها إليها . واستطاع العرب ليس فقط الاستفادة من صناعات وفنون الأمم الأخرى وتطويرها بحيث أصبحت تحمل طابعاً إسلامياً مميزاً بل تمكنوا أيضاً من ابتكار صناعات وفنون جديدة ما زالت من مفاخر الأمة الإسلامية .

وفيما يلي استعراض موجز لنشأة أهم هذه الصناعات والفنون وتطورها وانتشارها داخل الدولة الإسلامية وخارجها .

١ ـ صناعة الورق :

كان الناس قبل ظهور صناعة الورق يستعملون للكتابة : الجلد أو وَرق البردي أو ألواح الطين . وقد عرف الصينيون صناعة الورق قبل غيرهم من الأمم كما عمل المسلمون على تطويرها ونشرها .

فلقد بدأت صناعة الورق عند الصينيين حوالي عام ١٠٥ م . وكان الورق يصنع آنذاك من شرانق الحرير . وكانت تلك الصناعة تكلف نفقات باهظة . كما أن الكميات المصنوعة منه قليلة جداً . بل إن ما صنعوه من أوراق التوت

والحشائش والغاب الهندي كان رديء النوع وسريع التلف .

ومن الصين انتقلت هذه الصناعة إلى سمرقند في بلاد ما وراء النهر . ولما فتح المسلمون هذه البلاد عام ٩٤هـ (٧١٢م) ، تعلموا تلك الصناعة ثم لم يلبثوا أن أدخلوا عليها تحسينات جوهرية . فاستخرجوا الورق من الكتان والنباتات ذات الألياف كالقنب وغيره ، كما استخرجوه من الخرق القطنية التي تحتاج صناعته منها إلى مهارة يدوية وحرفية عالية .

ومن سمرقند التي امتازت بورقها (كاغد سمرقند) ، نقل المسلمون صناعة الورق إلى بغداد . إذ تمكن الفضل بن يحيى البرمكي والي الخليفة هارون الرشيد على خراسان من تأسيس أول مصنع للورق في مدينة بغداد عام ١٧٨هـ (٧٩٤م)

ومن بغداد نقل المسلمون هذه الصناعة إلى بلاد الشام حيث انتشرت مصانع الورق في دمشق وطبريا وطرابلس الشام وغيرها . كما نقلوها إلى مكة المكرمة .

ومن الشام نقل المسلمون صناعة الورق إلى مصر وشمال أفريقيا فالأندلس حيث قامت مصانع الورق في مدن بلنسية وشاطبة وطليطلة . ومن الأندلس انتقلت صناعة الورق إلى فرنسا ثم إلى إنجلترا .

ومن الشمال الأفريقي كذلك نقل المسلمون صناعة الورق إلى صقلية ثم إلى إيطاليا حيث تأسست مصانعه في بادوا وفلورنسا وبولونيا وميلانو والبندقية . ومن إيطاليا انتقلت صناعة الورق إلى ألمانيا ثم انتقلت إلى هولنده .

٢ ـ صناعة الزجاج والبلّور :

زاولت الأمم الشرقية القديمة صناعة الزجاج منذ أيام الفينيقيين الذين يعزى إليهم تلك الصناعة . وكان لمصر وسورية شهرة قديمة في صناعة الزجاج واحتفظ هذان القطران بتفوقهما في هذه الصناعة في مختلف العصور الإسلامية

نماذج مِن صناعة الزجاج البلوري في العصر الفاطمي



إبريق مصنوع في القرن العاشر الميلادي



إناء من البللور الصخري القرن ٥هـ/
حاليا بمتحف فكتوريا والبرت / لندن



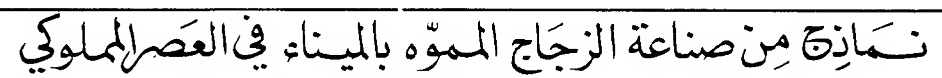
إناء من الزجاج مزخرف برسوم من
البريق المعدني والمينا ٥هـ/١١م
بالمتحف البريطاني / لندن

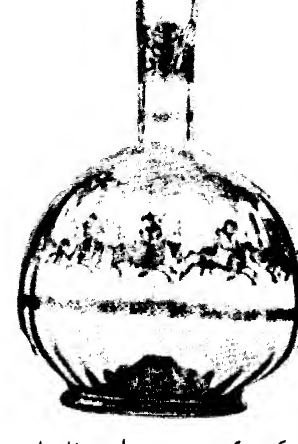


لوحة من الجص المشغول بالزجاج - القرن ١٥م

إناء من الزجاج السميك - صناعة مصر القرن ٦هـ/
حاليا بمتحف امستردام / هولندا

شكل (٢)





قنينة من الزجاج المموه بالميناء
صناعة حلب - القرن ٧ هـ/١٣م
حاليا بمتحف الدولة / برلين



قنينة زجاجية - صنعت بدمشق لسلطان اليمن
حاليا بمتحف فرير/ واشنطون



مشكاة من الزجاج المموه بالميناء
القرن ٨ هـ / ١٤م
حاليا بالمتحف الإسلامي بالقاهرة



مشكاة من الزجاج المطلي بالميناء - القرن ١٤م

شكل (٣)

وفي العصر الفاطمي ازدهرت صناعة الزجاج والبلّور الصخري وبلغت درجة عظيمة من الرقي . وكانت مصر في ذلك العصر تصدر الزجاج إلى البلاد الشرقية والغربية .

وفي العصر المملوكي وبخاصة عصر السلطان الظاهر بيبرس كانت دمشق وحلب وبغداد من أهم مراكز إنتاج الأواني الزجاجية ، ومن أجمل ما أنتجه العصر المملوكي القناديل الزجاجية التي كانت توضع في المساجد وكانت تعرف باسم المشكاوات .

ولم تقتصر هذه الصناعة على المشرق الإسلامي بل انتقلت إلى الشمال الأفريقي والأندلس ثم إلى أوربا . وكان للمسلمين أثر كبير في تفوق مدينة البندقية بهذه الصناعة .

٣ ـ تكرير السكر :

كان السكر ، الذي يعرف باسمه العربي في عدد من اللغات الأوربية[1] ، من مآثر المسلمين الحضارية ، ومع أن صناعته ليست اختراعاً عربياً إلا أن المسلمين أسهموا إسهاماً كبيراً في تطويرها ونشرها في بلدان العالم .

لقد عرف السكر في بلاد الهند منذ القديم ، وكان يطلق عليه اسم **الملح الهندي** ، كما عرفه اليونانيون في عصر الإسكندر المقدوني عند غزوهم للهند ، وعرفوا القصب الذي ينتجه . واعتبروا السكر نوعاً من العسل . إلا أن اليونانيين لم يدخلوه إلى منطقة حوض البحر المتوسط ولم يهتموا بنقله . وحوالي عام ٥٠٠ م نجح الفرس في زراعة قصب السكر في سهول العراق الجنوبية وأنشأوا معامل لتكريره في جنديسابور في بلاد فارس . كما عرفه الروم الذين هزموا الفرس عام ٦٢٧ م . وكان السكر من بين ما غنموه منهم .

ولما فتح المسلمون العراق وفارس والهند ، عملوا على نشر زراعة قصب

---

(١) بالإنكليزية (Sugar) وبالإفرنسية (Sucre) وبالألمانية (Zucker) وبالإسبانية (Azucar) وبالإيطالية (Zucchero) وبالسويدية (Soker) .

السكر في جميع أنحاء الدولة الإسلامية التي تصلح ظروفها لإنباته ، وأسسوا معامل لتكريره في سورية ومصر وقبرص وجزر بحر قزوين وشمال إفريقية وصقلية والأندلس . وكان ذلك خلال القرن الثامن الميلادي . وكانت هذه المعامل تنتج كميات كبيرة من السكر النقي بحيث تغطي ولمدة طويلة استهلاك العالم الإسلامي والقارة الأوربية .

هذا وقد أصبحت مصر أكبر الأقطار الإسلامية في إنتاج السكر . وقد بدأت زراعته هناك في عام ٧٥٠م وأصبحت من أنجح الأعمال في جميع مدن الوجه القبلي .

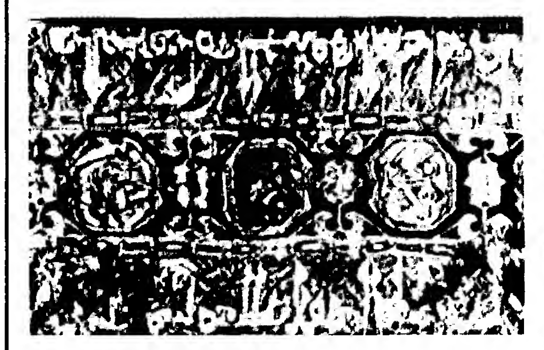
٤ ـ صناعة الأقمشة :

عني المسلمون بصناعة الملابس من المنسوجات الفاخرة منذ العهد الأموي بتأثير الرفاهية وزوال عهد الزهد والبساطة في أيام الخلفاء الراشدين . وبزيادة الترف في العهد العباسي ، نشطت دور النسيج في أنحاء الدولة العباسية لإنتاج أفخر المنسوجات للخلفاء . وقد أنشئت لهذه الغاية مصانع النسيج الحكومية في مصر والتي عرفت باسم دور الطراز . وأمدت الحكومة الطولونية الحكام في بغداد وسائر البلاد الإسلامية بالمنسوجات الكتانية والحريرية . وكان اسم الخليفة وألقابه تطرز على شريط النسيج بالإضافة إلى أشرطة تزخرف برسوم نباتية أو آدمية أو حيوانية . ولقد عثر على عدة قطع من صنع مصر مطرز عليها أسماء الخلفاء هارون الرشيد والأمين والمعتضد والمقتدر وبعضها يحمل إلى جانب الخليفة العباسي اسم الحاكم الطولوني . هذا ومع أن مختلف أنواع الأقمشة كانت منتشرة في أرجاء الدولة الإسلامية ، إلا أن بعض الأقطار تميز بنوع أو أكثر منها . فبلاد مصر مثلاً ، اشتهرت بصناعة المنسوجات الكتانية . وكان المركزان الرئيسان لصناعة هذه المنسوجات في العهد العباسي هما الفيوم وبحيرة تنيس . هذا بالإضافة إلى مدن مصرية أخرى اشتهرت بهذه المنسوجات مثل دمياط وشطا وديبق . وإلى المدينة الأخيرة ينسب القماش المعروف بالديبقي ، وهو قماش من الكتان ثقيل الوزن جيد النسيج . وربما بلغ ثمن الثوب المصنوع

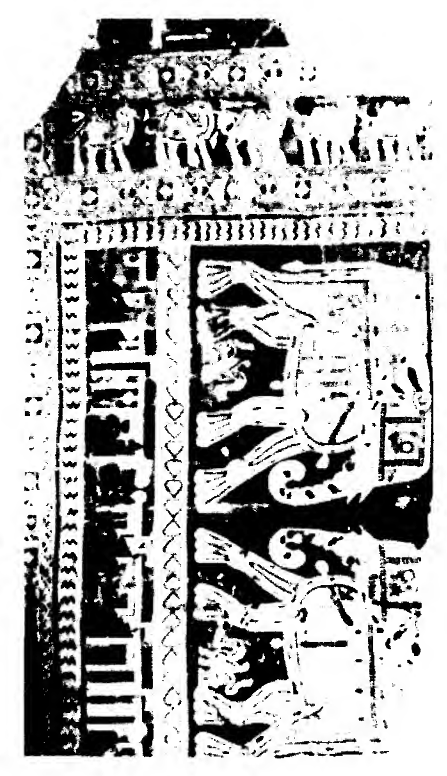
مِن نماذج صناعة المنسوجات في العهود الإسلاميَّة



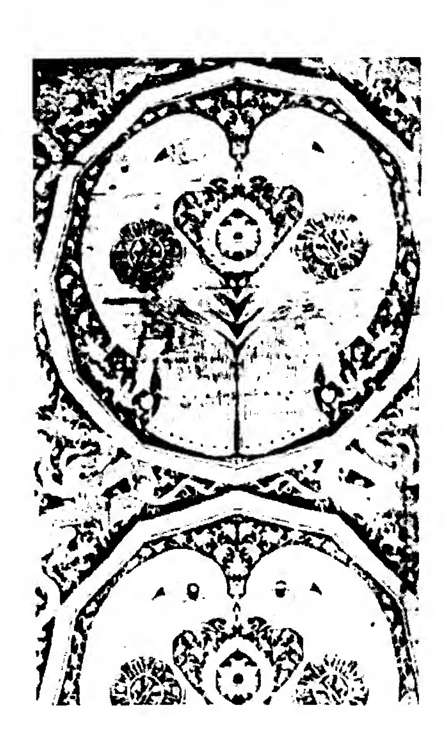
قطعة نسيج من الكتان المزخرف بأشرطة حريرية
القرن ٦ هـ/١٣م العصر الفاطمي



قطعة نسيج من الحرير تخص هشام الثاني
العصر الأموي بأسبانيا



قطعة نسيج تخص القائد أبومنصور (خراسان)
القرن ٤هـ/١٠م - متحف اللوفر



قطعة من الديباج عليها اسم الناصر
بالخيوط الذهبية القرن ٨هـ/١٤م
العصر المملوكي

شكل (٤)

من هذا القماش ما بين مائة إلى مائتـي دينار . وكـان الديبقي يستعمـل كـذلك في رسم الخرائط بالأصباغ المشمعة .

أما المنسوجات القطنية فقد كان مشرق الدولة الإسلامية مركزاً لصـناعتها ، كما كان مغرب تلك الدولة مركزاً للكتان . فقد حمل القطن من الهند إلى بلاد ما وراء النهر وشمال فارس قبل أن ينقل شرقاً أو غـرباً . ولـم يـكن القــطن معروفاً في بلاد الصين خلال القرن الثالث عشر الميلادي .

لقد بدأت صناعة القطن في كابل التي كانت إبان القـرن الـرابع الهجـري تصدر الثياب القطنية المشهورة بجودتها وكانت تنقل إلى الصين وخراسان . ومن كابل انتشرت صناعة المنسوجات إلى البلدان المجاورة . ونشر الحمدانيون زراعـة القطن في أرض الجزيرة ثم انتقلت زراعته إلى الشمال الأفريقي والأندلس .

أما **المنسوجات الحريرية** فقد ازدهرت في إيـران إبـان العصر العبـاسي وتقدمت تماماً زمن البويهيين ، وقد اشتهرت إيران بأفخر المنسـوجات الحـريرية ومن بين المنسوجات الحريرية تلك القطع الموزعة على كثير من متاحف العالم . وقد احتوت تلك القطع على زخارف نباتية وحيوانية إلى جانب الكتابة .

ولقد اشتهرت سمرقند كمركز رئيسي لصناعة الحـرير وينسـب كثيـر مــن الباحثين بعض قطع المنسوجات الحريرية الموجـودة اليـوم في بعض المتـاحف إلى سمرقند . كما انتشرت صناعة الحرير في بغداد . وقد وجـدت في كنيسـة ليـون بإسبانيا قطعة من الحرير من صناعة بغداد في القرن العاشر الميلادي . وامتـازت الكوفة بكوفياتها الحريرية

هذا وقد ازدهرت صناعة الحرير في الأندلس إبان العصر الأموي . وكانـت لهذه الصناعة مراكز كثيرة هناك مثل مرسية وإشبيلية . ولقـد وجـدت نمـاذج جميلة لمنسوجات حريرية من فترة خلفاء قرطبة ومـن بينهـا قــطعة حــرير في

مِن صِناعَة المنسُوجَات الإسْلاميّة



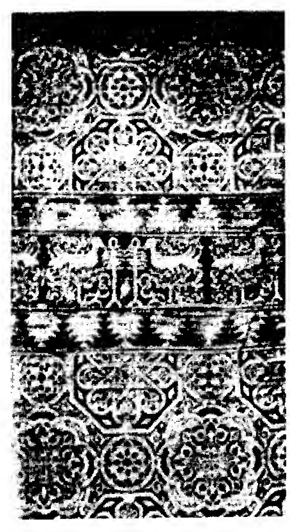
ديباج هندي مذهب - العصر المغولي



قطعة نسيج من حرير - صناعة بغداد - متحف ليون/فرنسا



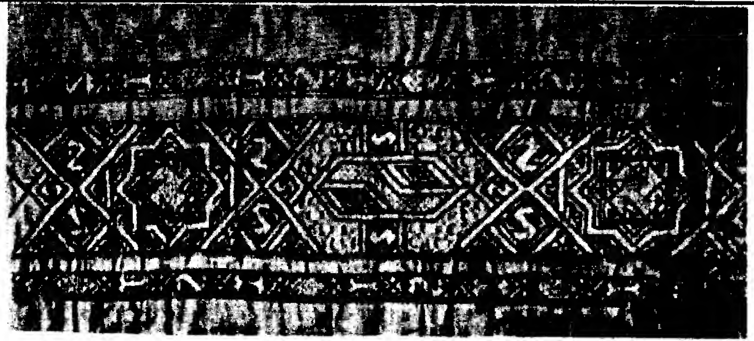
قطعة حرير - صنع الأندلس
١٢م



نسيج من الحرير الموشى - صنع غرناطة
٨هـ/١٤م

شكل (٥)

مِنْ صِناعَة المنسُوجَات الإسْلاميّة



قطعة وبر مطرزة من العصر المملوكي (متحف فكتوريا والبرت بلندن)



نسيج من الحرير الإيراني المتعدد الألوان القرن ١٠هـ/١٦م



قطعة قماش المعروفة بقماش الطراز (متحف الحرف ببرلين)

شكل (٦)

أكاديمية التاريخ بمدريد تخص هشام الثاني .

واشتهرت دمشق بالأنواع الفاخرة من المنسوجات الحريرية المعروفة باسم الدمقس (Damask) .

ومن المنسوجات الإسلامية أيضاً **المهير** (Mohair) المصنوع من شعر المعز ، والقماش **الشفاف** (Chiffon) الذي كان يصنع من الحرير أو القطن **والأطلس** (Atlas) وهو من الحرير ، **والتفتة** (Tafta) ، **والساتان** وهو أفخر أنواع المنسوجات الحريرية وكان من ملبوسات الأغنياء .

وفي اللوحات الخاصة بنماذج المنسوجات ما يوضح مدى براعة المسلمين وإتقانهم لهذه الصناعة (شكل ٤ ، ٥ ، ٦) .

٥ ـ صناعة الأصباغ :

عني المسلمون بهذه الصناعة عنايتهم بالصناعات الأخر لما للأصبغة من أهمية في كثير من المجالات . إذ كانوا يستخدمون الأصبغة في تلوين المنسوجات والسجاد والبسط . بالإضافة إلى الأواني الخزفية والزجاجية والقاشاني والفسيفساء والزخارف الجصية والكتابة والمصنوعات الجلدية وغيرها من الصناعات والفنون الجميلة .

وقد مكنهم تقدمهم في العلوم الكيماوية من استخدامها في صناعة الأصباغ الفلزية الأصل والتي لها ارتباط بتلك العلوم .

وهناك صبغ مأخوذة من مواد نباتية مثل النيلة أو مواد حيوانية كالقرمز وهناك صبغ أُخَر تؤخذ من قطران الفحم وهي ذات اللون الأسود . أما صباغ الملك فيحضر صناعياً من عدة مواد .

لقد استخدم الصينيون والفرس والهنود الأصباغ منذ أزمنة بعيدة . ولما جاء المسلمون إلى تلك البلاد أخذوا تلك الصناعات وطوروها إلى الأفضل واستعاضوا بها عن الذهب والفضة اللذين كانت تطلى بهما بعض الأواني النفيسة . كما استخدموها في أغراض تلوينية بحيث تؤدي وظيفة جمالية .

ولكثرة استخدام الأصبغة في الصناعة والفن الإسلامي أوجد المسلمون

معامل تحضيرها في عدد من البلدان الإسلامية .

٦ ـ صناعة السفن :

لم يُعْنَ العرب في صدر الإسلام ببناء السفن من أجل استخدامها في الأغراض الحربية وذلك لعدم تعودهم ركوب البحار ولعدم معرفتهم بأحوالها . وكان أول من ركب البحر ، غازياً في سبيل الله هو العلاء بن الحضرمي والي البحرين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . إذ غزا بلاد فارس بحراً دون استئذان . وقد فَقَدَ المسلمون في هذه الغزوة معظم سفنهم .

إلا أنه بعد أن فتح المسلمون بلاد الشام ، ألح معاوية على الخليفة بأن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً . فلم يأذن له لعدم خبرة المسلمين بَعْدُ بالقتال في البحر .

ولما ولي الخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أعاد معاوية الطلب في غزو الروم بحراً . فأذن له شريطة ألا يُكْرِهَ أحداً على ذلك . فكان الغزو الإسلامي لجزيرة قبرص وتبع ذلك غزوات متتالية نظمت على شكل شواتٍ وصوائف . وكانت معركة ذات الصواري البحرية التي انتصر فيها عبد الله بن أبي السرح والي مصر في عهد الخليفة عثمان بن عفان .

وقد عني معاوية بن أبي سفيان كثيراً ببناء السفن لاستخدامها في صدّ غارات البيزنطيين على البلاد الإسلامية ، وفي تنظيم الصوائف والشواتي لغزو ديارهم . فأنشأ داراً لصناعتها مستخدماً الأخشاب التي تكثر في بلاد الشام . وكانت أول دار أنشئت لهذا الغرض ، في جزيرة الروضة بمصر عام ٥٤ هـ . ولشدة عناية معاوية في بناء السفن ، بلغ عدد سفن الأسطول الإسلامي في عهده ١٧٠٠ سفينة . وعلى الرغم من أن صناعة السفن وقيادتها لم تكونا ابتكاراً إسلامياً ، إلا أن المسلمين أتقنوا الصناعة والقيادة معاً ، حتى أصبحوا بعد فترة وجيزة ، أساتذة العالم فيها . حتى إن كثيراً من المصطلحات العربية في القيادة البحرية قد وجدت طريقها إلى اللغات الأوربية مثل دار العتاد والحربية (الترسانة Atarsenal) والحبل (Cable) وأمير البحر (Admiral) .

ازداد اهتمام المسلمين ببناء السفن في **العهد الأموي** فكثرت دور صناعتها في موانئ البحر المتوسط مثل عكا والإسكندرية وغيرهما . كما بنوا **المنارات** ليهتدي بها ربان السفن .

وفي **العهد العباسي** والدول التي قامت خلاله ، زادت العناية بصناعة السفن . فقد جعل **الطولونيون** من جزيرة الروضة أحواضاً للسفن كما جعل الإخشيديون من الفسطاط داراً لصناعتها . وبنى الفاطميون أحواضاً لصناعة السفن في دمياط والإسكندرية لتزويد الموانىء بالسفن التي تحتاج إليها . وفي زمن الدولة الأيوبية استمر الاهتمام ببناء السفن في الازدياد وذلك لمحاربة الصليبيين .

وفي بلاد المغرب ، **اهتم المرابطون** في عهد يوسف بن تَاشَفين ببناء السفن وكذلك في عهد ابنه علي الذي كان له أسطول ضخم تمكن بواسطته من التغلُّب على أساطيل الفرنجة في بلنسية بالأندلس وجزر البليار . وكان لأمير البحر في عهده المسمى ابن ميمون شهرة بحرية رائعة انتشرت في سواحل الأندلس وإيطاليا وفرنسا . وفي **عهد الموحدين** استمرت العناية بإعداد الأسطول الذي برزت قوته القتالية في الحرب مع النورمانديين حكام صقلية بقيادة عبد الله بن ميمون الذي تمكن من إغراق أعداد كبيرة من سفن الأعداء . ولم يكتف الموحدون هؤلاء بالعناية في بناء السفن الحربية ، بل افتتحوا المدارس لتدريب العاملين في تلك السفن على الأساليب الحربية وعملوا بركة كبيرة بالقرب من مدينة مراكش صنعت فيها سفن وقوارب التدريب . وأما في **العهد الأموي بالأندلس** فقد اهتم الحكام المسلمون هناك ببناء السفن لا سيما عبد الرحمن الناصر الذي تمكن من بناء أسطول ضخم . وقد قال المستشرق (دوزي Dozy) بهذا الشأن إن عمال السفن ودور صناعتها لم يجدوا وقتاً للراحة . وكانت الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس أهم دور صناعة السفن .

هذا ولم يقتصر اهتمام المسلمين بصناعة السفن للأغراض الحربية ، بل كان لاهتمامهم بصناعتها في الأغراض التجارية أثر بالغ في انتشار الصناعات الإسلامية في كثير من أقطار العالم . وكانت دور صناعة السفن التجارية بمصر ــ لا سيما في دمياط إبان العهد الفاطمي ــ تنتج أعداداً كبيرة من تلك السفن . هذا وقد لعب ميناء عيذاب الواقع على البحر الأحمر دوراً كبيراً في ازدهار التجارة في ذلك البحر والبحر العربي كذلك . كما أصبحت موانئ البحر المتوسط الإسلامية مراكز تجارية ذات شهرة عالمية وأصبحت الأساطيل التجارية الإسلامية ترتاد الكثير من موانئ ذلك البحر وتنقل إليها الصناعات الإسلامية المتعددة .

وفي **العهد العثماني** زادت العناية ببناء السفن التي أخذت تصنع على نطاق واسع جداً وذلك لاستخدامها في الجهاد بمختلف البحار ضد أعداء الإسلام .

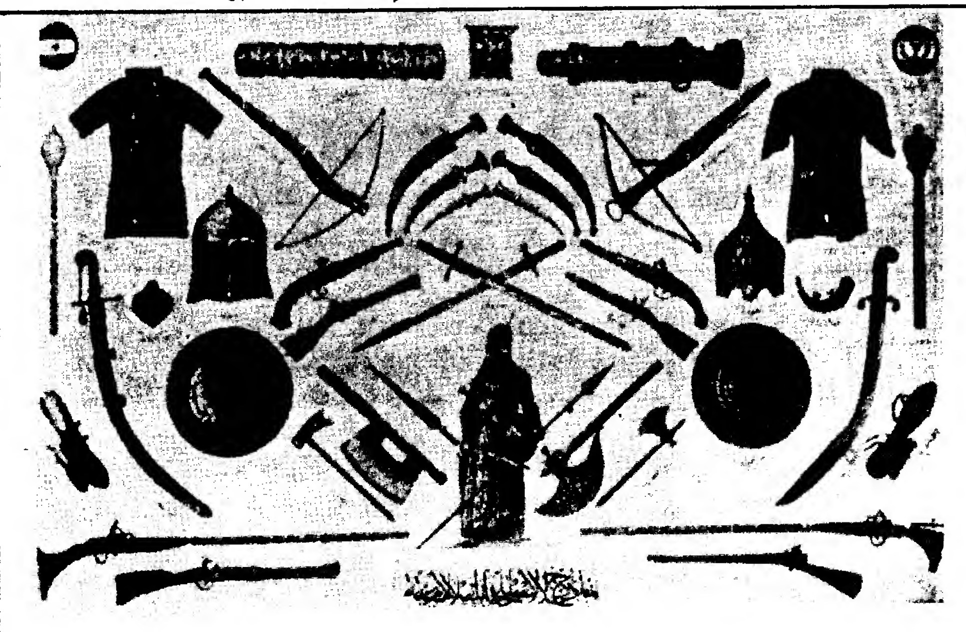
كما أن الأساطيل التجارية العثمانية كانت تنقل البضائع والسلع من بلاد الصين والهند وجزر جنوب شرقي آسيا إلى البلاد الإسلامية في شرقي البحر المتوسط عبر المحيط الهندي والبحر العربي والبحر الأحمر ، وكذلك كانت تنقلها من موانئ شرقي البحر المتوسط إلى مختلف موانئ أوربا . كل ذلك أعاد للمسلمين قوتهم الاقتصادية بعد أن عمل الصليبيون على نزعها من أيديهم .

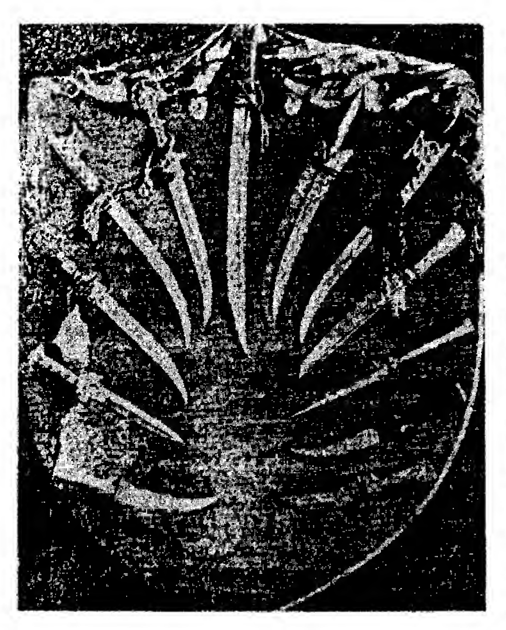
٧ ــ صناعة السلاح :

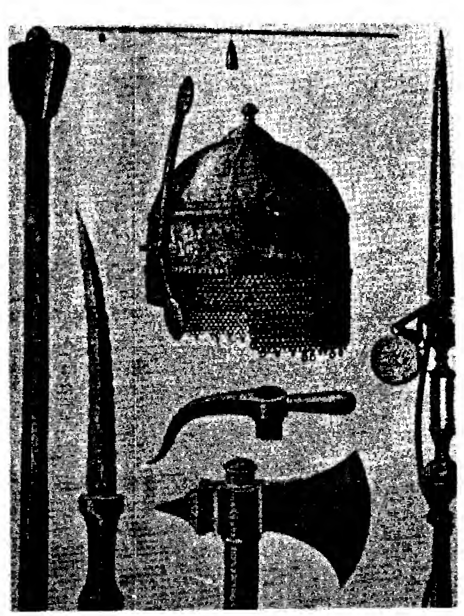
عني المسلمون بصناعة الأسلحة والتدريب على استعمالها في مختلف العصور الإسلامية . ومن بين تلك الأسلحة السيف والرمح والقوس والترس والدرع . أما آلات الحرب الأخَر والتي استخدمت في الحصار فهي : المنجنيق والدبابة والكبش .

أما السيف : فكان عند العرب أشرف الأسلحة وكانت السيوف تنسب

نماذج اسلحة إسلامية







شكل (٧)

إلى أماكن صناعتها . فهناك السيوف اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية والدمشقية .

وأما الرمح : فهو أكثر ما يكون استخداماً على الخيل . ولكن لا بد للفارس من استعماله بحذر خوفاً من انكساره . ولذا كان للعرب وصايا في طريقة استعماله عند ملاقاة الأعداء . ولا يزال اللعب بالرمح يستخدم حتى اليوم في الاستعراضات العسكرية من قبل فرق الخيالة (الفرسان) .

أما أسنَّة الرماح ، وهي غالباً ما تكون من الفولاذ ، فلها أشكال متعددة . فمنها المُشَعَّب والعريض والرفيع والمستوي والمموج ، وغير ذلك .

وأما القوس وذخيرته النشاب : فقد كان للعرب مهارة فائقة في استعماله لحدة أبصارهم بسبب سكناهم الصحراء الشاسعة الأرجاء ، ولأنهم أحوج إليها من سائر الأسلحة لاستخدامها في صيد الغزلان بالإضافة إلى الحروب .

ولما جاء الإسلام ، كانت مهارة العرب المسلمين في الرمي بالقوس والنشاب من الأسباب التي مكنتهم من الانتصار على الروم الذين لم يكونوا يحسنون الرماية . ولما للرماية من أهمية فقد قال صلى الله عليه وسلم : « ارْكَبُوا وارْمُوا فَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إليَّ مِنْ أن تَرْكَبُوا » ، وقال عليه الصلاة والسلام وهو قائم على المنبر : « أعدّوا ما استَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ . ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْي . ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْي . ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْي » .وكان الخلفاء والقواد يحثون رجالهم على إتقان الرماية كما يحرضونهم على العناية بخيولهم .

وقد تفنن المسلمون بالرمي حتى اصطنعوا من الأقواس آلات مركبة **كالمجراة** . وهي عبارة عن أنبوب من حديد أو خشب فيه شق يوضع فيه السهم ويقذف قذفاً شديداً كما تقذف الرصاصة من البندقية اليوم . كما صنعوا ضرباً من المجانيق توضع في الواحد عدة سهام وترمى عنها بالأقواس .

أما الترس : فهو على أصناف كثيرة كل صنف منها يصلح لشيء فمنها المسطح والمستطيل والمقبب والمقبب المنحني الأطراف . ولكل ترس فائدة فالمقبب المنحني الأطراف يتقي به صاحبه النشاب والحجارة والسيف . والمستطيل يتقي

به النشاب ، والمسطح يتقي به الرمح .

ولقد تفنن المسلمون في صنع الأتراس أو الترس ونقشوا عليها الآيات والحكم والأشعار . وتميزت أتراس كل بلد بشكل خاص . ومن هذه الأتراس المميزة : **الترس الدمشقي والترس العراقي والغرناطي .**

أما المادة المصنوع منها الترس فهي متنوعة فالبعض استعملوا الحديد في صناعتها ومنهم من جعلها من الخشب المكشوف أو المغطى بالجلد أو الجلود المتينة المدهونة بأنواع معينة من الطلاء . إلا أن المهم في الأمر أن تقي المحارب من ضربات العدو .

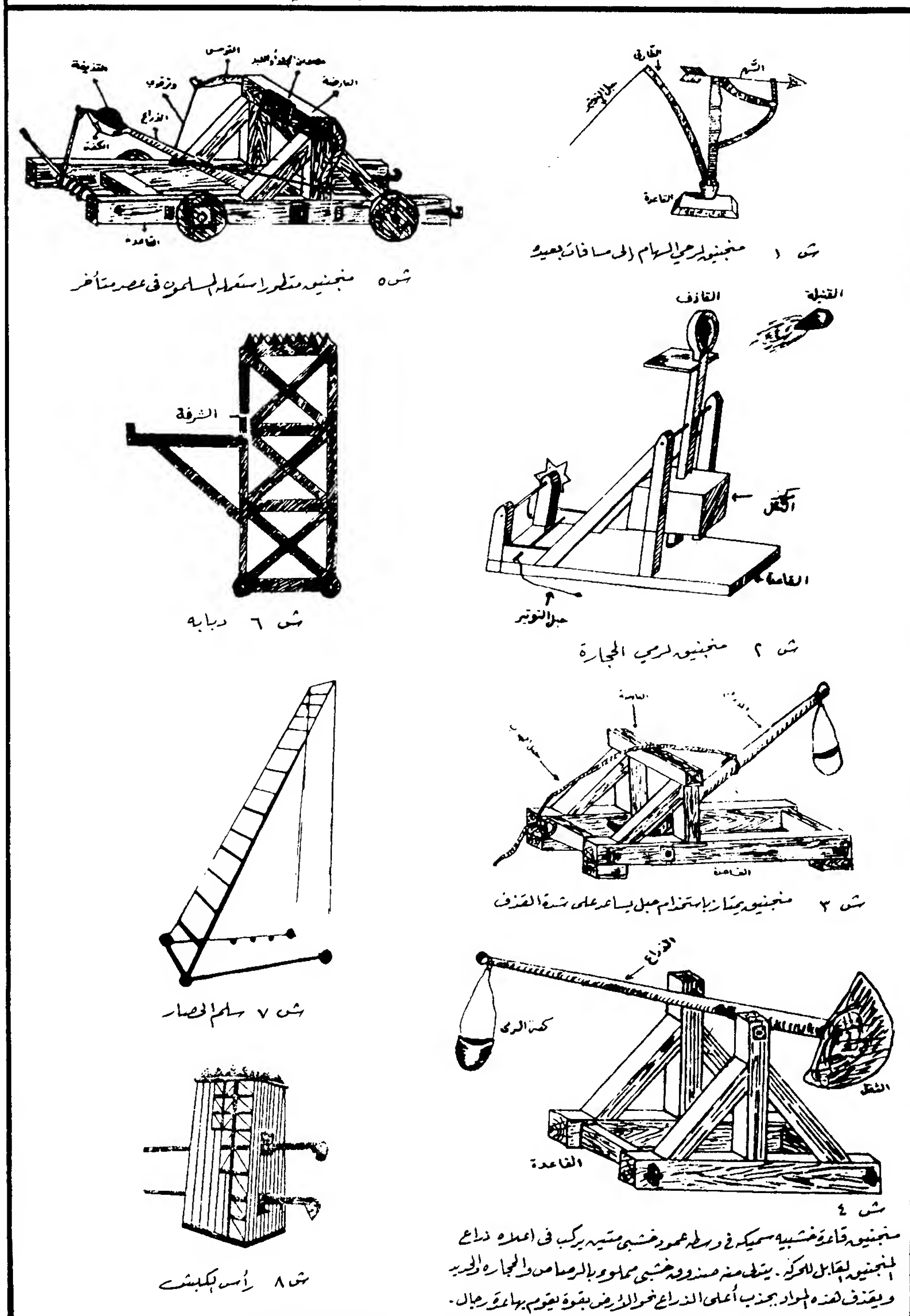
وأما الدروع : فكان فرسان العرب يستعملونها لوقاية الأجسام من ضربات العذو . وكانت الدروع تصنع من الحديد أو الفولاذ أو الجلد .

وقد حرص المسلمون على إتقان صناعة الدروع بحيث تقي مرتديها ضربات الأعداء .

كما عرف المسلمون من الأسلحة أيضاً الخناجر والفؤوس والطبر البَلْطات . وأما الآلات التي استخدمها المسلمون في فتح المدن والحصار فهي كثيرة ، منها : المنجنيق والدبابة والكبش .

فأما المنجنيق : فهو آلة قاذفة استخدمها المسلمون لأول مرة في حصار الطائف وقد أرشدهم إليها سلمان الفارسي ويقال إنه هو الذي صنعها . والمنجنيق أصناف كثيرة . فمنها الكبير والصغير ومنها ما يُشَدُّ بلوالب وأقواس أو ما يدار بالمقلاع .

وأما الدبابة : فهي آلة متحركة تصنع من الخشب السميك وتغلف باللباد أو الجلد المنقعة في الخل لعزلها عن النار . وتركب هذه الآلة على عجلة مستديرة لتسهيل حركتها . وكان المسلمون يستخدمونها لتسلق أسوار حصون الأعداء ومحاربتهم في داخل حصونهم . فهي بمثابة حصن متحرك (انظر الشكل (٨) اللوحة ٦) ، كما استخدموها في ثقب الأسوار ولذا جعلوا لها رأساً محدداً .



نماذج من آلات الحرب الإسلامية
القوس
العارضة
الذراع
الكفة
القاعدة
ش ٥ منجنيق متطور استعمله المسلمون فى عصر متأخر
السهم
القاعدة
ش ١ منجنيق لرمي السهام إلى مسافات بعيدة
القنبلة
القاذف
الشرفة
الثقل
القاعدة
حبل التوتير
ش ٦ دبابة
ش ٢ منجنيق لرمي الحجارة
القاعدة
ش ٣ منجنيق يمتاز باستخدام حبل يساعد على شدة القذف
ش ٧ سلم الحصار
الذراع
كفة الرمي
الثقل
القاعدة
ش ٤
منجنيق قاعدة خشبية سميكة فى وسطه عمود خشبى متين يركب فى أعلاه ذراع المنجنيق القابل للحركة. يتدلى منه صندوق خشبى مملوء بالرصاص والحجارة والحديد ويقذف هذه المواد بجذب أعلى الذراع نحو الأرض بقوة يقوم بها عدة رجال.
ش ٨ رأس الكبش

شكل (٨)

وأما الكبش : فهو كالدبابة لكن رأسه في مقدمته مثل رأس الكبش (انظر الشكل (٨) اللوحة ٨) . **متصل في داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجر على بكرة معلقة على رأس الدبابة لسهولة حركتها . يتحصن الرجال في داخل الكبش ، ويستخدمونه لهدم الأسوار . إذ يتعاونون من الأمام والخلف لهذا الغرض .**

هذا وقد استخدم المسلمون الدبابة والكبش في كثير من حروبهم لتسلق الأسوار وهدمها أو حرقها . وكانوا يزودون الجيش بعدة دبابات تتسع الواحدة منها لعدد من الرجال يحيطون بالسور . هذا وقد استخدم الخليفة المعتصم الدبابة في فتح عمورية إذ عمل منها ما يتسع لعشرة رجال .

ومن آلات الحرب الأخر التي استخدمها المسلمون لا سيما في العهد العثماني المدافع : التي هي أنابيب تطلق منها المقذوفات على النحو الذي تطلق به من المنجنيق . علماً بأنه بواسطة المنجنيق تقذف بواسطة حركات آلية كالمقاليع والأوتار ونحوها . وأما في المدافع فتطلق بواسطة البارود .

وقد أتقن العثمانيون استخدام المدافع واستعانوا بها على فتح القسطنطينية وفي كثير من الفتوحات الأخرى .

صناعة البارود :

ويتصل بمعدات القتال الإسلامية وآلات الحصار صناعة البارود . فقد نقل المسلمون من بلاد الصين المادة الأساسية التي تدخل في صناعة البارود وهي ملح البوتاسيوم . وبفضل التحسينات التي أدخلها المسلمون على ملح البوتاسيوم وتخليصه من شوائبه ، استطاعوا إنتاج البارود .

٨ ــ صناعة النفط:

أطلق المسلمون كلمة النفط، وهي فارسية الأصل ، على الكبريت المعدني المذاب . وقد تمكن المسلمون من استخراج أنواع متعددة من النفط أو المواد المشتعلة ، وذلك لاستخدامها في الأغراض العسكرية التالية :

١ ــ إطلاق السهام على الأعداء بعد تسخينها تسخيناً شديداً ثم طليها بالنفط وإشعالها .

٢ ــ صنع كتل مغطاة بالنفط تقذف بالنشاب على العدو بعد أن يحرق طرف تلك الكتلة .

٣ ــ وضع النفط داخل قشر البيض ثم رمي العدو بها بما يشبه القنابل اليدوية اليوم .

٤ ــ عمل كرات نفطية ثم إطلاقها على العدو بالمنجنيق .

٥ ــ إرسال قاذفات نفطية مشتعلة فوق سطح الماء وباتجاه السفن المعادية .

٦ ــ ولقد تفنن المسلمون في ابتكار ما يرهب العدو حتى إنهم توصلوا إلى وضع مواد نفطية ملتهبة على الخيول عند هجومها عبر الأعداء بعد طلائها وطلاء مواقع من جسم فارسها بمواد عازلة .

٩ ــ صناعة الساعات :

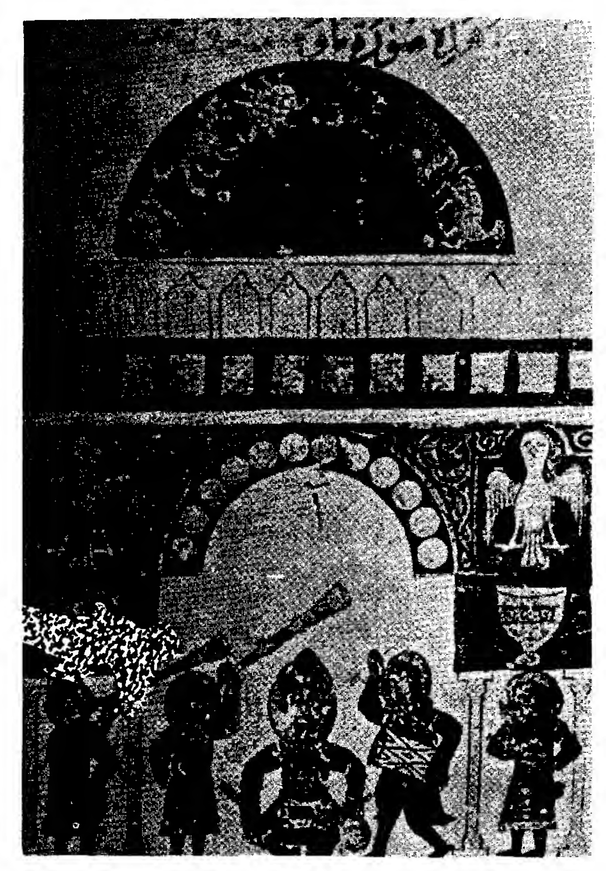
كان لساعات الشمس الدائرية التي اخترعها المسلمون في العصور الوسطى شهرة واسعة . واستطاع المسلمون بواسطة هذه الساعات التي كان يتوسط كلاً منها محور ظاهر ، من تحديد موقع الشمس خلال النهار ، وتحديد الوقت ، ووضع التقاويم الزمنية . **وكانت الساعة الشمسية** النقالة الأسطوانية الشكل ، أكثر اختراعات المسلمين أصالة وفناً في حقل صناعة الساعات .

وتفنن المسلمون في صناعة الساعات . فصنعوا أنواعاً مختلفة فمنها ما يسير على الماء والزئبق . ومنها ما يسير على الشمع المشتعل . ومنها أيضاً ما يعمل بواسطة الأثقال المختلفة . وبهذا أوجدوا الساعة الدقاقة الرنانة . كما صنعوا الساعات المائية .

١٠ ــ صناعة الفخار والخزف والقاشاني والفسيفساء :

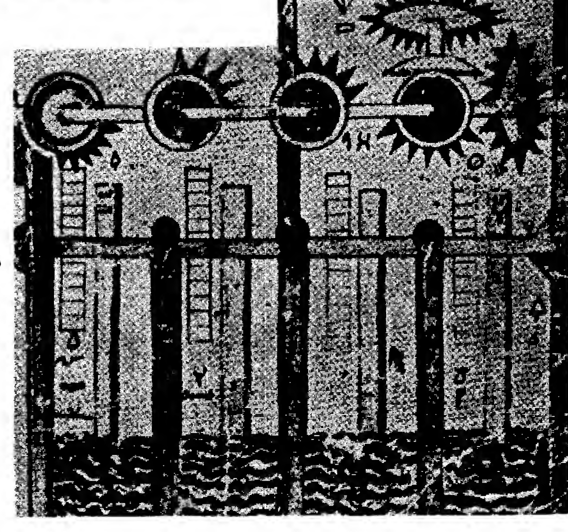
يعتبر فن الفخار والخزف من أبرز الحرف الفنية التي مارسها الفنانون

صناعة الساعات عند المسلمين



ساعة عربية فنية يظهر فيها عالم الحيوان المتحرك والشخوصات المنفذة من صقور تقذف الحلقات في وعاء معدني محدثة صوتاً ايقاعياً جميلاً

عام ١٢٠٠ م



الحيل الميكانيكية ٧١٥ هـ/١٣٢٤م
متحف فرير - واشنطون

شكل (٩)

نماذج من الصناعات الخزفية الإسلامية



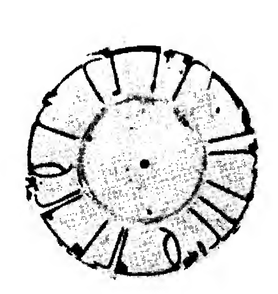
إناء من الخزف بزخارف زرقاء على أرضية بيضاء - العصر الصفوي



إناء من الخزف
العصر المملوكي - دمشق ٨هـ/١٤م
متحف الفنون الزخرفية / باريس



إناء من الفخار البني المطلي - القاهرة
٨هـ/١٤م العصر المملوكي
المتحف الإسلامي بالقاهرة



إناء من خزف عليه كتابة كوفية



سلطانية من الخزف من نيسابور
ايران القرن ٤هـ/١٠م



قنينة خزفية / صناعة كرمان
١١هـ/١٧م



إناء خزفي بزخارف ملونة
العصر العثماني

شكل (١٠)

المسلمون منذ فجر الحضارة الإسلامية . فقد أنتج المسلمون فناً خزفياً رفيعاً تجلى في صناعة الأواني والتحف الخزفية المتنوعة التي لا تقل فخامة وجمالاً عن أواني الفضة والذهب المزخرفة .

ونتيجة للابتكارات العديدة التي أدخلها المسلمون في صناعة الخزف ، فقد تكونت لديهم مجموعات متنوعة من الخزف أهمها نوعان :

(أ) الخزف ذو الزخارف المحفورة أو البارزة .

(ب) الخزف ذو البريق المعدني الذي يتميز بصناعته وطلائه وزخرفته .

وبلغت صناعة الخزف ذروتها في العصر العباسي الثاني ولا سيما في القرنين السادس والسابع الهجريين . فإلى جانب الأشكال الهندسية الجذابة والكتابات الكوفية على الأواني الخزفية ظهرت رسوم نباتية وغيرها .

وشملت مراكز صناعة الخزف العالم الإسلامي كله ، من بلاد ما وراء النهر حتى بلاد الأندلس . فقد اشتهرت نيسابور وسمرقند والري وقاشان بإنتاج أنواع كثيرة من الأواني الخزفية التي تعتبر في غاية الإتقان والجمال . وقد تميزت قاشان بصناعة **القاشاني** ، وهو نوع من البلاطات الخزفية ذات بريق معدني شاع استعماله في كساء الجدران والمحاريب . وكانت تلك البلاطات تزخرف عادة بكتابات بارزة . وكانت بلاد فارس مركزاً رئيسياً في صناعة أنواع كثيرة من البلاط الخزفي ولا سيما الفسيفساء (الموزاييك) .

وتتلخص **صناعة الفسيفساء** في تثبيت مجموعة من مكعبات الزجاج الملون والشفاف وقطع الحجر الأبيض والأسود وكذلك القطع الخزفية فوق طبقة من الجص أو الإسمنت التي تغطي السطح . وتكون عملية التثبيت هذه منظمة لقطع الفسيفساء بحيث تكون أشكالاً زخرفية جميلة متناسقة في اللون والشكل تمثل في مجموعها مشاهد معينة .

هذا ولقد ازدهرت صناعة الفسيفساء في العهد الأموي بشكل واضح . يدل على ذلك ما وجد من الفسيفساء في مساجدهم ومن بينها مسجد قبة الصخرة بالقدس ، والتي تعد زخارفها أول وأقدم محاولة ظهرت في العصور الإسلامية

المصنوعات الخزفية الإسلامية



إناء من الخزف مزخرف بطلاء معدني ذو لونين
العراق ٣هـ/٩م
معهد الفنون بمدينة شيكاغو ..



قنديل من الخزف بزخارف محززة وزخارف
كتابية - القاهرة ٨هـ/١٤م
متحف المتروبوليتان - نيويورك



سلطانية من خزف / إيران
٩هـ/١٥م
متحف المتروبوليتان - نيويورك



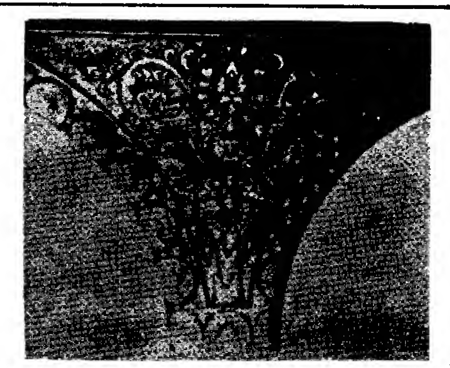
إناء خزفي بزخارف زرقاء
على أرضية بيضاء
المتحف البريطاني



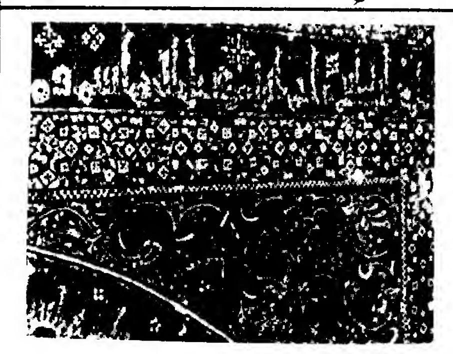
طبق من الخزف من نيسابور بزخارف
كتابية - متحف فرير - واشنطون

شكل (١١)

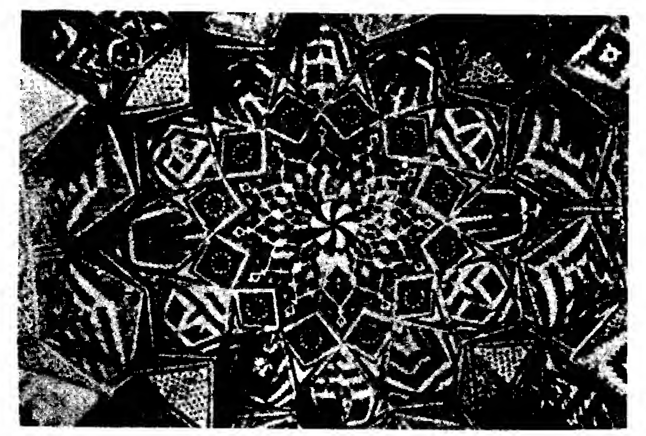
نماذج من الفسيفساء الإسلاميّة



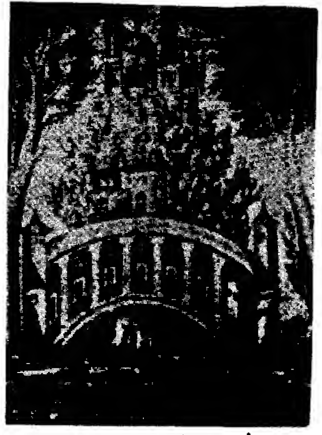
زخارف فسيفساء تغطي عقود
قبة الصخرة بالقدس



فسيفساء تغطي محراب مسجد قرطبة / الأندلس
القرن ٤ هـ / ١٠ م



فسيفساء تغطي قبة جامع كرمان من الداخل ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م



زخارف فسيفساء تغطي جدران الرواق الغربي / الجامع الأموي بدمشق

شكل (١٢)

لهذا النوع من الفن الزخرفي المعماري ، والجامع الأموي بدمشق . وفي قصورهم ومن بينها قصر هشام وقصر قرية المفجر وهما في الأردن .

١١ ـ صناعة الآلات الفلكية وبناء المراصد :

كان لعلم الفلك أهمية خاصة عند المسلمين ، لأن فيه معاني دينية عميقة ، فقد ذكر البتاني المتوفى عام ٣١٧هـ وهو أحد كبار علماء الفلك المسلمين في القرن الرابع الهجري ، أن علم النجوم هو علم التوحيد وعلى كل أمرئ أن يعلمه . كما يجب على المؤمن أن يلم بأمور الدين وقوانينه لأن الفلك يوصل إلى برهان وحدانية الله وإلى معرفة عظمته الهائلة وحكمته السامية وقوته الكبرى وكمال خلقه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن لعلم الفلك أهمية في تحديد أوقات الصلاة وتحديد القبلة . وهذا ما دعا المسلمين إلى الاهتمام برصد النجوم والكواكب ومعرفة حساباتها . ومن أجل هذا بنى المسلمون المراصد واخترعوا الآلات الفلكية .

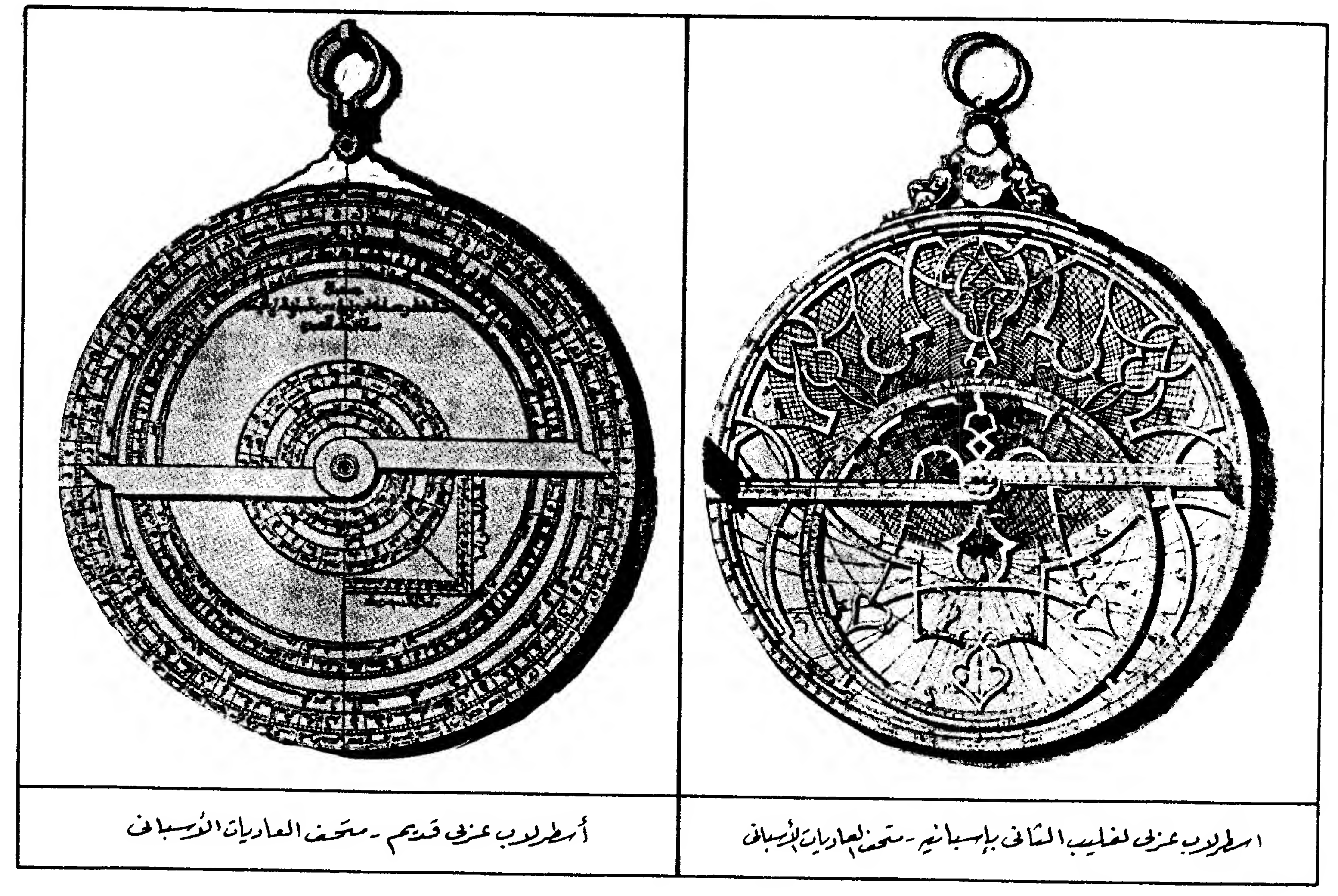
ومن أشهر المراصد الإسلامية : مرصد الشماسية الذي بناه المأمون في بغداد كما أنشأ هذا الخليفة مرصداً آخر في دمشق .

هذا من ناحية المراصد . أما من ناحية الآلات الفلكية ، فقد اهتم المسلمون بها اهتماماً كبيراً . وقد أدخلوا تحسينات جوهرية على ما ورثوه من الأمم الأخرى كالإغريق والهنود . فقد ابتكر علماء الفلك المسلمون آلات مختلفة للمراقبة والقياسات نقلها الأوربيون عنهم واستعملوها زمناً طويلاً .

ومن الآلات الفلكية التي عرفها المسلمون . الأسطرلاب[1] بأنواعه إذ منها المستدير الذي يعتبر من أفضلها . ومنها المسطح الصغير الحجم وكان أكثرها انتشاراً واستعمالاً عند المسلمين هذا بالإضافة إلى أن ذلك النوع من الأسطرلاب ،

---

(١) إن أول من اخترع الأسطرلاب هو « أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب الفزاري » وهو من فلكيي المنصور . وهو أول من ألَّف كتاباً فيه سماه « العمل بالأسطرلاب المسطح » .



اسطرلاب عربي لفليب الثاني بإسبانيه - متحف العاديات الإسباني
أسطرلاب عربي قديم - متحف العاديات الإسباني

شكل (١٣)

كان يستخدم كساعة جيب صغيرة تؤدي للمسلم خدمات جلى في تحديد مواعيد الصلاة أينما كان . كما أنها تعين موقع مكة المكرمة حيث الكعبة المشرفة . بالإضافة إلى أنها تؤدي العديد من الخدمات في الحسابات الفلكية والزمنية .

هذا وكان الأسطرلاب المسطح أفضل آلة قياسية عند المسلمين وأكثر منفعة واستعمالا .

ولقد وفق المسلمون في تطوير الأسطرلاب والسير به خطوات واسعة نحو الأمام وصنعوا منه أشكالاً عديدة ملائمة لكثير من الخدمات والأهداف . فأوجدوا الأسطرلاب الدائري إلى جانب الأسطرلاب المسطح والبيضاوي والمستطيل . ولقد قوبلت هذه الآلات في أوربا بحماس شديد وعمد كثير من الأوربيين إلى اقتنائها تخليداً لذكرى دراساتهم في الجامعات العربية .

ومن الآلات التي اخترعها المسلمون « الكفار » التي أصبحت من الضروريات للقيام بقياسات فلكية دقيقة وتنبؤات صادقة عن حالة الجو . كما أن الآلات التي عرفها المسلمون ومنها البوصلة استخدمت في الرحلات البحرية .

١٢ ـ الجراحة وصناعة آلاتها :

لقد سبق أن درست عن الطب عند المسلمين وما يتصل به من أدوية وعلاجات . وفيما يلي استعراض لعلم الجراحة لدى المسلمين وما يتصل بهذا العلم من أدوات جراحية تتطلبها العمليات الجراحية والتي بدونها يتعذر إجراؤها . أما العمليات الجراحية التي مارسها المسلمون في هذا المجال والأدوات التي تتصل بها فهي :

جراحة العين : ومن الذين اشتهروا بطب العيون وجراحتها علي بن عيسى الذي ولد في أوائل القرن العاشر الميلادي . وكتابه المسمى « التذكرة » مكون من ثلاثة أجزاء شرح في الأول منها تشريح العين ووظائفها . واستخدم التخدير في عمليات العيون وقد دوَّن كيفية الاستخدام هذه في الجزء الثاني . وقد تطرق إلى

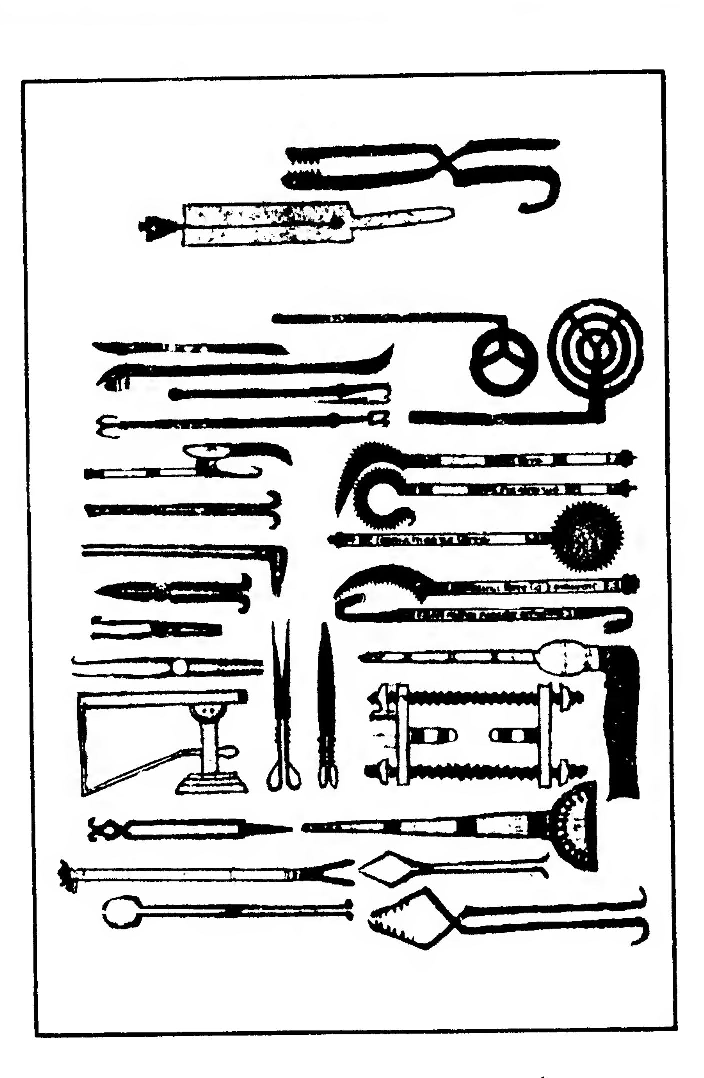
التخدير بواسطة الاستنشاق . هذا وقد ترجم كتابه إلى عدة لغات .

وقد أخرجت الجامعات الإسلامية أطباء جراحين كثيرين . أما الجراحة فقد بلغت القمة عن طريق « أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي » المتوفى عام ١٠١٣م . ويسمى بالزهراوي نسبة إلى مدينة الزهراء مسقط رأسه . ولأبي القاسم عدة كتب أشهرها « كتاب التعريف لمن عجز عن التصريف » . وفي الفصل الأخير منه يتحدث عن الجراحة وآلاتها وقد اشتملت الآلات الجراحية التي ضمنها كتابة وأوضحها بالرسوم على مائتي آلة جراحية هو مبتكرها . وتعتبر هذه بمثابة حجر الأساس للجراحة في أوربا .

وبحث في مضار الكي بالنار ومنافعه . ثم بحث عن الجروح والنخز والفصد والحجامة واستخراج السهام من الجسم .

وذكر أبو القاسم أنواعاً من الإبر وخيوط الجراحة التي تستخدم في العمليات . كما تحدث عن جراحة الأسنان فشرح وصور مقاشط تنظيف الأسنان وكلاليب قلعها ، وذكر عملية صنع الجسور (الكباري) لتثبيت الأسنان الضعيفة ، واستعمل للكشف عن اللوزتين والحلق ملعقة تخفض اللسان إلى أسفل . ثم تعرض إلى الحقنة المعدنية التي استعملها لحقن المثانة بالسوائل الطبية . أما وصفه لاستخراج حصاة المثانة فيعتبر من الإنجازات الهامة التي قدمها أبو القاسم لجراحة المثانة . كما ذكر في كتابه جبر وفك المفاصل وعلاج العظام المكسورة بما في ذلك كسر الحوض . وذكر الجبائر وكيفية استخدامها ، ووصفات لصنع الضمادات واللبخات للعظام المكسورة .

وكان لكتاب أبي القاسم في الجراحة أثر بارز في رفع هذا العلم بأوربا . وقبل أن نختم الكلام عن أبي القاسم نقول : إن قائمة الأدوات الجراحية التي ذكرها في كتابه ووضحها بالرسوم كانت عوناً كبيراً لجراحي أوربا ؛ وإن هذه الأدوات الهامة جداً في تاريخ الجراحة تعتبر من المآثر الإسلامية في هذا الميدان (انظر شكل (١٤) الأدوات الجراحية العربية) .



أدوات جراحية عربية

شكل (١٤)

١٣ ـ صناعة الأدوية :

لقد عرف المسلمون تأثير الأعشاب في شفاء الأمراض . لذلك فقد استخرجوا من كثير من الأعشاب أدوية استعان بها الأطباء في البيمارستانات (المستشفيات) . وقد انتشرت هذه الأدوية والعقاقير ، حتى أصبحت في متناول عامة الناس .

وقد وضعت تصانيف عديدة في الأدوية والنباتات الطبية حتى تألقت الحضارة الإسلامية وسطعت شمسها . فقد ذكر الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ١٠٣٧ م) الذي ظلت كتبه الطبية عماد الدراسة في كليات الطب الأوربية قروناً عديدة في كتابه **القانون** (في الطب) ما يزيد عن سبعمائة وستين دواء . وقد دخلت كلها في مؤلفات الأوربيين في علمي النبات والصيدلة . حتى إن الكثير منها لا زال يعرف بأسمائها العربية[1] .

وقد أورد ابن البيطار في كتابه **الجامع لمفردات الأدوية** بحثاً عن النباتات الطبية التي ثبت عنده صلاحيتها . كما تحدث عن فوائد الأغذية المختلفة .

وبالإضافة إلى العقاقير النباتية ، قام المسلمون ، على نحو لم يسبقهم إليه أحد من قبل ، بإجراء تجارب كيماوية عديدة من أجل تحويل المعادن وعزل المواد بعضها عن بعض . وكانت تلك التجارب المقدمات الأولى لقيام علمين فيما بعد هما : الكيمياء العضوية والكيمياء غير العضوية .

وهكذا توصل المسلمون إلى الكشف عن تركيبات كيماوية للتوصل إلى الإكسير الذي يعيد إلى الجسم قوته ونشاطه .

---

(١) فمن ذلك مثلاً باللغة الإنجليزية : العنبر (الكرمان) Amber ، والزعفران (Saffran) ، والكافور (Camphor) ، والتمر هندي (Tamarind) ، وعود الند (الصبر) (Aloe) ، وكان يستعمل عصيره المر كمسهل في الطب . والحشيش (القنب الهندي) (Hashish) ، والمسك (Musk) ، والصندل (Sandal) وغيرها .

ولقد استخدم المسلمون الأواني الزجاجية لحفظ المواد الكيماوية . وبالإضافة إلى ذلك تمكن علماء المسلمين وعلى رأسهم أبو بكر الرازي المتوفى عام ٩٢٥م . من استخدام التقطير في استخراج مواد طبية وزيوت وغيرها . وقد أدت تجارب الرازي الكيماوية في الطب إلى استحضار عقاقير جديدة لها قدرات علاجية قوية .

هذا ولا يزال كثير من المواد التي استحضرها المسلمون تعرف بأسمائها العربية في اللغة الإنجليزية[1] .

كما برع العرب بما قدموه من أنواع الضمادات والمساحيق والمرهم والمواد اللاصقة وغيرها . وهذا مكنهم من العناية بمعالجة الجراحات والدمامل وتطبيخها ثم شقها ، ومداواة كثير من الأمراض الجلدية وتجنب تقييحها باستخدام المواد المخمرة المعقمة ولو أنها لا تساوي في مفعولها البنسلين . وقد استعمل العرب القهوة المحروقة والمطحونة لمعالجة التهابات عديدة .

هذا وكان لا بد من وجود معارف خاصة في الكيماويات واستحضار الأدوية لمعالجة المرضى . وهذا مما أدى إلى وجود مهنة الصيدلة والصيادلة . وكان العرب المؤسسين الحقيقيين لمهنة الصيدلة التي ارتفع أصحابها بمعلوماتهم الوفيرة وبشعورهم بالمسؤولية عن تجار العقاقير .

وكان العرب أول من افتتحوا الصيدليات العامة وذلك في خلافة أبي جعفر المنصور . كما أنهم ألحقوا بكل بيمارستان (مستوصفاً) صيدلية خاصة به . كما أوجدوا الصيدليات المتنقلة مع المستشفيات المتنقلة في ساحة المعركة .

ومنذ أيام المأمون ، كانت الصيدليات وكل قسم من أقسام الصحة العسكرية تحت إشراف حكومي . كما كان هناك رئيس أطباء ، وكان في كل مدينة عميد للصيادلة يقوم هذا العميد بإجراء اختبار للصيادلة ومن ثم يمنح الناجحين منهم رخص العمل .

---

(١) بنزين (Bensine) والبورق (Borak) والإكسير (Elixir) والقلويات (Alkali) والصودا (Soda) والكيمياء (Alchemy) وأنلين (Aniline) وبودرة الطلق (Talkum Powder) .



صيدلية عربية

(مخطوطة عربية لابن سينا)

شكل (١٥)

وكان الصيادلة يصنعون أدويتهم حسب التعليمات الرسمية المدونة في كتب خاصة تدعى « **كتب الأقراباذين** » .

واحتلت الأسماء العربية في الطب والصيدلة مقاماً علمياً كبيراً ولجأ بعض الأطباء في شمال إيطاليا إلى وضع كتبهم على أساس تلك الأسماء . وعلى أكتاف المسلمين سطع نجم علماء العلوم الطبية في أوربا .

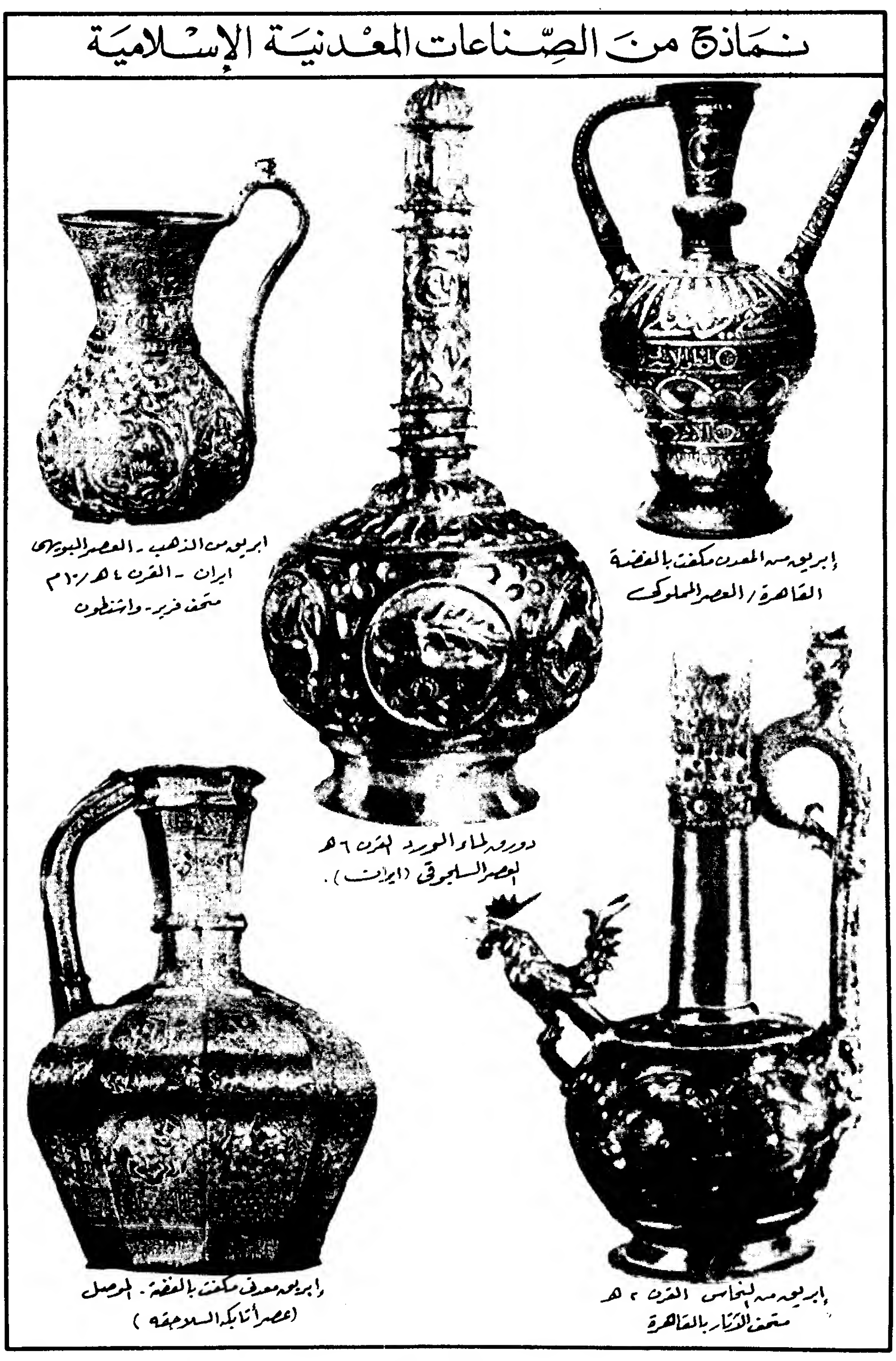
هذا ولقد عاصر التأثير الإسلامي في ميدان علم العقاقير بأوربا ، فترة ما قبل النهضة وأثناءها وتعداها حتى وصل إلى القرن الثامن عشر الميلادي . إذ في عام ١٧٥٨ م . صدرت أجزاء من كتاب « **الجامع لمفردات الأدوية** » لابن البيطار . ومع انقطاع حبل الاتصال بعد ذلك التاريخ ، إلا أن كل مستشفى بما فيه من ترتيبات ومختبرات ، وكل صيدلية ومستودع أدوية في أيامنا هذه ، إنما هي في حقيقة الأمر رمز للعبقرية العربية . كما أن كل حبة من حبوب الدواء إنما هي كذلك تذكار يذكرنا باثنين من أعظم أطباء المسلمين ومعلمي بلاد الغرب .

١٤ ـ الصناعات المعدنية والحلي :

وهذه تشمل صناعة الأباريق والأواني المتنوعة والأطباق والأمشاط والأقفال ومقابض الأبواب والمفاتيح والمحابر والقناديل والحلي كالعقود والخواتم والأقراط ، كما تشمل النقود وغير ذلك . واللوحات الآتية توضح مختلف هذه الصناعات . (من شكل ١٧ حتى شكل ٢٠) .

وعلى الرغم من أن الفنانين المسلمين قد أنتجوا تحفاً معدنية كثيرة ، إلا أنها لم تكشف عن خصائص الفن الإسلامي الذي لم يكن قد تبلور بعد . ومع أنه لم يُعْثَرْ على الكثير من الصناعات المعدنية التي يمكن أن تنسب إلى **العصر الأموي** إلا أن هناك عدداً من الأباريق البرونزية في كثير من متاحف العالم .

وفي العصر العباسي ، بلغت الصناعات المعدنية أوجها من ناحيتي الكم والكيف . إذ دفع الازدهار الاقتصادي إلى تقدم الصناعات المعدنية وغزارتها



نماذج من الصناعات المعدنية الإسلامية
إبريق من المعدن مكفت بالفضة
القاهرة / العصر المملوكي
ابريق من الذهب - العصر البويهي
ايران - القرن ٤ هـ / ١٠ م
متحف فرير - واشنطون
دورق لماء الورد القرن ٦ هـ
العصر السلجوقي (ايران).
إبريق من النحاس القرن ٢ هـ
متحف الآثار بالقاهرة
إبريق معدني مكفت بالفضة - الموصل
(عصر أتابكة السلاجقة)

شكل (١٦)

مِنَ المَصنوعَات المعَدنيَّة الإسلاميَّة



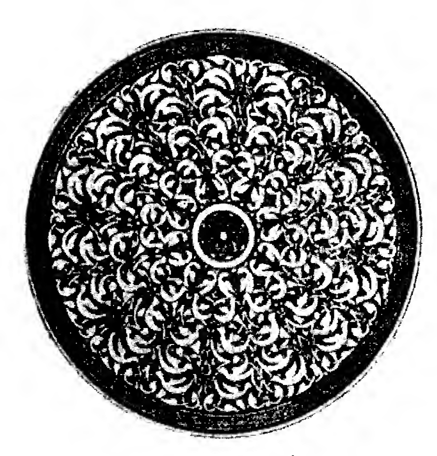
إناء معدني مكفت بالفضة القرن ٨ هـ/١٤م
صناعة إيران . متحف المتروبوليتان



إناء من النحاس المكفت (متحف اللوفر بباريس



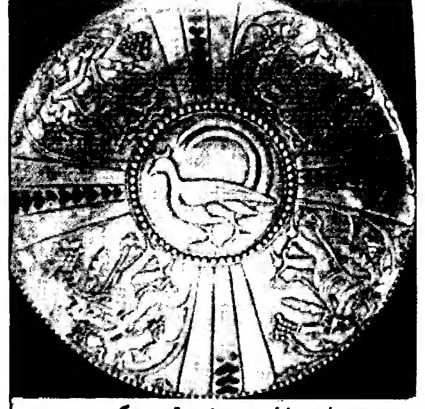
طست من المعدن - العصر المملوكي
صناعة مصرية - متحف اللوفر بباريس



طبق من النحاس



إناء من البرونز يحمل اسم تيمورلنك
مؤرخ ٨٠٠ هـ - ١٣٩٧م



طبق فضي بزخارف حية
العصر البويهي / إيران - القرن ٤ هـ/١٠م



إناء مصنوع من النحاس

شكل (١٧)

لتلبية احتياجات المجتمع الإسلامي والبلاد الأجنبية . وفي هذا العصر ظهرت صناعات معدنية جديدة . فمن ذلك مثلاً : أواني الفضة المزخرفة وأباريق الذهب التي تحمل زخارف نباتية وحيوانية إلى جانب شريط الكتابة بالكوفية على فوهة الإبريق (انظر شكل ١٦) . وفي هذا العصر أيضاً ولا سيما في أيام البويهيين ، ظهرت الأوسمة الذهبية وعليها نقوش وزخارف تُصَوِّرُ رؤوس أمرائهم .

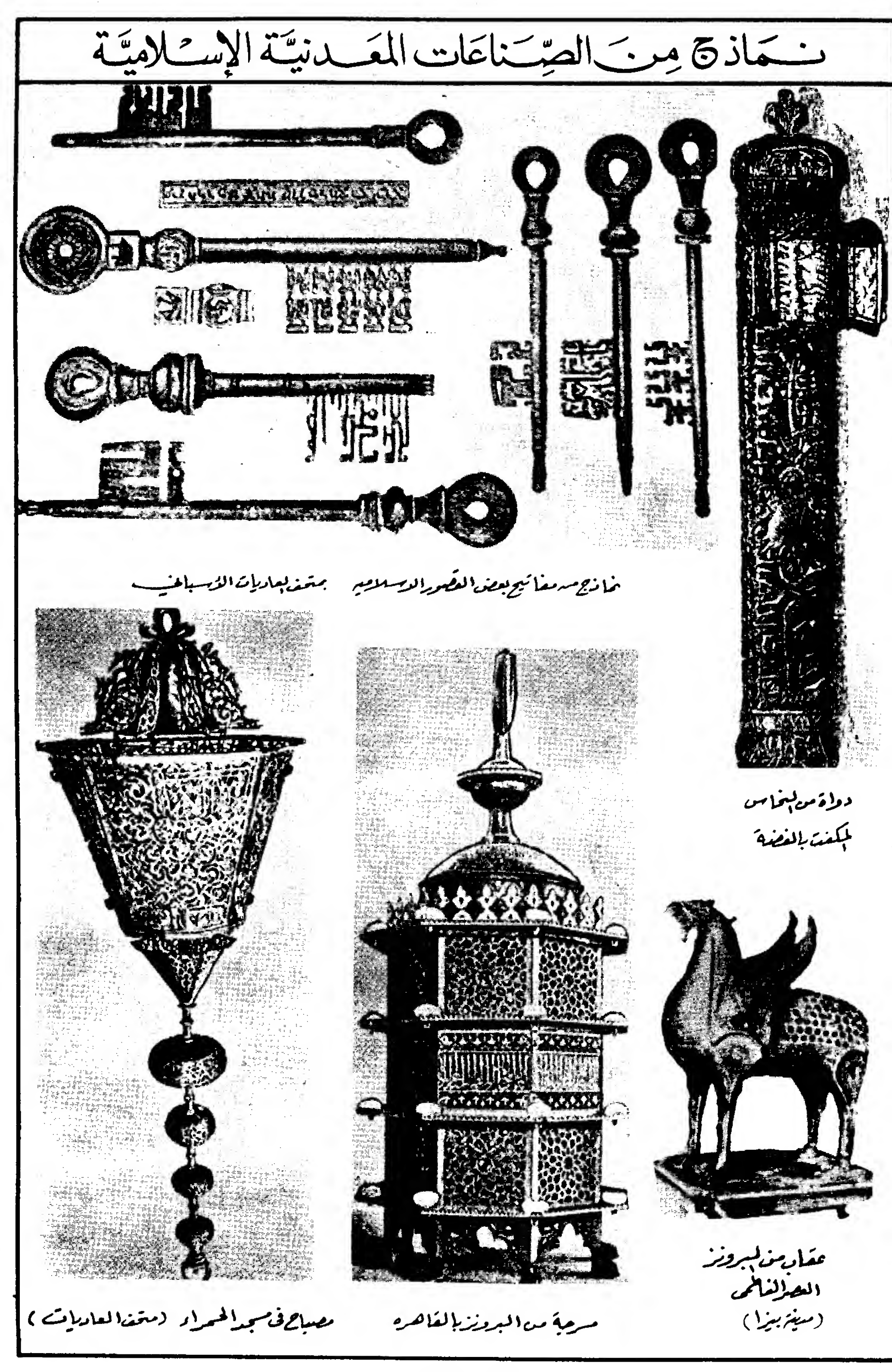
هذا وقد احتوت كنوز الفاطميين على الكثير من الحلي الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة والميناء (انظر شكل ١٩) .

وفي منتصف القرن السادس الهجري ، في عهد السلاجقة ، ظهر أسلوب جديد في زخرفة المصنوعات المعدنية هو التكفيت . والتكفيت أو التطبيق هو النقش على التحفة المعدنية ثم ملء تلك النقوش المحفورة بشرائط من الفضة أو النحاس الأحمر أو بكليهما معاً . ولقد ظهرت صناعة التكفيت في خراسان ثم في باقي أجزاء فارس .

وفي زمن آل زنكي بالموصل وحلب ، تزعمت الموصل صناعة المعادن وتكفيتها برقائق من الأشرطة الفضية والذهبية عوضاً عن النحاس الأصفر الذي كان معروفاً من قبل لدى سلاجقة إيران . وتعد مجموعة الأواني المكفتة التي تنسب إلى الموصل أجمل ما أنتج العالم من هذا النوع .

وفي العصر المغولي تميزت الصناعات المعدنية الإسلامية بالدقة ومن بين هذه الصناعات في ذلك العصر صناعة الحديد للأغراض الحربية كالسيوف والخناجر والخوذ المخروطية الشكل .

وفي العصر المملوكي ، ازدهرت صناعة المعادن بأنواعها واستخدمت شرائط النحاس في تغطية الأبواب الخشبية للمساجد والقصور وذلك بعد نقشها بزخارف هندسية جميلة . ومما ساعد على ازدهار صناعة المعادن في هذا العصر ، اهتمام المماليك بصناعة أدوات توضع في المساجد مثل : الشمعدانات والمناضد والصناديق التي تحفظ فيها المصاحف والمحابر والثريات وغيرها .



نماذج من الصناعات المعدنية الإسلامية
نماذج من مفاتيح بعض العصور الإسلامية بمتحف العاديات الإسبانية
دواة من النحاس المكفت بالفضة
عقاب من البرونز العصر الفاطمي (متحف بيزا)
مصباح في مسجد الحمراء (متحف العاديات)
مسرجة من البرونز بالقاهرة

شكل (١٨)



قرط من الذهب - القرن ٥هـ/١١م
العصر الفاطمي - القاهرة

خاتم من الذهب صنع في هراه
مرصع بحجر الجشم الأخضر - إيران

إناء من حجر الجشم منقوش عليه اسم أولج بك حفيد
تيمورلنك - ايران - العصر التيموري
المتحف البريطاني - لندن

شكل (١٩)

١٥ ـ صناعة الجلود والتجليد :

اشتهر المسلمون بصناعة الجلود التي كانوا يستخدمونها في أغراض كثيرة مثل : الحقائب والأحذية والكرانات[1] والسيور والدروع والقسي والسروج وغير ذلك .

فقد اشتهرت الفسطاط بمصر بعمل الأنطاع (الجلود) ، التي كانت تصدر إلى بلاد الشام . كما اشتهرت بصناعة الحقائب والسيور والقسي . وبرع المصريون بصناعة السروج وحلوها بالذهب والفضة حتى بلغت قيمة السرج الواحد ما بين ألف وسبعة آلاف دينار .

ولعناية الفاطميين بصناعة السروج خصصوا لها خزائن خاصة عرفت باسم خزائن السروج . كما اشتهرت الأندلس بهذه الصناعة أيضاً ، أما بلاد المغرب فقد اشتهرت بالمحافظ والأحزمة الجلدية .

كما اشتهر المغاربة بصناعة الدروع والتروس الجلدية وسروج الخيل وركائبها . واشتهر المغرب الأقصى بصناعة الزوالي والوسائد الجلدية .

ومن الصناعات والفنون الرئيسة التي عني بها المسلمون في هذا المجال ، تجليد المصاحف والكتب والتفنن في عملية التجليد مما أكسب الفنون الإسلامية طابعها المميز .

وقد واكبت صناعة التجليد انتعاش صناعة الكتاب التي تناولت الخط والرسم والتجليد والزخرفة . ونتيجة لنهضة فن الكتاب تطورت صناعة التجليد عند المسلمين بحيث أصبح لها شكل مميز منذ القرن السابع الهجري .

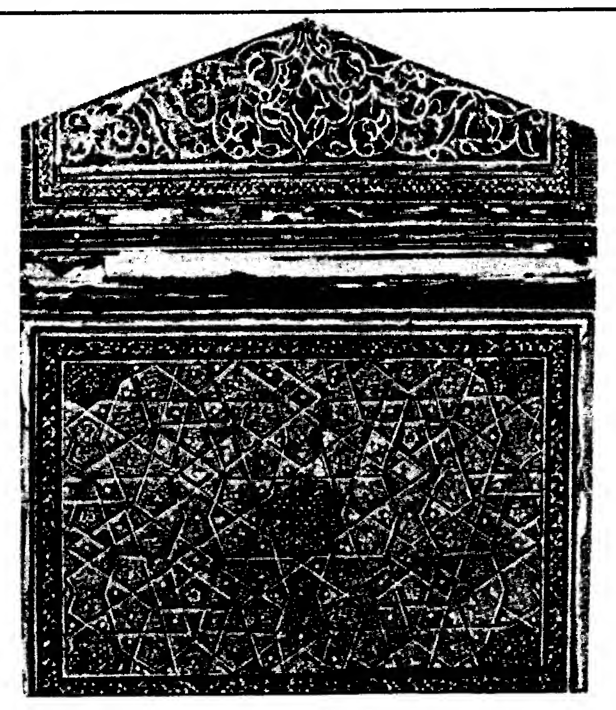
ومن أهم الأمور التي ساعدت على هذه النهضة رغبة الحكام المسلمين في إنتاج مصاحف جميلة من حيث العناية بالخط والتجليد والزخرفة .

وتنسب بداية زخرفة المصاحف وتحلية صفحاتها باللون الذهبي إلى العصر العباسي . ولم يقتصر فن التجليد على المصاحف فقط بل شمل أيضاً صناعة الجلود بوجه عام .

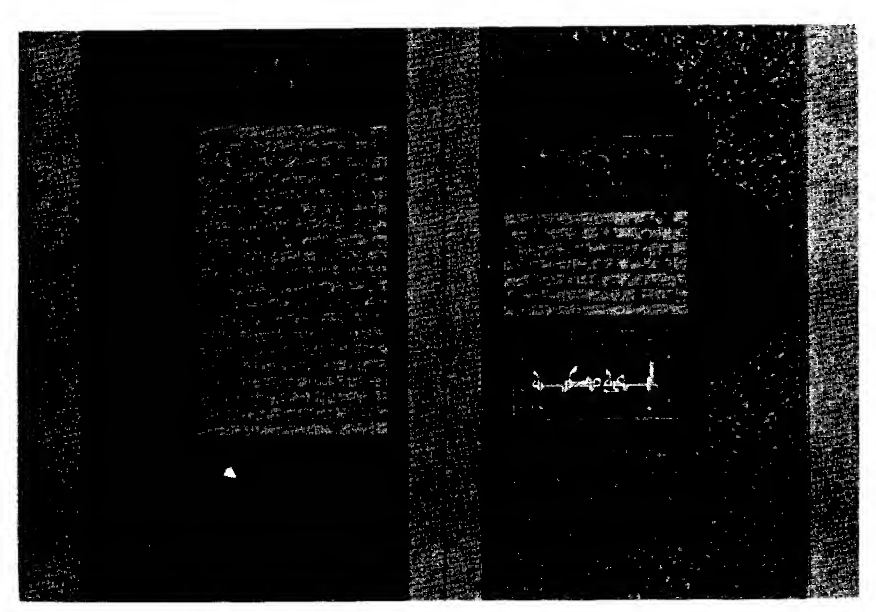
---

(١) حزام لوضع النقود .

صناعة الجلود والتجليد



صناعة الجلد في عهد المماليك - (متحف الفن الإسلامي ببرلين)



الصفحات الأولى من مصحف المغرب القرن ١٨ م

شكل (٢٠)

هذا ولقد انتقلت صناعة التجليد إلى إيطاليا عن طريق التجارة المغربية عبر صقلية . فقد قلد الإيطاليون لا سيما البنادقة منهم فن التجليد الإسلامي . وكان ذلك إبان القرن السادس عشر الميلادي .

١٦ ــ صناعة الخشب العاج :

مهر المسلمون في مصر والشام والعراق بصناعة الحفر على الخشب والعاج في مختلف عهودهم . وقد احتفظت صناعة الخشب في العصر الأموي بالأساليب الفنية المعروفة من قبل في سورية . وأبرز أمثلة على تقدم صناعة الخشب في ذلك العصر الألواح الخشبية في المسجد الأقصى والصخرة المشرفة . كما اشتهرت مصر منذ القديم بصناعة الأخشاب وزخرفتها واستمرت هذه الصنعة في العهود الإسلامية ويدل على ذلك ما يوجد في المتحف الإسلامي بالقاهرة من الصناعات الخشبية المنقوشة والتي يظهر فيها تطور الفن العباسي بشكل واضح .

أما صناعة العاج فقد ازدهرت في العصر الأموي الغربي (الأندلس) . ومن أجمل ما أنتجه فن ذلك العصر علب العاج المزخرفة بنقوش مزدحمة تغطي جسم العلبة وغطاءها . كما يوجد في كثير من العلب تاريخ صناعتها واسم صاحبها .

هذا وتعتبر التحف العاجية الإسلامية في الأندلس من أعظم ما خلفته الحضارة الإسلامية في الأندلس منذ القرن العاشر الميلادي .

وفي العصر الفاطمي أنتجت مصر حشوات عاجية مزخرفة بعناصر نباتية وحيوانية وآدمية تتشابه زخارفها مع زخارف الألواح الخشبية التي وجدت ببيمارستان قلاوون (السلطان المملوكي) . ولقد عثر على بعض هذه القطع في مدينة الفسطاط وهي محفوظة حالياً بدار الآثار الإسلامية في القاهرة . ومن التحف العاجية التي تنسب إلى هذا العصر الأبواق العاجية والعلب المستطيلة المزينة بوحدات زخرفية متنوعة . ولقد استخدم الفنان في ذلك العصر العاج والعظم في تطعيم الألواح الخشبية .

نماذج من صناعة العاج



درفة باب

بوق من العاج (فى متحف الفن الإسلامى ببرلين)



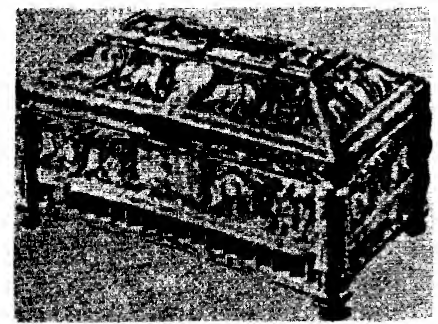
لوحة من العاج



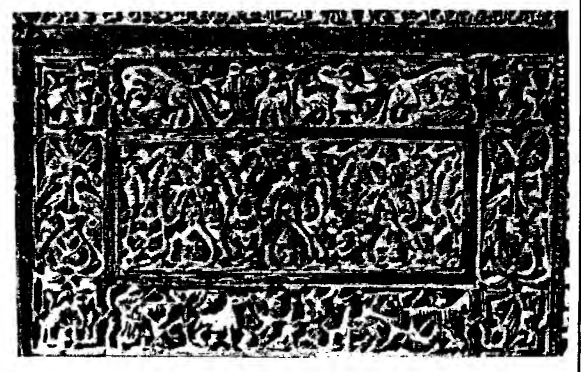
لوح من الخشب المطعم بالزخارف (العصر الفاطمى)



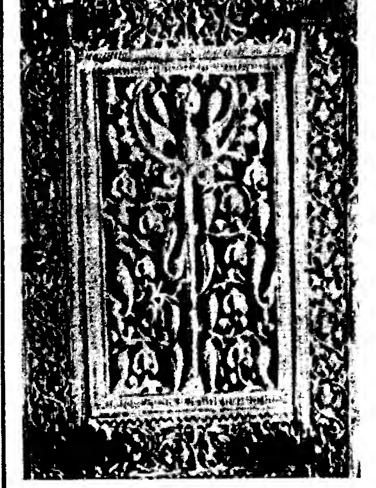
علبة من العاج / العصر الأموى فى أسبانيا بمتحف اللوفر - باريس



علبة من العاج مزخرفة بنقوش بارزة (القرن ٦ هـ/١٢م)



صندوق من العاج (بالأندلس)



لوحة من الخشب المطعّم بالعاج

شكل (٢١)

ولم تقتصر الصناعات العاجية والخشبية على العصور آنفة الذكر بل شاعت في العصور الإسلامية التي تلتها . هذا وقد انتقلت صناعة العاج إلى صقلية ومنها إلى إيطاليا وكانت تلك الصناعة أساس الفن الإسلامي .

١٧ ـ صناعة زيت الزيتون :

لقد عني المسلمون عناية خاصة بصناعة زيت الزيتون لما له من فوائد غذائية وصحية . واستخدم المسلمون الزيت في الإضاءة والنواحي العلاجية . ولا يزال حتى الآن يصفه الأطباء كأحد العقاقير لمن يعانون من الرمل أو الحصوة .

وقد اشتهرت بلاد الشام والشمال الأفريقي والأندلس التي تقع على البحر المتوسط بصناعة زيت الزيتون .

أسئلة

أجب عن الأسئلة التالية :

١ ـ « عمل المسلمون على تطوير صناعة الورق وانتشارها » .
اشرح هذه العبارة بإيجاز .

٢ ـ « انتشرت صناعة المنسوجات الكتانية والقطنية والحريرية في أرجاء الدولة الإسلامية » .
وضح مدى ما وصلت إليه صناعة كل نوع من هذه المنسوجات مع ذكر الدولة التي اشتهرت بها .

٣ ـ تتبع تطور صناعة السفن في عصور الدولة الإسلامية .

٤ ـ ما الأغراض العسكرية التي استخدم فيها النفط؟ .

٥ ـ علل لما يلي :
أ ـ عناية المسلمين بصناعة الملابس الفاخرة .
ب ـ مهارة العرب في صناعة القوس واستعماله .
جـ ـ اهتمام المسلمين بالآلات الفلكية وبناء المراصد .
د ـ تأسيس المسلمين لمهنة الصيدلة .

هـ ــ ازدهار الصناعات المعدنية في كل من العهد العباسي والعهد المملوكي .

٦ ــ ما أنواع الساعات التي اخترعها المسلمون ؟ وما المجالات التي استفادوا فيها من هذه الساعات ؟

٧ ــ « بلغت الجراحة في العهد الإسلامي القمة عن طريق أبي القاسم الزهراوي » . فسِّر ذلك بإيجاز .

٨ ــ اكتب مذكرات تاريخية في كل من الصناعات التالية :

أ ــ الزجاج والبلّور في عهد الدولة الإسلامية .

ب ــ الأصباغ .

جـ ــ أسلحة الحصار .

د ــ الفخار والخزف .

هـ ــ الأدوية .

و ــ الجلود والتجليد .

ز ــ الحفر على العاج والخشب .

الفصل الثاني

العمارة الإسلامية

لقد أنشأ المسلمون في المدن التي شيدوها ، مساجد ومدارس وقصوراً وغيرها من المباني الفخمة المتعددة وذلك وفق طرز متميزة تسمى عادة « الريازة الإسلامية » لا تزال تلك المنشآت شاهداً على ما بلغه المسلمون من رقي حضاري في هذا المجال .

وإليك عرضاً لعدد من المنشآت التي أقامها المسلمون عبر مراحل حضاراتهم الزاهية ، والخصائص التي تجلت في فن العمارة الإسلامي خلال عهودهم المتعددة والمدن التي شيدوها ، إبان تلك العهود لتكون عواصم لدولة الإسلام :

أولاً : أنواع المنشآت الإسلامية

تشمل المباني والمنشآت الإسلامية المساجد والمدارس والمراصد والبيمارستانات (المستشفيات) والقصور والقلاع وغيرها . وفيما يلي استعراض لعدد من تلك المنشآت والتطورات التي طرأت على طراز بنائها :

أ ـ المساجد : لقد بنى المسلمون مساجدهم في شتى أقطار دولتهم ، وعنوا ببنائها عناية فائقة حتى كانت درة في جبين العمازة الإسلامية . هذا وكان الغرض من بناء هذه المساجد بالإضافة إلى إقامة صلاة الجماعة ، جعلها مراكز الحياة الاجتماعية والسياسية . كما كان المسلمون يستخدمونها لاجتماع العلماء ومقراً لعلماء التفسير والحديث ، ومعاهد للتدريس . كما اتخذها القضاة مكاناً لجلساتهم . كل هذه الاستعمالات كانت قبل إيجاد مبان خاصة للإمارة والقضاء والتدريس .

أما التصميم العام للمساجد فمع أنه بدأ بسيطاً بحيث يتكون المسجد من أروقة مغطاة وساحة مكشوفة ، إلا أنه أُدخلت على هذا التصميم إضافات في مختلف العهود الإسلامية ، فجاءت عمارة المساجد مثلاً رائعاً للعمارة الإسلامية

المسجد الحرام :

وقبل أن نبدأ بذكر المساجد التي شيدت في العهود الإسلامية المختلفة ، لا بد من أن نقدم لها بالمسجد الحرام الذي هو أول بيت اقيم للناس ، إذ يقول رب العالمين في كتابه العزيز :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١)

ومع أن المسجد الحرام (البيت) بناه في الأصل إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢)

إلا أنه مرّ بتطورات عدة في العهود الإسلامية الماضية والحاضرة ، من حيث التوسعة والإضافات حتى صار في الوضع الذي نشاهده عليه الآن .

ففي عهد الخليفة معاوية أحضر للمسجد منبراً . واشترى له ابن الزبير دوراً مجاورة وضمها إليه حتى أصبحت مساحته ٣٢,٤٠٠ ذراع مربع . كما اتخذ في المسجد رواقاً مسقوفاً على عمد . كما أن ابن الزبير قام ببناء الكعبة على قواعد إبراهيم عندما مال جزء من جدارها وأصبح البناء عرضة للانهيار .

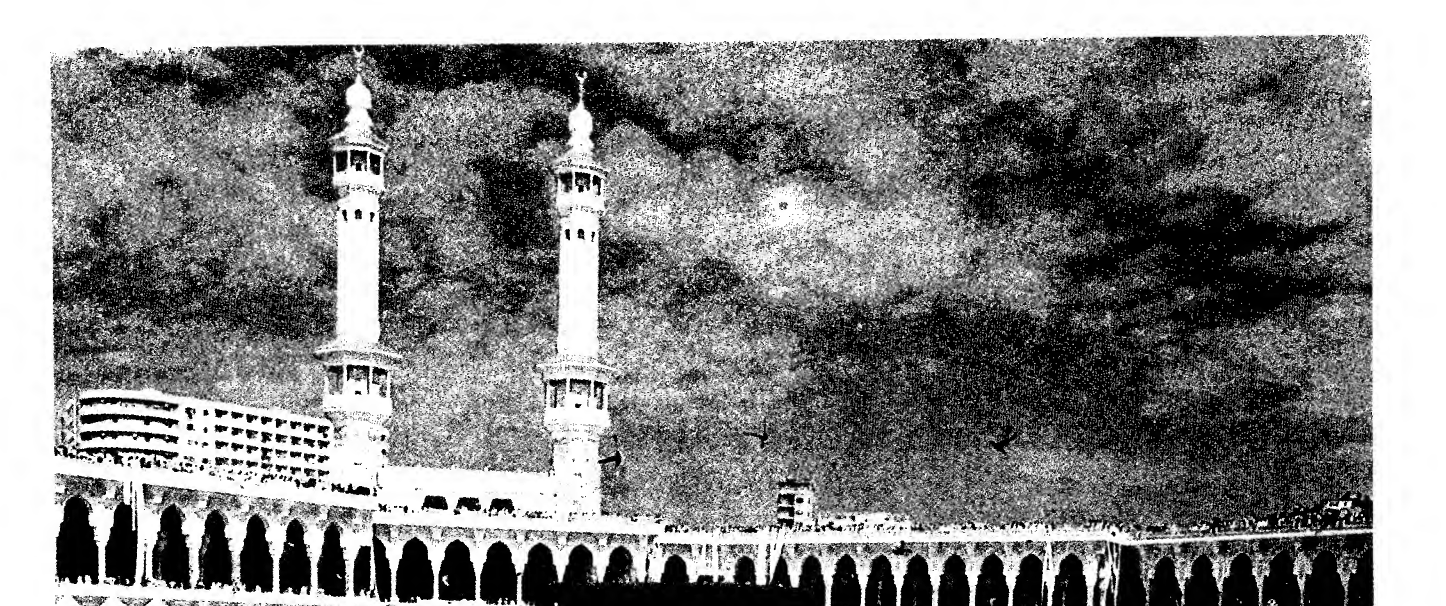
وفي زمن الخليفة عبد الملك بن مروان جُدِّد سقف المسجد الحرام وجُعِل من خشب الساج . وفي عهد ابنه الخليفة الوليد بن عبد الملك أقيم بناء المسجد بشكل محكم فوق العقود المزخرفة بالفسيفساء ووسعه وكسا داخله بالرخام وجاء بالأساطين الرخامية من مصر والشام .

وفي عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، اشتريت دور حول المسجد وأضيفت إليه . وزين المسجد بزخارف من الفسيفساء والنقوش المتعددة . وزاد الخليفة العباسي المهدي مساحته حتى أصبحت ١٢٠ ألف ذراع مربع .

وفي العهد العباسي الثاني أضيف إلى المسجد أشياء كثيرة كالمنبر العظيم وأساطين الخشب والرخام .

---

(١) الآية (٩٦) من سورة آل عمران .
(٢) الآية (١٢٧) من سورة البقرة .



المسجد الحرام بمكة المكرمة

شكل (٢٢)

وفي العهد الفاطمي عُمِّرَ سقف الكعبة وثُبِّت فيها الرخام كما بُنِيَ من جديد الركن اليماني .

وفي العهد المملوكي استمرت الإصلاحات والإضافات . وفي العهد العثماني جددت المناور وأصلحت الأبواب وجدد سطح الكعبة المشرفة . واستخدمت الأخشاب الغليظة لإسناد الأروقة . وفي زمن السلطان سليم الثاني ، بوشر ببناء المسجد جميعه من جديد على أيدي أشهر المهندسين المعماريين عام ٩٨٠ هـ .

ثم تم فيما بعد إصلاح جدران الكعبة لصيانتها وحفظها من التلف . كما اهتم العثمانيون بإرسال كسوة الكعبة المشرفة .

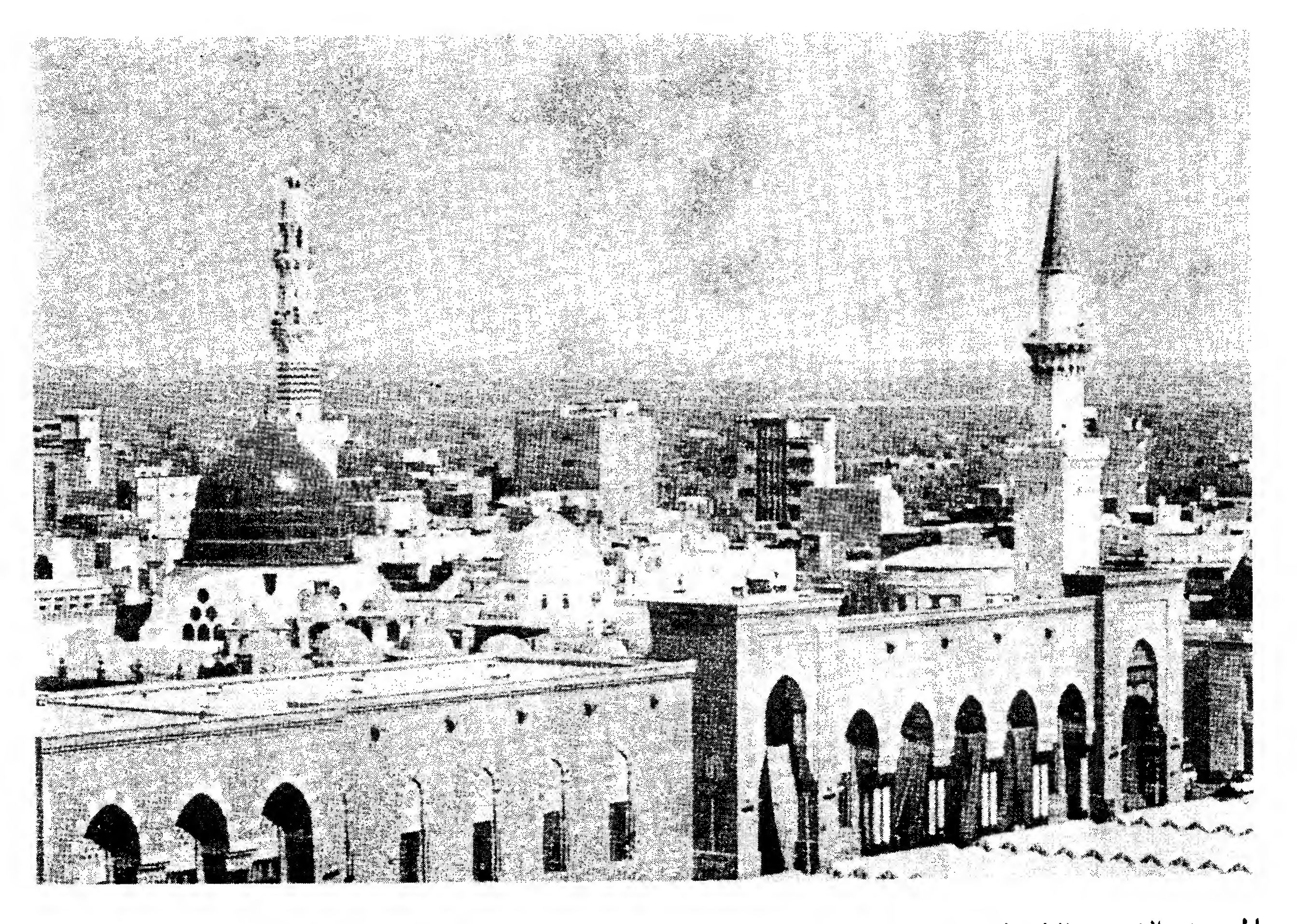
وفي عهد الدولة السعودية توالت الإصلاحات والتوسعات على المسجد الحرام حتى أصبح بناؤه على النحو الذي نشاهده عليه الآن من الروعة والفخامة والإتقان .

وفيما يلي وصف موجز لتصميم وبناء بعض المساجد مرتبة حسب العصر الذي شيدت فيه لأن في هذا ما يوضح مدى تطور فن العمارة الإسلامي ورقيه خلال كل عصر من عصور الدولة الإسلامية .

المسجد النبوي :

بنى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة مسجده بعد الهجرة إليها فوراً . وقد بناه بنفسه على أرض مربعة الشكل اشتراها من أربابها . وكان تصميم المسجد بسيطاً ، فجعل عليه الصلاة والسلام جزءاً منه مغطى للصلاة وترك جزءاً آخر مكشوفاً ، كما جعل جزءاً من الساحة مظللاً ليأوي إليه الفقراء المسلمون وسمى ذلك المكان بالصفة .

كانت جدران المسجد البالغ ارتفاعها سبعة أذرع مبنية بالطين والحجر . أما سقفه فكان من سعف النخل المغطى بطبقة من الطين ، ويرتكز السقف على أعمدة من جذوع النخل . وجعل للمسجد ثلاثة أبواب متعامدة . هذا بالإضافة إلى إقامة غرف لسكناه عليه الصلاة والسلام .



المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة — شكل (٢٣)

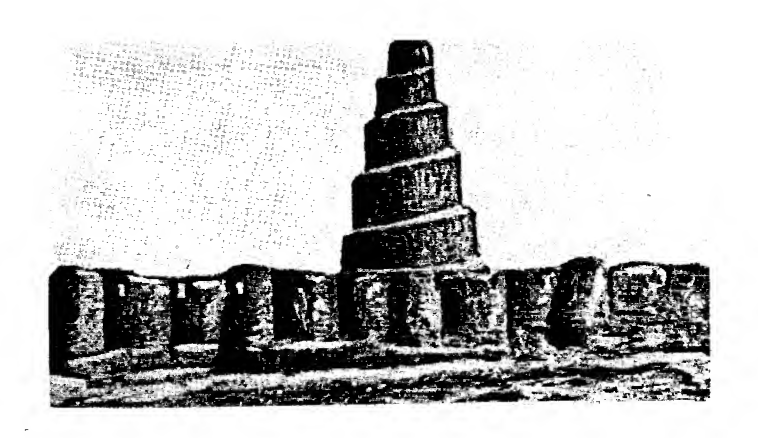
وفي السنة الرابعة للهجرة ، وبعد أن استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه ، أضاف منبراً مكوناً من ثلاث درجات وبعد فتح خيبر ، زاد عليه الصلاة والسلام في مساحة المسجد . وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصبحت مساحة المسجد ١٤٠ × ١٢٠ ذراعاً مربعاً واستعملت أعمدة من الخشب وفرشت الأرض بالحصباء وأصبح له ستة أبواب . وفي عهد عثمان بن عفان وسع المسجد بحيث أصبحت مساحته ١٥٠ × ١٦٠ ذراعاً مربعاً . واستعملت أعمدة من الحجر ، كما بنيت الجدران من الحجر أيضاً والسقف من خشب الساج . وفي عهد الوليد بن عبد الملك أدخلت زيادات وإصلاحات جعلت منه نموذجاً للمساجد ذات الصحن والأروقة وأصبح هذا النوع من التصميم ذا أثر في التطور الذي حدث على بناء المساجد فيما بعد . هذا وقد ظلت الزيادات والتحسينات تتوالى على المسجد حتى يومنا هذا .

مسجد الكوفة : بني هذا المسجد في منتصف مدينة الكوفة ، ثم أحيط بخندق بدلاً من السور . وفي جهة القبلة أقيمت مظلة على أعمدة أخذت من خرائب منزل من منازل الأمراء في الحيرة . وجدد بناؤه في عهد ولاية زياد بن أبي سفيان الذي جلب إليه أعمدة من الأهواز بعد أن ثبتت أجزاؤها بالرصاص . وكان ارتفاع سقفه نحو ثلاثين ذراعاً تحمله الأعمدة مباشرة .

وقد روعي في بنائه وجود الأروقة الموازية لرواق القبلة وكذلك الصحن المكشوف . كما روعي إدخال المحراب والمئذنة فيما بعد (الشكل ٢٥ لوحة ٢) .
بالرصاص . وكان ارتفاع سقفه نحو ثلاثين ذراعاً تحمله الأعمدة مباشرة .

ومن **العصر الأموي** الذي تطورت فيه عمارة المساجد تطوراً كبيراً ، ذلك التطور الذي بدأ في عهد عبد الملك بن مروان وبلغ ذروته في عهد الوليد بن عبد الملك ، فإننا نذكر هنا على سبيل المثال وصفاً لمسجد الصخرة بالقدس.

ولقد تميز **مسجد الصخرة** ، الذي وضع أساسه عبد الملك بن مروان عام

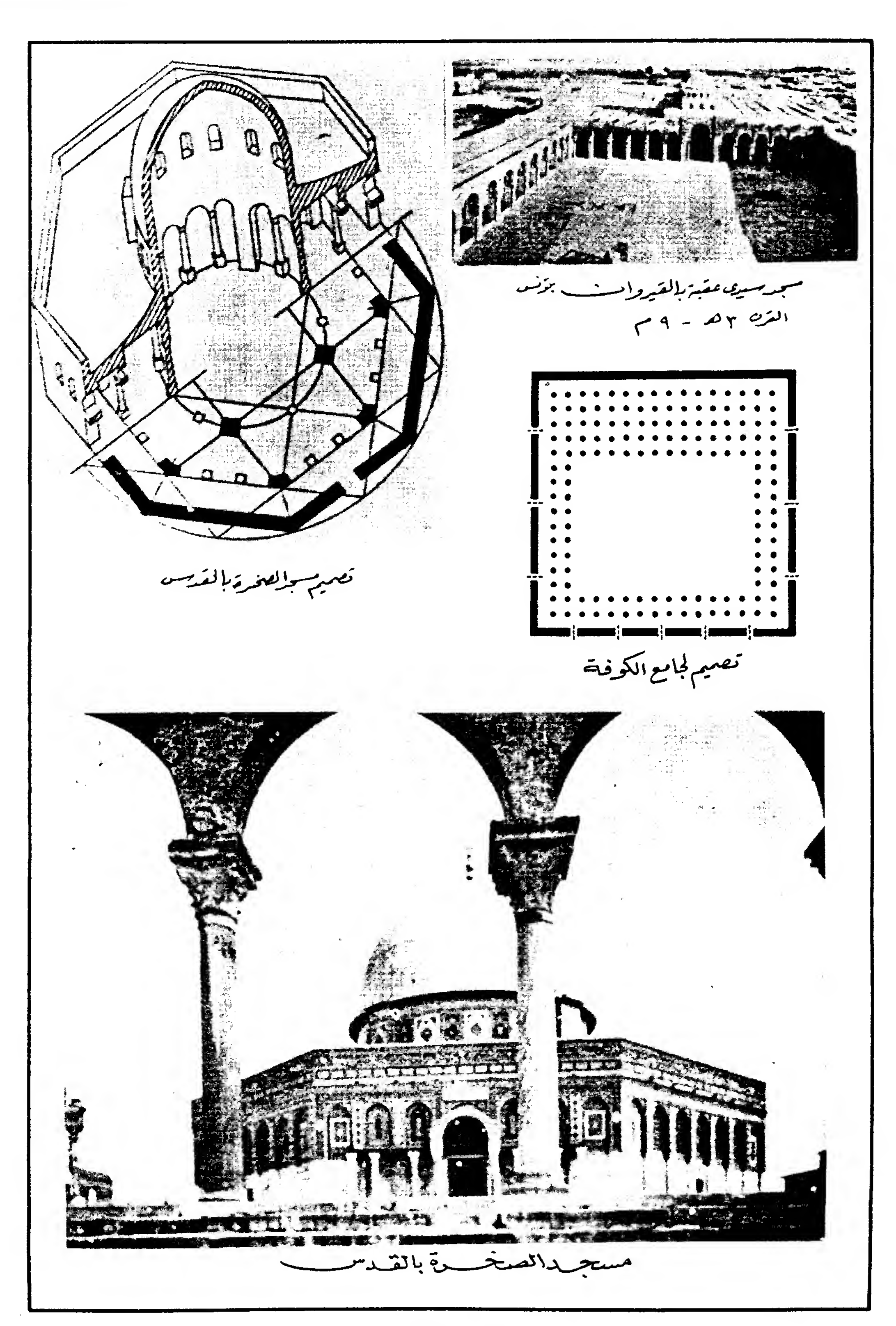


شكل (٢٤)
الجامع الكبير بسامرا

٧٢ هـ/ ٦٩١ م ، بتصميم لم يعرف من قبل في عمارة المساجد الإسلامية ، كما لم يتكرر ظهوره مرة ثانية . فهو يمتاز بجمال زخارفه وفخامتها . والمسجد مبني من الحجر والبناء مثمن الأضلاع في كل ضلع من أضلاعه الخارجية عقود مدببة تعلوها نوافذ بلغ عددها ٥٦ نافذة . بالإضافة إلى ١٦ نافذة في رقبة القبة . ويتوسط الأضلاع المقابلة للجهات الأصلية الأربع ، أربعة أبواب . ويكسو الجزء الأسفل من الجدران الخارجية ألواح من الرخام ، أما الجزء الأعلى فمغطى بطبقة من الفسيفساء أزيلت في العهد العثماني زمن السلطان سليمان القانوني . ووضع مكانها لوحات من القاشاني . وتعتبر زخارف قبة الصخرة أقدم نموذج للزخارف الأموية . وفي داخل القبة كتابة كوفية طولها ٢٤٠ متراً كتبت بماء الذهب على أرضية زرقاء .

ويبدو واضحاً من دراسة تصميم هذا المسجد (انظر الشكل ٢٥ لوحة ٣ ، ٤) الذي يعتمد على رسم دائرة داخل مثمن ، أنه ابتكار جديد ظهر في تصميم المساجد الإسلامية .

أما الخصائص الرئيسية التي تميزت بها مساجد العصر الأموي فهي :
المآذن التي أدخلت زمن معاوية بن أبي سفيان لرفع الأذان من أعلاها .


مسجد سيدي عقبة بالقيروان بتونس
القرن ٣ هـ - ٩ م
تصميم مسجد الصخرة بالقدس
تصميم لجامع الكوفة
مسجد الصخرة بالقدس

شكل (٢٥)

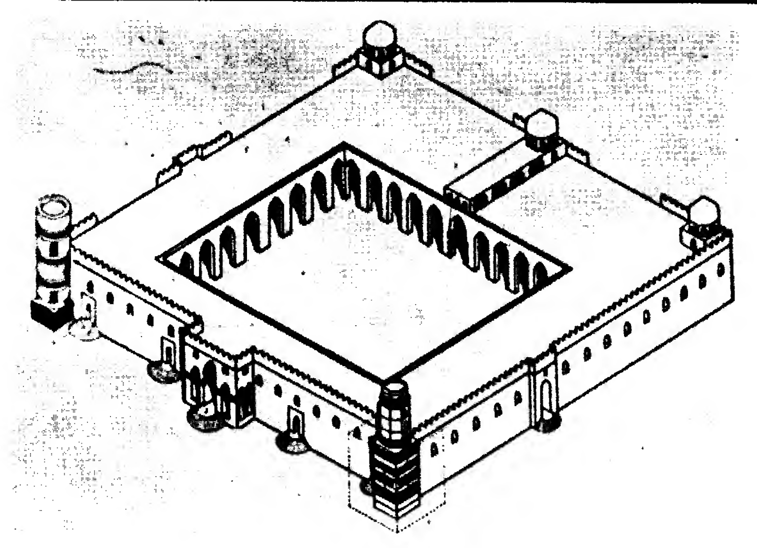
والمحراب المجوف وهو مكان الإمام الذي يؤم المصلين منه . **والمنبر** الذي يقف عليه خطيب الجمعة والعيدين . **والمقصورة** التي وجدت بجانب المحراب وكانت للخليفة معاوية .

وفي العصر العباسي ، طرأ تطور على بناء المساجد . إلا أن بعض الأساليب الأموية بقيت على حالها .

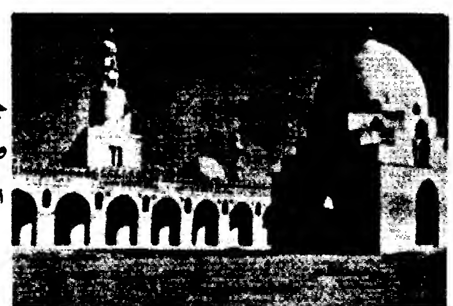
ومن المساجد التي أقيمت في هذا العصر : **الجامع الكبير** الذي شيده المنصور في بغداد . **ومسجد الرقة** الذي شيده الرشيد عام ١٥٥ هـ . **وجامع سامرا** الذي شيده المتوكل عام ٢٣٤ هـ . ويعتبر هذا المسجد من أكبر المساجد الإسلامية إذ أقيم على مساحة مستطيلة الشكل يتوسطها صحن مكشوف تحيط به أروقة أكبرها رواق القبلة . وكان طول المسجد ٢٦٠ متراً وعرضه ١٨٠ متراً ويحيط به سور من الخارج مبني من الآجر ارتفاعه عشرة أمتار ويدعمه أربعون برجاً بارزاً عن السور بارتفاع مترين . والجزء المسقوف من المسجد يرتكز على دعائم مثمنة الأضلاع متصلة بأعمدة من الرخام في الأركان . وللمسجد مئذنة تتميز بتصميم فريد من نوعه لم يظهر من قبل في عمارة المساجد الإسلامية حيث أقيمت على قاعدة مكعبة الشكل ارتفاعها ثلاثة أمتار يرتفع فوقها برج حلزوني درجاته من الخارج (انظر شكل ٢٤) .

أما في **العصر الأندلسي** فيعتبر جامع قرطبة (انظر الشكل ٢٦ لوحة ٣) الذي شيده عبد الرحمن الأول (الداخل) عام ١٦٩ هـ/ ١٧٠ هـ من أجمل العمارات الإسلامية ، وكان تصميمه مستمداً من تصميم المسجد الأموي بدمشق . ولقد تجدد بناء مسجد قرطبة . فزيدت مساحته حتى بلغت الضعف . ونتيجة لهذه الزيادات خرج تصميمه العام عن النموذج الأموي . أما أهم الزيادات فكانت إضافة سبع بلاطات إلى رواق القبلة ومئذنة كما ظهر ابتكار في هندسة القبة الموجودة فوق المحراب الذي قسمت جدرانه إلى أشكال ثمانيّة ورباعيّة متقاطعة .

هذا ويعتبر مسجد قرطبة أكبر المساجد بعد مسجد سامرا . أما في العصر



تصميم جامع الحاكم بالقاهرة



جامع ابن طولون ، الفناء الداخلي و واجهة الإيوان الغربي ، والمئذنة ، القرن ٣ هـ - ٩م ، القاهرة



جامع قرطبة من الداخل

شكل (٢٦)

الفاطمي ، فقد أقيمت عدة مساجد لا سيما في مصر حيث شيد **الجامع الأزهر وجامع الحاكم والجيوشي** وغيرها .

ب- بناء المدارس والمراصد والمستشفيات (البيمارستانات) :

بناء المدارس : بدأ العمل في بناء المدارس بشكل يتفق إلى الحد المفهوم والمتعارف عليه للمدرسة ، إبان العهد السلجوقي الإيراني . وكان يلحق بهذا البناء مسجد .

ويمتاز تصميم المدرسة عن المسجد ، بالحجرات التي أقيمت من دورين لسكن الطلبة والأساتذة . وكان من أكبر مشجعي بناء المدارس نظام الملك السلجوقي الذي أنشأ مدارس في كل من نيسابور وطوس وبغداد عام ٤٥٩هـ (١٠٦٦م). وفي **العهد السلجوقي التركي** ، استمرت العناية ببناء المدارس . وكثيراً ما كان يرتبط بها قبر بانيها . والمدارس في هذا العهد من حيث طراز البناء على نوعين :

الأول : وهو المدرسة ذات الصحن المكشوف وفيها إيوان بسبعة أروقة . وهذا النوع من مباني المدارس كان شائعاً في إيران والعراق وغيرها من بلدان العالم الإسلامي .

الثاني : وهو المدرسة التي تحتوي على قاعة مغلقة فوقها قبة وبها حوض ماء به نافورة بدلاً من الصحن المكشوف ، واقتصر هذا النوع من الطراز على تركيا السلجوقية وشاع استعماله في أنحاء آسيا الصغرى إبان القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

أما في **عهد أتابكة السلاجقة** ، فقد شجع آل زنكي فكرة تشييد المدارس في الموصل وبلاد الشام إذ انتشرت في دمشق وحماه وبعلبك والموصل وغيرها من البلدان الشامية والعراقية .

أما في العهد الأيوبي ، فقد اهتم حكام هذا العهد في مصر وسورية ببناء المدارس . واستخدم السلطان صلاح الدين الأيوبي طراز المدارس السلجوقية المنتشر في سورية ومصر ، في بناء المدارس التي قام هو بتشييدها . وكان تصميم

المدرسة ينحصر في المبنى المستطيل الذي يتوسطه فناء كبير مربع الشكل ويتوسط كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان كبير .

ومن المدارس التي شيدت في العصر الأيوبي : المدرسة الناصرية ، والصلاحية ، ومدرسة صلاح الدين في حلب وغيرها .

وفي **العهد المغولي التيموري** ، انتشر بناء المدارس في كثير من المدن مثل سمرقند وهراة ، وخَرْجَرْد قرب الحدود الأفغانية والتي شيدها المهندس جوهر شاد عام ٨٤٩ هـ واتبع في البناء الطراز السلجوقي . ومبنى المدرسة (انظر الشكل ٢٧ لوحة ٢) مؤلف من صحن مربع تحف به أربعة إيوانات مقبّبة وعقود مدببة وتوجد ردهة أمام الصحن مؤلفة من ثلاثة أماكن مقبّبة ومبنى مرتفع للبوابة في الواجهة ومئذنتين مستديرتين في الزاويتين .

وفي المغرب والأندلس ، انتشر بناء المدارس بشكل بارز في عهد الموحدين . والبناء يتكون من فناء مستطيل تحيط به مبان من طابقين ، وتضم قاعة للدرس وغرفاً لسكن الطلبة . وقد كثر عدد مباني المدارس في فاس وغرناطة .

وفي **العهد المملوكي** ، شيد العديد من المدارس لا سيما في عهد السلطان بيبرس ، والسلطان قلاوون الذي ألحق بمبنى المدرسة التي بناها عام ٦٨٣ هـ بيمارستاناً . ومن ميزات مباني المدارس في هذا العهد الممر الطويل الذي يربط المدرسة بالمسجد . ومن أروع المباني الدينية في هذا العهد مسجد السلطان حسن ومدرسته وقد استغرق بناؤهما تسع سنوات . وهناك كذلك مدرسة السلطان قايتباي ومسجده وبها قاعات للدراسة وغرف لسكن الطلاب .

وفي **العهد العثماني** ، اهتم العثمانيون ببناء المدارس التي كانت تلحق بالمساجد . ومن أمثلة ذلك المدرسة الملحقة بمسجد السلطان سليم .

أما في **الهند** ، فقد كثرت العمائر الدينية والمساجد . ومن أبرز العمائر في الهند التى بلغت قمة الفن المعماري الإسلامي المغولي في الهند ممثلة في تاج محل (انظر الشكل ٢٧ لوحة ١) الذي شيده الإمبراطور شاه جهان عام ١٠٣٩ هـ لزوجته ممتاز محل .

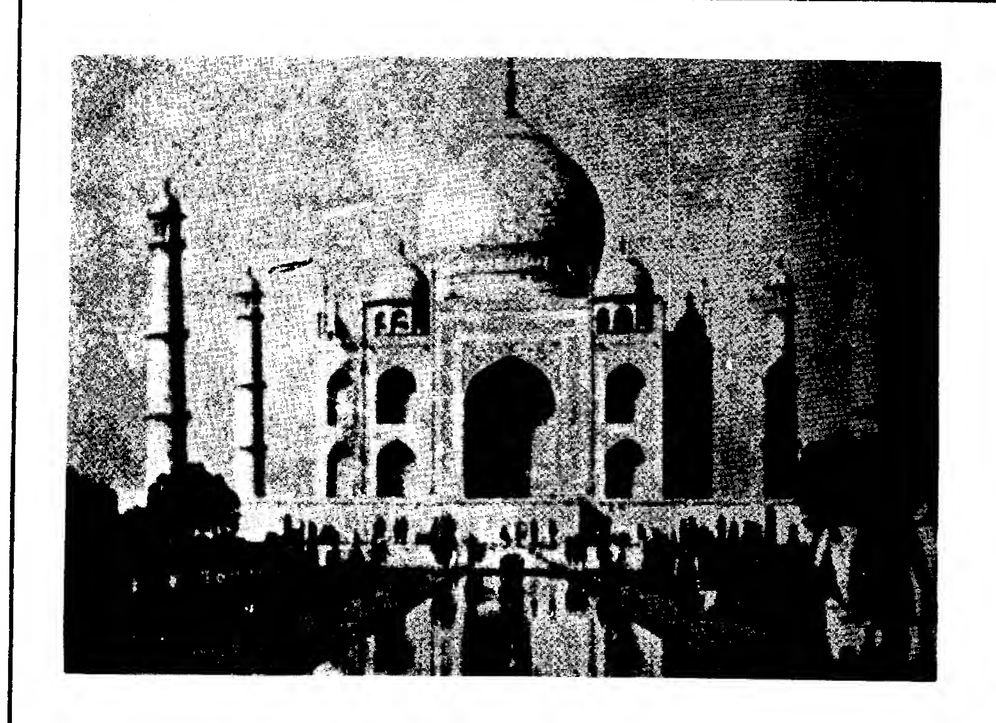
هذا بصدد المدارس أما بالنسبة **للمراصد** ، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره من المراصد التي أقامها المسلمون ، فقد أقاموا مراصد أخرى في بلاد متعددة مثل : مرصد ابن الشاطر في الشام . ومرصد الدينوري بأصفهان ومراصد عامة وخاصة بمصر والأندلس وأصفهان .

وأما بالنسبة **للبيمارستانات** (المستشفيات) فقد كانت منتشرة في كثير من البلدان الإسلامية . فكان منها الثابت والمتنقل وكان يلحق بكل مستشفى ، كما ذكر في الكلام عن الأدوية ، سواء أكان ثابتاً أو متنقلاً صيدلية خاصة لتزويد المرضى بالعلاج اللازم .

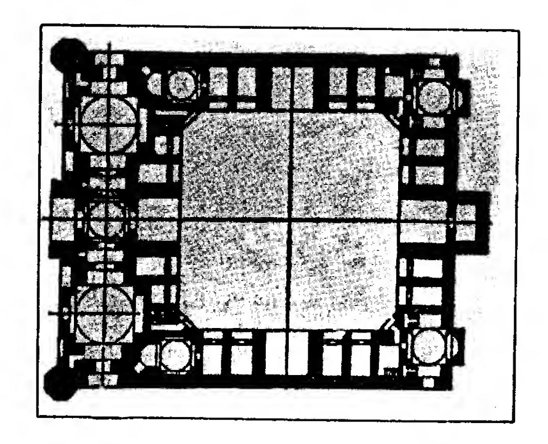
ولقد عني المسلمون عناية فائقة بالمستشفيات فزودوها ــ بالإضافة إلى العلاجات ــ بالأطباء وأدوات الجراحة اللازمة . ومن يتأمل كتابات ابن بطوطة والمقريزي وغيرهما يخرج بصورة واضحة جداً في أن مستشفيات (مشافي) المسلمين لم تقلّ في الاستعداد والنظام والعناية عن المستشفيات الحديثة . كما فتحت أبوابها لجميع الناس على حد سواء . وكانت المستشفيات تضم جناحاً خاصاً بالنساء غير الجناح الخاص بالرجال . وكل جناح من هذين الجناحين يضم أقساماً مختلفة باختلاف الأمراض : فهناك قسم للعيون وآخر للكسور وثالث للجراحة وغيرها .

هذا وقد وجدت عند المسلمين فكرة إلحاق كليات الطب بالمستشفيات حتى تكون دراسة طلبة الطب عملية واقعية . وكان لا يحق لأحد أن يمارس مهنة الطب إلا بترخيص من الدولة . وكان على طالب الطب ــ كما كان ينصح علي بن العباس المتوفى عام ٩٨٠م ، طلاب الطب بالملاحظة ودراسة الأمراض دراسة تجريبية عملية ــ أن يزور المستشفيات (البيمارستانات) ودور العلاج وأن يلاحظ باستمرار أحوال وظروف من هم فيها وهو برفقة أعظم أساتذة الطب ذكاء . وأن يكثر من الاستفسار عن حالة المرضى والأعراض الظاهرة عليهم .

هذا وكان أول بيمارستان أنشئ في الدولة الإسلامية كان زمن الوليد بن عبد الملك ثم تطور في زمن هارون الرشيد في بغداد . ثم أخذت المستشفيات تنتشر في جميع أرجاء



التاج محل / أجرا ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م - الهند



تصميم للمدرسة في خرجرد

شكل (٢٧)

الدولة الإسلامية . وقد أسس هذا البيمارستان[1] ، ووضعت له النظم بحيث كفلت إدارته والإشراف عليه . ولقد بذل سنان بن قرة جهداً كبيراً في حسن إدارته .

وهناك بيمارستان دمشق الذي شيد عام ٧٠٦م وهو أعظم المستشفيات التي عرفها العالم في العصور الوسطى . كما أقام أحمد بن طولون أول مستشفى في القاهرة حوالي عام ٨٧٢م .

وللإشراف على أحوال المرضى في الدولة ، عيَّن علي بن عيسى الوزير الطبيب عام ٩٣١م هيئة من الأطباء الموظفين للطواف على مختلف أرجاء الدولة وعلاج المرضى كما خصص بعض الأطباء للتردد على السجون وعلاج من فيها .

هذا ولم يكتف المسلمون بالاهتمام بالطب البشري فقد اهتموا كذلك بالطب البيطري وقد اشتهر في أيام الخليفة المعتضد عام (٨٩٢ — ٩٠٢م) رجل اسمه يعقوب بن أخي حزام بالطب البيطري ووضع رسالة سماها « الفروسية وشياه الخيل » ضمنها معلومات عن الطب البيطري ، هذا ولقد عرف المسلمون كل هذا وما زالت أوربا لا تهتم بالمرضى ويموت الآلاف منهم لقلة العلاج أو العناية الطبية .

جـ ـ القصور :

بعد أن انتهى عصر التقشف في الملبس والمأكل والمشرب والسكن إبان عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين من بعده ، أخذ خلفاء **بني أمية** يعنون ببناء القصور والقلاع . فقد أنشأ بعضهم القصور في الحيرة وفي مواقع من الصحراء **بالأردن** حيث جلبوا لها الماء من مسافات بعيدة . ومن بين **القصور الأموية** في الأردن : **قصر عمره** الذي بناه الوليد وقصر خربة المعجز بالقرب من أريحا بفلسطين الذي بناه هشام بن عبد الملك . وهناك قصور أخرى مثل المنية قرب بحيرة طبريا والرصافة وغيرهما

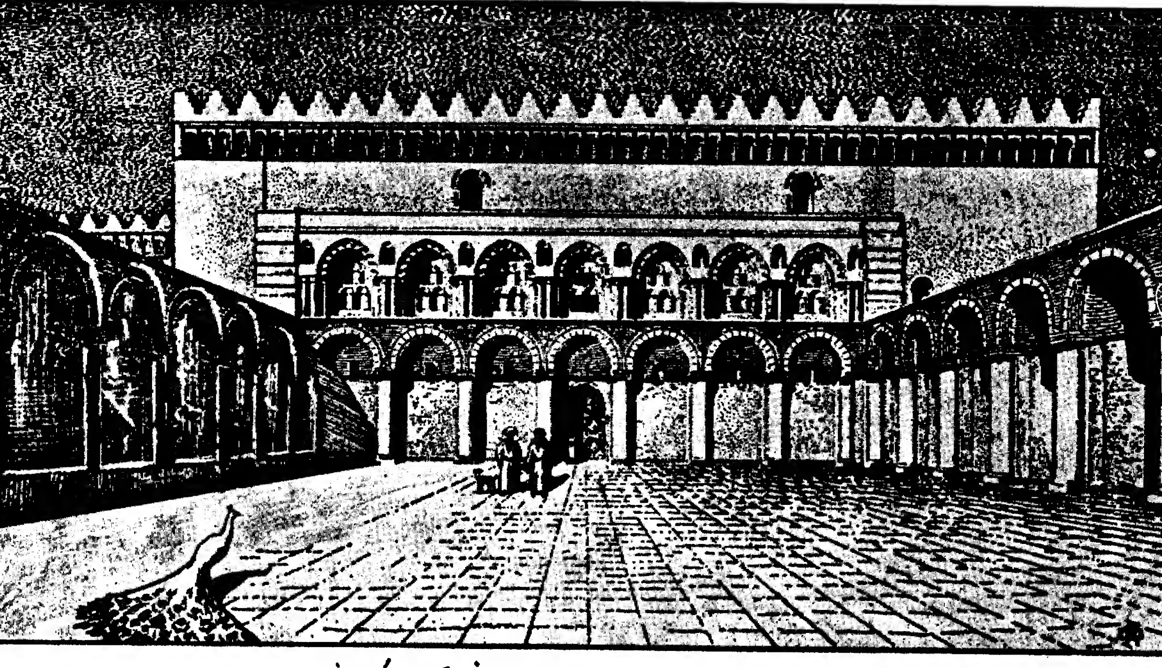
---

(١) بيمارستان هي كلمة فارسية مركبة من لفظين « بيمار » أي مريض و « ستان » بمعنى موضع .

أما قصور العهد العباسي : فأبرزها قصر أُخَيْضِر الذي بناه عيسى بن موسى حاكم الكوفة عام ١٦١ هـ . في عهد الخليفة موسى الهادي . **وقصر بلكوارا** الذي بناه الخليفة المتوكل لابنه المعتز قرب سامرا . **والقصر الذهبي** الذي بناه أبو جعفر المنصور ببغداد **وقصر الرقّة** الذي بناه الرشيد **والجوسق** في سامراء الذي بناه المعتصم . وغيرها كثير .

ولوجود توافق في طرز التصميم العام لهذه القصور نكتفي بوصف أحدها وهو قصر أخيضر .

قصر أخيضر : بني هذا القصر على نهر الفرات وعلى بعد ٨٠ كيلومتراً من الكوفة . وقد أقيم على مساحة من الأرض مستطيلة الشكل ١٧٥ × ١٦٩ م . ويحيط بالقصر سور متين يوجد في كل زاوية من زواياه برج أسطواني الشكل وبين كل زاوية وأخرى عشرة أبراج نصف دائرية . هذا عدا الأبراج التي تحف بالبوابة الرئيسية التي تقع في وسط السور الشمالي والتي زودت بمختلف وسائل الدفاع اللازمة . علماً بأنه توجد للسور وفي منتصف كل ضلع بوابة .



تصميم حديث للصحن الشرقي في قصر أخيضر

ويلي البوابة ممر مغطى بقبو وخلفه حجرة لها قبة . ثم يأتي البهو الكبير وعلى يمينه ويساره غرف تستعمل كمستودعات . وخلف الغرف اليمنى أقيم المسجد . أما خلف الغرف اليسرى فتوجد غرف أخرى ذات قباب بارتفاع ثلاثة أدوار . وفي نهاية البهو الكبير توجد قبة يليها ممر يؤدي إلى قاعة العرش .

تبلغ مساحة البناء في هذا القصر ١١٢ × ٨٢ م . وارتفاع جدرانه الخارجية ١٧ متراً مزودة بالأبراج . أما مواد البناء فكانت من الحجر الجيري والجص . والقصر غني بالعناصر المعمارية والزخارف المتنوعة الأشكال وهذا ما جعله من منجزات الطراز الأول من فن العمارة الإسلامي .

أما **قصور العصر الأندلسي** في مختلف أدواره وكذلك العصر المغربي : فقد كثر تشييدها وتنافس الحكام في العناية بها وتشييدها على أرفع مستوى وأروعه . ومن بين تلك القصور : قصر الخلافة في **قرطبة** ،**وقصر الزهراء** الذي شيده الخليفة الناصر والذي امتاز بفخامته وزخارفه الجميلة حتى إن القاضي منذر بن سعيد البلوطي الذي سبق ذكره ، قد اعترض على كل ما أدخله عليه الخليفة من مظاهر الفخامة .

وهناك قصور ملوك الطوائف ومن بينها القصور التي بناها المعتمد بن عباد ومن جاءوا بعده في إشبيلية . كما شيد هؤلاء الملوك القصور في كل من طليطلة وسرقسطة .

أما في الشمال الأفريقي فلم يُعْنَ حكامه لا سيما المرابطون بالقصور لما عرف عنهم من التقشف وكانت لديهم بدلا من القصور ما يعرف باسم الرباط إلا أن الموحدين قد اهتم حكامهم ببناء القصور في الأندلس لا سيما في عاصمتهم إشبيلية . أما أبدع الأمثلة على بناء القصور في تلك العصور فكان قصر الحمراء في **غرناطة** الذي بني في عهد بني نصر على ربوة عالية تشرف على العاصمة . ويتضح من تصميم هذا القصر أنه يتكون من ثلاث مجموعات من المباني يتوسط كل مجموعة فناء . تعرف المجموعة الأولى باسم « المشوار » . وتمتد مبانيها من الغرب إلى الشرق ، ويتوسط المبنى بهو عرف باسم « العريف »

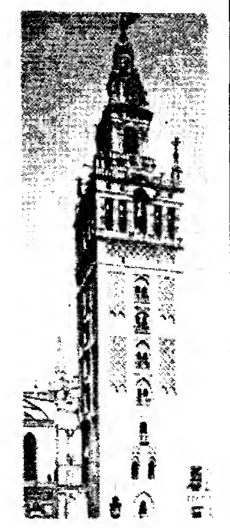
وهذا الجزء هو المكان المخصص للموظفين الذين يعاونون الحاكم في تدبير شؤون البلاد . وتعرف المجموعة الثانية باسم « الديوان » وتمتد مباني هذه المجموعة من الشمال إلى الجنوب . وهذا الجزء مخصص للاستقبالات الرسمية . ويشمل مساحة البركة أو بهو « الريحان » وقاعة البركة وقاعة العرش أو قاعة الشعراء . وهذه المجموعة تكاد تكون مستقلة عن المجموعة الأولى . أما المجموعة الثالثة فتمتد مبانيها من الغرب إلى الشرق كذلك والمدخل من الجنوب . ويتوسط مباني هذه المجموعة بهو « السباع » وهو أشهر جزء في القصر . ويتوسط هذا البهو نافورة تتكون من حوضين من الرخام الأسفل كبير والأعلى صغير محمول على ١٢ عموداً قصيراً ترتكز على ١٢ أسداً . كما توجد بالواجهات الأربع التي تحيط بالبهو إيوانات تقوم على أعمدتها الرشيقة ، عقود نصف دائرية مغطاة بالنقوش والزخارف . وكان هذا الجزء مخصصاً للحريم ولا يدخله إلا السلطان وأسرته وحريمه وخدمه . ويؤدي بهو السباع إلى حديقة القصر . ولجمال هذا القصر وفخامته ، أصبح نموذجاً يحتذيه حكام الأندلس في قصورهم .

أما في الهند فقد دمج المهندسون المسلمون بين فن العمارة الهندي والثقافة المعمارية الإسلامية . وقد برز هذا الاتجاه في عهد السلطان **أكبر** الذي بنى له مدينة جديدة قرب أكرا عام ٩٧٧ هـ وأوجد فيها القصور ودواوين الحكومة والمباني العامة .

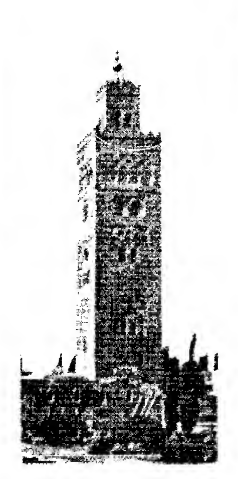
ثانياً : خصائص الريازة الإسلامية (العمارة الإسلامية) :

تتميز العمارة الإسلامية بشخصيتها المستقلة سواء أكان ذلك نتيجة للتصميم أم للعناصر المعمارية . فمن ناحية التصميم فقد نبغ المهندس المسلم في أعمال الهندسة المعمارية ، حيث وضع الرسوم والتفصيلات الدقيقة اللازمة للتنفيذ . كما وضع النماذج المجسمة إلى جانب المقاسات الدقيقة . وهذا كله يتطلب تعمقاً في العلوم الرياضية والميكانيكا . ومن خلال ما قد سبق من أنواع المباني المتعددة التي شيدها المسلمون ، يتضح مدى ما توصل إليه مهندسوهم في

نماذج من المآذن



مئذنة الجامع الكبير
بإشبيلية



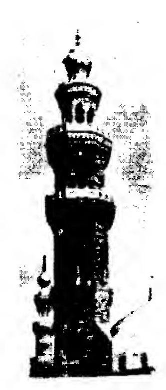
مئذنة جامع
كوتبية بمراكش
العصر المغربي الأسباني - القرن ٦ هـ



مئذنة جامع
سيدي عقبة بالقيروان



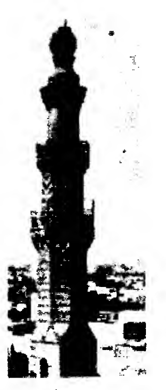
مئذنة جامع
أحمد بن طولون
بالقاهرة



مئذنة
جامع السلطان حسن



مئذنة جامع
منجك اليوسفي

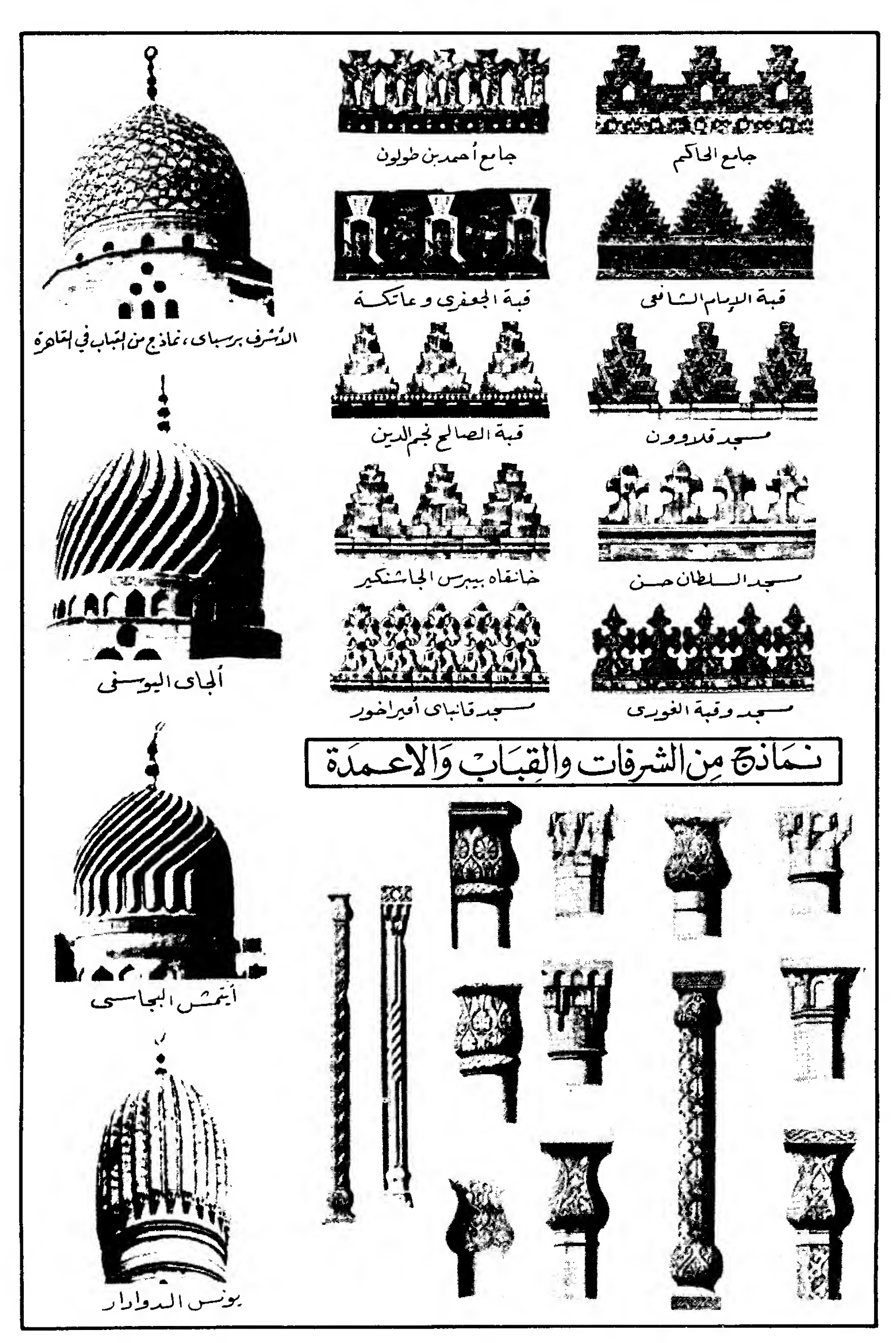


مئذنة جامع
الأمير أحمد عتمش



مئذنة
جامع الحاكم

شكل (٢٩)


نماذج من الشرفات والقباب والأعمدة
جامع الحاكم
جامع أحمد بن طولون
قبة الإمام الشافعي
قبة الجعفري و عاتكة
مسجد قلاوون
قبة الصالح نجم الدين
مسجد السلطان حسن
خانقاه بيبرس الجاشنكير
مسجد وقبة الغوري
مسجد قانباي أميراخور
الأشرف برسباي ، نماذج من القباب في القاهرة
ألجاي اليوسفي
أيتمش البجاسي
يونس الدوادار

شكل (٣٠)

مجال هندسة العمارة .

أما بالنسبة للعناصر الخاصة بفن العمارة الإسلامية فهي تتجلى في الأمور التالية :

١ ـ **الأعمدة وتيجانها** : ومع أن المسلمين استخدموا في مبانيهم أعمدة وتيجان المباني المتداعية أو المهجورة ، إلا أنهم فيما بعد صمموا أعمدة وتيجاناً خاصة بهم لم تكن مشتقة من أي طراز آخر على حد قول مسيو. ج . دوبرانجه . وأبرز شاهد على تلك الأعمدة ما هو موجود منها في قاعة الأسود بقصر الحمراء . وبمجرد النظر إلى أشكال الأعمدة وتيجانها في الشكل (٣٠) تتضح طرز بعض أنواع الأعمدة الإسلامية والتي منها الأسطوانية والمضلعة وتيجانها الرمانية أو الناقوسية .

٢ ـ **الأقواس (العقود)** : كانت الأقواس في العهود الإسلامية مصممة إما مدببة من أعلى أو على شكل حذاء الفرس أي أكثر من نصف دائرة . وهذا النوع من الأقواس والتطورات التي طرأت عليها هي طرز عربية خالصة ، وفي الشكل السابق أيضاً طائفة من تلك الأقواس .

٣ ـ **المآذن** : كانت إقامة المآذن ضرورة لرفع الأذان من أجل الإعلان عن حلول وقت صلاة الجماعة . أما أشكال تلك المآذن فهي تختلف باختلاف البلدان التي أقيمت فيها ، فهناك المآذن المخروطية في بلاد فارس والمربعة في الأندلس وأفريقيا وأسطوانية ذات مطفأة في أعلاها بتركيا والمآذن ذات الدرج الحلزوني من الخارج في العراق وأشكال متنوعة في مصر وغير ذلك كثير (أنظر نماذج من المآذن في الشكل (٢٩) .

٤ ـ **القباب** : ابتكر المسلمون طرزاً من القباب خاصة بهم . فمنها القباب الهيف (ذات الخصر النحيف) ومنها النصف دائرية أو الإهليلجية (البيضاوية) أو الأسطوانية أو المخروطية أو المقرنة وغير ذلك كثير (انظر الشكل ٣٠) . وكما أقام المسلمون **أنواعاً** متعددة من القباب من حيث الشكل ، أقاموا **أنواعاً** متعددة من حيث الارتفاع .

٥ ـ **المُقَرْنَصَات (المتدليات)** : المقرنصات هي زخارف معمارية

إسلامية تشبه خلايا النحل وتجدها بارزة ومدلاة في طبقات بعضها فوق بعض في واجهات المساجد أو تيجان الأعمدة ، أو في المآذن أو الأقواس أو في زخرفة جلود المصاحف .

ويقول غوستاف لوبون : « لقد انفرد العرب في المقرنصات ولم توجد عند أية أمة حتى الآن » .

٦ ـ **النقوش ودقائق الزخارف :** تمتاز الزخارف الإسلامية بطابعها الخاص ويعرفها المرء بمجرد النظر إليها . وهذه الزخارف مؤلفة من رسوم هندسية ممزوجة بكتابات بالخط العربي الذي كان له شأن كبير في الزخرفة . أما النقوش الإسلامية فكانت إما أن تنقش في الحجر أو تصب في قوالب خاصة بها .

٧ ـ **الزخارف الملونة :** لقد فضل العرب بأذواقهم الفنية الغزيرة ، ملون المباني على بيضها . وكانت نقوشهم مغطاة بألوان يدل تنسيقها على ذوق سليم ومعرفة كبيرة في الألوان .

كانت الجدران الداخلية والخارجية للمساجد مستورة بأزهى الألوان ، وقد استعمل المسلمون من الألوان بشكل خاص : اللون الأحمر ، والأزرق ، والأصفر (الذهبي) والأخضر .

أسئلة

أجب عن الأسئلة التالية :

١ ــ تتبع تطور بناء كل من المسجد الحرام والمسجد النبوي .

٢ ــ عدّد الخصائص الرئيسية التي تميزت بها مساجد العصر الأموي .

٣ ــ وضّح مدى اهتمام الحكام المسلمين في العصور المختلفة ببناء كل من المدارس والبيمارستانات .

٤ ــ ما أشهر القصور التي شيدت في العصور الإسلامية المختلفة ؟ .

٥ ــ « تميزت العمارة الإسلامية بخصائص معينة » . اشرح ذلك بإيجاز .

٦ ــ علّل لما يلي :

أ ــ العناية ببناء المساجد .

ب ــ إلحاق كليات الطب بالمستشفيات .

جـ ــ بناء القصور منذ العهد الأموي .

الفصل الثالث
تخطيط المدن الإسلامية

١ ـ منشآت المدن الإسلامية

أما وقد استعرضنا أهم خصائص فن العمارة الإسلامي ، فإننا نأتي في هذا الفصل على تخطيط المدن والتطورات التى طرأت على بنائها وفيما يلي أهم ما اشتملت عليه المدن من منشآت كالمساجد التي سبق التحدث عن طرز بنائها . **والمدارس** التي كانت في مساجد في نفس الوقت ، بمعنى ما يسمى بالاصطلاح الحديث « المدرسة المسجد » ثم اتسع بناء المدرسة فأصبحت تتألف من دورين فشملت بذلك مساكن للطلاب والمدرسين . **والأربطة** وهي نوع من الثكنات العسكرية ، وهذه تشتمل على الأبراج والأسوار وساحات التدريب ومساكن المجاهدين . **والأسبلة** وهي الأماكن التي يشرب منها المارة عند العطش وتكون هذه إما مستقلة أو ملحقة بالمساجد أو المدارس . **والخانات** وهي التي يقيم بها المسافرون فهي بمثابة الفنادق . وكانت هذه الخانات ذات بوابات ضخمة وحواصل واسعة تستخدم لإيداع المتاع وفوقها أماكن لسكن المسافرين . **والحمامات** وهذه كانت منتشرة في جميع المدن وتقسم إلى ثلاثة أقسام حسب درجة حرارة المياه ، وكانت تسخن المياه بإيقاد النار تحت أرض البناء كما كانت المياه تجري في أنابيب في الجدران . **والمساكن** الخاصة كالقصور والبيوت . **والأسواق** والتي كانت تركز في أماكن معينة وتمتاز بعقودها الضخمة .

هذا بالإضافة لما يتطلبه وجود هذه المنشآت كلها في مواقع حسب تخطيط معين بعد تحديد الشوارع والساحات والحدائق وغيرها .

ويجلب الماء إلى المدن من الينابيع والأنهار بواسطة شبكة من القنوات المائية والتي تمر فوق الجسور والقناطر المرتفعة وذلك حتى يزداد ضغطه ويوصل إلى

جميع المباني المقامة داخل المدينة مهما بلغ ارتفاعها آنذاك . وحتى تبقى مياه الأنهار تسير بانتظام ويسر ، فقد عني بكريها وتنظيف مجاريها كما عملت المقاييس لمعرفة منسوبها وكان للفاطميين باع طويل في هذا المضمار . هذا ولم تستخدم مياه الأنهار للشرب فقط بل لسقاية الحدائق والمزارع وسقاية الماشية وتزويد المساجد والمدارس والبيمارستانات والحمامات بالمياه وبشكل مستمر .

٢ - عوامل قيامها :

يقصد بالمدن الإسلامية تلك المدن التي بناها المسلمون لأنفسهم في كثير من الأقطار التي فتحوها كالعراق والشام ومصر والشمال الأفريقي والأندلس وغيرها . ومن بين تلك المدن ما بني في أول الفتح الإسلامي لتحقيق أغراض معينة سواء عسكرية أو دينية أو إدارية أو اجتماعية أو اقتصادية ومن هذه المدن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغيرها . ومنها ما بني ليكون عاصمة لدولة إسلامية عند تأسيسها أو رغبة من المؤسس في نقل العاصمة إليها لأغراض معينة ومن هذه المدن : بغداد ، والزهراء ، والقاهرة ، ومراكش ، وفاس ، والرباط وغيرها . ومن تلك المدن ، التي اتخذت عواصم أو مراكز إسلامية هامة ، ما كان قائماً إلا أنه زيد في عمارتها وازدهارها مثل دمشق وَقرطبة وغيرهما .

٣ ـ تطورها :

لقد خططت المدن التي بنيت في بداية الفتح الإسلامي بشكل مبسط . فهناك المسجد في وسط المدينة ومنه تتفرع الطرق والشوارع المؤدية إلى أماكن السكن . وهناك دار الإمارة وحصون الجنود . هذا بالإضافة إلى إقامة سور يحيط بالمدينة ليقيها هجمات عدوانية مباغتة ، ولم يهمل المخطط توفير آبار الماء داخل سور المدينة .

أما مواد البناء فكانت من الطين في بادئ الأمر في كثير من المدن الإسلامية التي أنشئت في بداية الفتح .

إن البساطة في التخطيط والبناء في بداية الأمر ، قد تحولت إلى ضخامة

وروعة وجمال خلال عهود الدولة الإسلامية ، كما يبـدو ذلك مـن المسـاجد والقصور والمباني المتعددة والمتنوعة الأخرى التي أقامها المسلمون عبر عهودهم في مدنهم التي بلغت من الرقي والازدهار شأواً عظيماً في التاريخ . كما يبـدو مـن الحدائق والمتنزهات والاعتناء بتوفير المياه وإقامة الجسور والتـرع ووسـائل الـري وكري الأنهار وغير ذلك . ومن بين تلك المدن : دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة والرباط وغيرها .

أهم المدن الإسلامية :

١ ــ البصرة : هي أقدم المدن التي بناها المسلمون ولاتزال باقية حتى اليوم . وقد اختطها عتبة بن غزوان في مكان على الضفة الغربية لنهر الفرات بحيث لا يحول الماء بينها وبين مقر الخلافة في المدينة المنورة . جعـل المسـجد في الـوسط وبجواره دار الإمارة ثم دور السكن التي كانت تكون مجمعـات بحيث تختص كل قبيلة بمجمع خاص بها .

بنيت البصرة بالقصب أولاً عام ١٤ هـ . ثم بنيت باللبن سنة ١٦ هـ بعد إذن الخليفة عمر بن الخطاب تفادياً للحريق . ويختـرق المدينـة شـارعها الأعـظم وجعل عرضه ٦٠ ذراعاً . أما بقية الشوارع فكان عرضها ٢٠ ذراعـاً . وعـرض كل زقاق سبعة أذرع . وفي وسط كل حي مكان فسيح يستخدم كمرابط للخيـول ومقابر للموتى .

ولموقع البصرة التجاري المتوسط بين بلاد الشام وبـلاد فـارس بـالإضافة إلى كونها ميناء العراق ، أسرع إليها العمران واتخذتها الخلافة مقراً لإمـارة العـراق إبان العهد الأموي . ولقد اتسعت البصرة في ذلك العهد حتى إنها شغلت بقعة من الأرض مساحتها ٣٦ ميلاً مربعاً .

وفي العهد العباسي أثرت البصرة بسبب مركزها التجـاري فـكانت تجـارتها تمتد من الهند والصين شرقاً إلى أقصى بلاد المغرب غرباً وحتى الحبشة جنوباً . وكانت ترسو في مينائها مئات السفن التجارية وهي تحمل أصـناف السـلع مـن الأقمشة والعطور والمواد الطبية وغيرها .

وبسبب ثراء أهل البصرة والقادمين إليها ذلك الثراء الذي جاءهم عن طريق التجارة ، شاد الأثرياء القصور وأحاطوها بالحدائق وأنشأوا الميادين والبرك .

وما قيل عن اتساع البصرة وكثرة أنهارها ومزارعها وعمرانها يوضح مدى ما نعمت به تلك المدينة في العهدين الأموي والعباسي من رخاء وتقدم وازدهار .

٢ ــ **الفسطاط** : هي أول المدن الإسلامية التي بنيت في القطر المصري . وقد بناها عمرو بن العاص عام ٢١هـ . وذلك بعد أن تم له فتح الإسكندرية وإجلاء الروم عنها وطردهم من مصر .

استشار عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب في بناء الفسطاط فأذن له شريطة ألا يفصل بينها وبين مقر الخلافة ماء . فاختار عمرو بن العاص موقع الفسطاط في مكان بين النيل والمقطم تكثر فيه أشجار النخيل والكروم وبين القاهرة ومصر القديمة . وهذا المكان سهَّل المواصلات مع حاضرة الخلافة بالإضافة إلى أنه يشرف على قسمي الديار المصرية الشمالي والجنوبي . ولم يكن في ذلك المكان من بناء سوى حصن بابليون حيث كانت ترابط القوات الرومية .

أما في التسمية بمدينة الفسطاط ففي ذلك أقوال كثيرة : منها أن عمراً بن العاص لما أراد السير لفتح الإسكندرية ، أمر بفسطاطه (خيمته) أن يرفع . فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه . فقال : لقد أحرمت اليمامة بجوارنا . أقروا الفسطاط في مكانه حتى تطير فراخها . فأقر الفسطاط في مكانه وأطلق على ذلك المكان اسم الفسطاط . وفي رواية أخرى أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط . ويقول المؤرخ بطلر : إن لفظ مدينة الفسطاط مأخوذ من كلمة « Fossatum » ومعناه مدينة حصينة .

ولما عاد عمرو بن العاص من فتح الإسكندرية ، وجد الفسطاط لا يزال منصوباً فبنى في موقعه مدينة الفسطاط . وقد وضع المخطط لتلك المدينة أربعة من قواد عمرو بن العاص . وخصصوا مواقع لكل واحدة من القبائل العربية التي سكنت الفسطاط .

هذا ولقد ظلت الفسطاط قاعدة الديار المصرية حتى بداية العهد العباسي حيث أقيمت مدينة العسكر والتي أقيم فيها مسجد جديد عرف بمسجد العسكر . ومع ذلك فقد استفادت الفسطاط لأن مباني المدينتين اتصل بعضها مع بعض . وهذا مما زاد مساحة الفسطاط وزاد عمرانها . وفي العهد الطولوني اختار أحمد بن طولون موقعاً شرقي العسكر والفسطاط وشيد عليه مسجده القائم حتى اليوم كما شيد قصره وقسم الموقع بين قطائع جنده فسمي ذلك المكان بالقطائع . وبعد انتهاء الدولة الطولونية عاد الاهتمام بالفسطاط والعسكر وبقيت المدينة المكونة لهما عامرة حتى إنشاء القاهرة في العهد الفاطمي التي حلت محلها .

٣ ــ **القيروان** : أسسها عقبة بن نافع زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان وذلك بعد أن تم له النصر على البربر . وذلك ليحمي جند المسلمين وأموالهم من عدوان السكان المحليين . لقد اختار عقبة موقع القيروان لبعده عن ساحل البحر وفي هذا ما يقي المسلمين غارات الروم البحرية .

جعل عقبة المسجد ودار الإمارة في الوسط واختط الأهلون بيوتهم حولهما . وكان السكان أمشاجاً من قريش وسائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان . بالإضافة إلى فريق من فُرْس خراسان . وبلغت المدينة أقصى اتساع لها في العهد العباسي واستمرت قائمة حتى يومنا هذا .

٤ ــ **بغداد** : بنى أبو العباس السفاح ، مؤسس الدولة العباسية ، مدينة سماها الهاشمية واتخذها عاصمة له وتقع بالعراق بالقرب من الأنبار على نهر الفرات . ولما تولى الخلافة من بعده أبو جعفر المنصور ، وجد أن الهاشمية لا تصلح لأن تكون عاصمة للدولة العباسية ، وأنه لا بد من بناء عاصمة جديدة تكون في وسط أرض يرويها نهر دجلة والجداول التي تستمد مياهها من نهر الفرات ، وذلك بالإضافة إلى سهولة مواصلاتها مع أجزاء دولته مع توافر أسباب المعيشة فيها .

شرع المنصور في بناء **بغداد** التي سميت بالمدينة المدورة في بادئ الأمر وسميت كذلك **مدينة السلام** ، بعد أن أحضر لها المهندسين والبنائين

والنجارين والحدادين والحفارين ، الذين بلغ عددهم جميعاً مائة ألف شخص ، من مختلف بلاد الشام والعراق . وعهد إلى من يثق بفضلهم وعدالتهم وأمانتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب .

هذا ولقد احتفل أبو جعفر المنصور بوضع حجر الأساس للمدينة عام ١٤٥ هـ . احتفالا رائعاً شهده رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والقواد والأعيان وخلق كثير .

جعل أبو جعفر المدينة دائرية الشكل ، ووضع مسجده الذي بلغت مساحته ٤٠ ألف ذراع مربع وقصره الذي بلغت مساحته ١٦٠ ألف ذراع مربع ، في وسط المدينة ولم يجعل حولهما بناءً آخر سوى الدار التي بناها للحرس من ناحية باب الشام ، وسقيفة لصاحب الشرطة .

وبعد ذلك بنيت قصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ، وبعدئذ مساكن الأهلين والأسواق .

جعل للمدينة أربعة شوارع رئيسية ، تخترق الدائرة وتتصل بالأبواب الأربعة للمدينة . وتتفرع من هذه الشوارع ، عدة شوارع فرعية . أحاط المدينة بسورين ، المسافة بينهما ستون ذراعاً . أما السور الداخلي ويسمى سور المدينة فكان عرضه من أسفل ٥٠ ذراعاً ومن أعلى ٢٠ ذراعاً وأما السور الخارجي ويسمى بسور الفصيل فكان ارتفاعه ثلاثين ذراعاً وعرضه كعرض السور الداخلي وحوله من الخارج خندق عميق أجرى فيه الماء من النهر . ولهذا السور أربعة أبواب هي : باب البصرة وباب الكوفة وباب خراسان وباب الشام . وعلى السور أبراج سمك الواحد منها خمسة أذرع وبنيت عليه الشرفات . وكان يصل بين الباب الموجود في السور الخارجي والباب المقابل له في السور الداخلي دهليز وساحة .

وبعد أن فرغ أبو جعفر المنصور من بناء بغداد ، أقطع أعيان دولته قطعاً من الأرض رغبة منه في تخفيف الضغط على بغداد التي ازدحمت بالسكان من جهة ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من جهة أخرى .

لقد قسم أبو جعفر المنصور بغداد إلى أربعة أرباض جعل على كل منها رئيساً وعهد إلى كل رئيس إقامة سوق في القسم الذي يشرف عليه ، كما أمر أن تخطط الشوارع والدروب بحيث تكون المباني منتظمة وأن يسمى الشارع أو الدرب باسم القائد أو الرجل الشائع الذكر الذي يقيم فيه . وذلك كما تفعل البلديات في الوقت الحاضر .

وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات كما نمت بغداد بشكل عام وامتدت أبنيتها على ضفتي نهر دجلة وأطلق على الجانب الشرقي منها الواقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة اسم الرصافة وعلى الجانب الغربي منها الواقع على الضفة الغربية لنهر دجلة اسم الكرخ ولا تزال هذه التسمية باقية حتى اليوم .

الزهراء : عندما تولى عبد الرحمن الناصر حكم الأندلس ، كانت قرطبة عاصمة الدولة الإسلامية هناك وكان عدد سكانها ٥٠٠ ألف نسمة ولا يقل عدد دورها عن ١١٣ ألف دار عدا المساجد التي بلغت ثلاثة آلاف والقصور والحمامات وغيرها . ومع ذلك فقد قام عبد الرحمن الناصر ببناء مدينة الزهراء لتكون مقراً له أسوة بغيره من الخلفاء الذين سبقوه مثل : أبي جعفر المنصور باني بغداد ، وعبيد الله المهدي باني المهدية .

وضع الناصر أساس مدينة الزهراء عام ٣٢٥ هـ على سفح جبل العروض وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الشمال الغربي من قرطبة . وقد بدأ ببناء قصره المدعو قصر الزهراء الذي يعتبر من مفاخر فن المعمار الإسلامي . وقد أطنب المؤرخون والرحالة والشعراء في وصفه ووصف المدينة ككل . كما بنى المسجد الجامع الذي لم يكن مكاناً للعبادة فقط بل مركز الحركة السياسية والاجتماعية والعلمية . وهذا المسجد يعتبر من روائع الفن الإسلامي . كما بنى الدور الفسيحة للحيوانات ومسارح الطيور ودور الصناعة الحربية وأدوات الزينة .

٦ ــ **مدينة القاهرة** : بعد أن أتم جوهر الصقلي ، قائد المعز لدين الله الخليفة الفاطمي فتح مصر عام ٣٥٨ هـ ، فكر في تأسيس مدينة جديدة بدلاً من

الفسطاط والعسكر ، تكون عاصمة للفاطميين ومركزاً لنشر دعوتهم الدينية وحصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين أخذوا يهددون الحدود الشمالية لمصر .

بدأ جوهر في وضع أساس مدينة القاهرة وأساس قصر المعز لدين الله ، ثم اختطت كل قبيلة من قبائل البربر حيًّا خاصاً بها . ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة أقام السور حوله . كما أحاط المدينة بسور كبير من اللبن وجعل فيه عدة أبواب أشهرها باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح وباب العيد .

ومن المعالم البارزة في مباني القاهرة الفاطمية الجامع الأزهر الذي وضع أساسه جوهر الصقلي في ١٤ رمضان عام ٣٥٩ هـ واستغرق بناؤه سنتين وأقيمت فيه صلاة الجمعة لأول مرة في ٧ رمضان عام ٣٦١ هـ .

أنشأ الفاطميون في القاهرة كثيراً من المنشآت العامة كالفنادق والحمامات والدكاكين التابعة للدولة . هذا بالإضافة إلى عدد من القصور والمساجد والمدارس والحصون والجسور وغيرها .

وبعد الدولة الفاطمية تعاقبت على القاهرة عدة عهود إسلامية عملت كلها على إضافة الكثير من المنشآت العمرانية المتنوعة .

٧ ـ **مدينة فاس** : بنى هذه المدينة الأدارسة زمن رئيسهم إدريس الثاني وذلك في موقع فسيح كثير المياه العذبة معتدل الهواء وبالقرب منه غوطة كثيفة الأشجار ممتلئة بالعيون والأنهار . فاشترى إدريس ذلك الموقع بستة آلاف درهم من أصحابه ووضع أساساً لمدينة فاس في غرة ربيع الأول عام ١٩٢ هـ مبتدئاً بعدوة لثلاثمائة أسرة جاءت من قرطبة هرباً من الحكم الأول الأموي وأحاط إدريس هذه العدوة فيما بعد بسور . ثم وضع إدريس أساساً لعدوة القرويين الذين قدموا من القيروان وأسكن عليها ثلاثمائة أسرة . وكان ذلك عام ١٩٣ هـ وأحاط هذه العدوة فيما بعد بسور كذلك . ثم أخذ إدريس الثاني في بناء المسجد الذي يعرف باسم مسجد الشرفا وهو مسجد مولاي إدريس اليوم وأقام فيه الخطبة . ثم أخذ في بناء داره المعروفة بدار القيطون . ثم بنى القيسارية إلى جانب

المسجد الجامع . ثم بنى الأسواق من كل جانب وطلب إلى الأهلين إقامة المباني بعد أن وهب لهم أماكن تلك المباني . وفي ذلك الوقت وفد على إدريس جماعة من الفرس وأسكنهم في فاس .

اتسعت مدينة فاس كثيراً وازداد عدد سكانها وغرست الكروم والحدائق على ضفتي نهر سبو وأقام التجار وأرباب الحرف في تلك المدينة . توافرت في فاس المزايا التي يجب أن تتوافر في المدن الجميلة كما قال أحد الحكماء . ففيها النهر الجاري والحرث الطيب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان .

٨ ــ مدينة الرباط : بنيت هذه المدينة زمن الخليفة الموحدي يعقوب المنصور على الساحل ليسهل عليه إرسال النجدات منها إلى الأندلس ولتكون المقر الصيفي له ولجنوده . وقد أتم البناء خلال بضعة أشهر وبنى فيها المساجد والمدارس والقصور . ونظم المدينة بحيث جعل حياً خاصاً بكل جماعة من السكان كالصناع والتجار والأدباء وغيرهم .

ازدهرت الرباط بسرعة حتى أصبحت من أغنى المدن الأفريقية وساعد على ذلك جودة موقعها ورواج تجارتها وكونها مقراً للحاكم الموحدي خلال الفترة ما بين شهري نيسان وأيلول . وهذا الازدهار أدى إلى اتساع رقعتها . ولقد أصبحت الرباط حاضرة المغرب الأقصى منذ عام ١٩١٢ م .

أما المدن التي كانت موجودة قبل ظهور الإسلام واتخذها المسلمون عواصم لهم بعد أن زادوا في عمرانها لدرجة أصبحت مدناً إسلامية خالصة من ناحية الفن العمراني والتنظيم فهي :

دمشق : كانت دمشق قبل الفتح الإسلامي مقر حكام الروم . وقد أصبحت عاصمة للدولة الأموية منذ تأسيس تلك الدولة على يد معاوية بن أبي سفيان .

وكلمة دمشق اشتقت من الدمقس وهو نوع من الحرير الذي اشتهرت به تلك المدينة قبل الإسلام .

شيَّد فيها معاوية قصر الخضراء . وعمل الوليد بن عبد الملك على تجميل المدينة وضواحيها بالمباني العامة كما بنى المسجد الأموي الذي لا يزال قائماً حتى اليوم . ومن آثار الأمويين الباقية في دمشق مجاري المياه والقنوات التي بلغت من الدقة بحيث أصبح لكل دار في المدينة نافورة خاصة بها .

هذا وقد توالت على دمشق عهود إسلامية متعددة عمل كل عهد على زيادة مبانيها واتساع رقعتها لا سيما في العهد الأيوبي والمملوكي والعثماني .

مدينة قرطبة : بعد أن وطد عبد الرحمن الأول (الداخل) الحكم الأموي في الأندلس ، اتخذ مدينة قرطبة عاصمة لإمارته وبنى فيها القصر والمسجد الجامع . وقال المَقَّري في كتابه نفح الطيب ص ٢١٧ ، ٢١٨ إن عبد الرحمن الداخل اختار قرطبة مقراً له لاتساعها ووفرة مبانيها الضخمة ، ولوجود النهر الذي يجري فيها ، ولهوائها المعتدل ، ولخصب تربتها ، ولموقعها المتوسط بين شرقي الأندلس وغربها .

ولقد جمَّل عبد الرحمن الداخل قرطبة بالرياض والقصور وجلب المياه العذبة بواسطة أنابيب الرصاص وتصب في أحواض الرخام ذات النقوش البديعة . ولما تولى هشام بن عبد الرحمن الحكم ، جمَّل قرطبة بالمباني الضخمة والبساتين النضرة وجدد قناطر المياه بشكل محكم . هذا ولقد عني عبد الرحمن الأوسط بتعمير قرطبة وتجميلها بالقصور الفخمة وبحيرات المياه والبرك البديعة والصهاريج الغريبة والقباب العالية .

أسئلة

اكتب مذكرات مختصرة في وصف كل من المدن التالية :

أ ــ البصرة ، ب ــ الفسطاط ، جـ ــ القيروان ، د ــ فاس ، هـ ــ قرطبة .

٢ ــ علل ما يأتي :

أ ــ بناء القاهرة ب ــ اختيار عبد الرحمن الداخل مدينة قرطبة .

جـ ــ تأسيس مدينة القيروان .

الفصل الرابع

ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشارها

لعل من أبرز الدعامات وأقواها التي قامت عليها الحضارة الإسلامية دعامتان هما : الدين ، واللغة العربية .

أما الدين الإسلامي : فقد شع نوره في الجزيرة العربية وعم أرجاءها كلها . ثم حمل لواء ذلك الدين الحنيف قادة الفتح الإسلامي ومجاهدوه بعزم وقوة وإيمان لا يتزعزع حتى إنه لم تمض فترة وجيزة لا تتجاوز القرن من الزمان إلا وعمت تعاليم هذا الدين القويم مساحة واسعة جداً من الكرة الأرضية من الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن شمال البحر الأسود وسهول سيبيريا شمالاً إلى المحيط الهندي جنوباً . وكيف لا تعم هذه التعاليم السمحة تلك المساحة الشاسعة والدين الإسلامي هو دين المساواة والرحمة والتسامح والإنسانية ودين العمل والعلم إذ « لا فَضْلَ فيه لعَرَبيٍّ على عجميٍّ إلا بالتَّقْوى ، والنَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كأسْنان المِشط » ، « والرَّاحِمُونَ يَرْحمهُم الرَّحمن » ، « اِرْحَمُوا مَنْ في الأرض ، يَرْحمكُمْ من في السَّماء » ، وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] و ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

هذه الأمور كلها وغيرها مما لا يمكن حصره ، دخلت قلوب الشعوب التي فتحها المسلمون فاعتنقوا الدين الإسلامي عن رغبة لا عن رهبة لأنه أزال عنهم كابوس الظلم الذي كانوا يئنون تحته وساوى بين غنيهم وفقيرهم وترك لهم حرية العمل في المجال الذي يريدونه ، وأبقاهم في ديارهم آمنين مطمئنين .

وأخطأ الذين قالوا إن الإسلام فُرِضَ بحد السيف على الشعوب المغلوبة ولكن اعتناق تلك الشعوب الدين الإسلامي كان عن رغبة صادقة حتى ظهر

---

(١) من آية ١٠٥ سورة التوبة .

(٢) من آية ٩ سورة الزمر .

من بين تلك الشعوب أئمة في العلوم الدينية وغيرها .

لقد استطاع الإسلام بوصفه رابطة قوية أن يحافظ على أواصر الوحدة العقلية التي انبثقت منها الحضارة الإسلامية ، في البلاد التي شع نوره عليها ، فاستمرت تلك الوحدة قائمة عصوراً طويلة رغم انحلال الوحدة السياسية التي ظهرت في العصور المتأخرة التي كانت تربط البلاد العربية والإسلامية في ظل حكومة واحدة . فكان رجال العلم المسلمون يقابلون بالترحاب أينما حلوا .

إن الدين الإسلامي الحنيف عني عناية تامة بالعلم الذي هو أصل الحضارة وينبوعها الأول . فأعزه وأعلى قدره ورفع العلماء إلى مكانة عالية . وليس أدل على ذلك من الآيات الكريمة الكثيرة التي وردت في كتابه العزيز . وكانت أول تلك الآيات ما نزل في سورة العلق والتي كانت أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (١)

والأحاديث النبوية في مجال العلم كثيرة متعددة منها قوله عليه الصلاة والسلام :

« طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

« إذَا مَاتَ ابن آدم انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا من ثَلاثٍ : صَدَقَةٌ جَارِيَة ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ به أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ »(٢) .

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فيه عِلْماً ، سَهَّلَ الله له طَرِيقاً إلى الجَنَّة » .

وكما حث الدين على العلم ، حض على العمل ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً فَيَأْكلَ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إلا كَانَ لَه به صَدَقة » .

وفي هذا كله يتضح أن الحضارة الإسلامية بجميع ألوانها ما هي إلا أصداء للإسلام وإن العلم والإنتاج والتعمير هي من مقتضيات الإسلام . لأن الإسلام

(١) الآيات (١ ـ ٥) من سورة العلق . (٢) رواه مسلم .

دين العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة في الدنيا والآخرة .

أما اللغة العربية : فقد أجمع الباحثون على أنها أغنى اللغات السامية مادة وأوسعها أفقاً . كيف لا وقد نزل القرآن الكريم بلغة الضاد فأعلاها شأناً وزاد في غناها وثروتها وتثبيت أركانها . ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم بآياته المحكمات يعتبر مثلاً فريداً في قوة البلاغة وسحر البيان لقد استطاعت اللغة العربية بقوتها وقوة الناطقين بها أن تنتصر في جميع البلاد التي فتحها العرب المسلمون من المحيط إلى الخليج فحلّت محل اللغات المنتشرة آنذاك مثل : اليونانية واللاتينية والسريانية والبربرية والقبطية وغيرها . وأما الدول التي اعتنقت الإسلام والتي حافظت على نفسها مثل الفرس والأتراك فقد اتخذوا من اللغة العربية أداة للعلم والأدب . وأخذ الفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية . كما تم تدوين ما عرفته بلاد فارس من علوم بلغة العرب . أما الترك الذين ضموا فيما بعد الأقطار العربية إلى دولتهم ، فقد استخدموا الخط العربي في كتاباتهم وأصبح لا يوجد إنسان تركي متدين على شيء من التعليم إلا ويستطيع قراءة القرآن بسهولة ويسر .

إن اللغة العربية بمفرداتها وأصالتها وغناها واشتقاقاتها وسهولة نحتها ليس بالكثير عليها أن تصبح أداة حضارية عظيمة . ولقد رأيت في دراستك السابقة في هذا الكتاب الكثير من الكلمات الأجنبية ذات الأصل العربي في شتى مجال العلوم والصناعات والفنون والتنظيم العسكري .

لقد حفظت اللغة العربية تراث الأمم القديمة كاليونان والرومان والفرس وذلك لأن علوم أولئك الأقدمين قد ترجمت إلى اللغة العربية . كما أن اللغة العربية كتب بها منجزات العرب والمسلمين في شتى المجالات . وبالتالي نقلت هذه العلوم من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية فكانت هذه بمثابة قاعدة عريضة بنيت عليها الحضارة الأوربية قبيل عصر نهضتها . هذا ولقد عني الكثيرون من علماء الغرب بترجمة الكتب العربية وما احتوته من علوم ومعارف .

ومما لا شك فيه أن حضارة أوربا الحديثة التي بنيت على جذور النهضة الأوربية التي أخذت ملامحها تظهر في القرن الثاني عشر الميلادي والتي أينعت ثمارها في إيطاليا بادئ ذي بدء في القرن الخامس عشر الميلادي ، قامت كلها على أساس واضح من الجانب المادي للحضارة الإسلامية في مختلف المجالات .

انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا :

وقبل أن نأتي إلى انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا ، نلخص بسطور قليلة الوضع الحضاري في أوروبا إبان العصور الوسطى التي كانت الحضارة الإسلامية خلالها على أرفع مستوى عرفته البشرية .

كانت أوربا في العصور الوسطى (٤٧٦م ـ ١٤٥٣م) ، التي يعرف الجزء الأول منها بالعصور المظلمة ، تغطيها في ذلك الجزء المظلم من تاريخها سحابة كثيفة من التأخر الحضاري . فالبلاد تئن تحت كابوس ثقيل من الجهل والتأخر والانحطاط الأدبي والعلمي والفني لا سيما وأن الكنيسة المسيحية سيطرت على التعليم ووجهته إلى الوجهة التي تريدها هي بحيث تجعل أفراد المجتمع لا يفقهون شيئاً من علوم الدنيا بل حصرتهم في إطار من دراسات بعيدة كل البعد عن الدراسات الإنسانية حتى يستمروا تحت سيطرتها ونفوذها . ولقد كفَّرت الكنيسة . كل من حاول أن يحيد عن الخط التعليمي الذي رسمته .

هذا بالنسبة للتعليم في تلك الحقبة من الزمن . أما من حيث الجانب المادي من الحضارة ، فكانت معظم أوربا تكسوها الأحراش والمستنقعات وتنتشر فيها الأمراض والأوبئة،فلا طرق معبدة ولا مزارع مثمرة ولا مساكن مريحة ولا أي شيء من معالم الرقي الحضاري . لقد استمر الوضع في أوربا على هذا النحو من التأخر ، حتى أوائل القرن الحادي عشر الميلادي عندما بهرت عيون الأوربيين معالم الحضارة الإسلامية فاستيقظوا من سباتهم وأخذوا يغترفون من معين تلك الحضارة بِنَهَمٍ وتَعَطُّشٍ .

والآن نستعرض كيف انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا عندما أخذت المدنية الإسلامية تشق طريقها إلى غرب أوربا مارة بثلاثة جسور أو معابر رئيسية . وهذه الجسور هي : إسبانيا التي كان تأثيرها في نشر الحضارة العربية الإسلامية في فرنسا . وصقلية التي كان تأثيرها في نشر الحضارة العربية الإسلامية بإيطاليا واضحاً . والشرق الأدنى والحروب الصليبية وتأثيرها في ألمانيا وفرنسا . وفيما يلي موجز لتوضيح دور هذه الجسور في الاتصال الحضاري بين العالم الإسلامي والغرب الأوربي .

إسبانيا : لقد فتح المسلمون هذا القطر في مستهل القرن الثامن الميلادي ، ولم تكن إسبانيا بأفضل من باقي الدول الأوربية في المجال الحضاري بل الكل كان يعيش في جهل وتأخر وفوضى بسبب النزاع الاجتماعي والانحلال الداخلي والخلافات الطائفية والحروب على السلطة .

ولما فتح المسلمون تلك البلاد ، نقلوها إلى مرحلة من الاستقرار والبناء . فأحيوا الأرض بعد موتها ، وعمروا المدن الخربة ، ونشطوا التجارة الكاسدة ، وأنعشوا الصناعة المتأخرة حتى أصبحت عاصمتها قرطبة ـ عاصمة الأندلس في ظل الخلافة الأموية ـ أغنى الأقطار الأوربية وأكثرها ازدحاماً بالسكان . ثم انصرف المسلمون إلى العناية بالعلوم والآداب والفنون، فابتكروا وزادوا وجددوا أشياء كثيرة،وهذا مما جعل من مناهل العلم في إسبانيا مورداً عذباً لأوربا .

لقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها بالأندلس وذلك في النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد عندما أصبحت قرطبة من أعظم مدن العالم المتحضر وقد حق لهؤلاء السكان أن يفخروا بأنهم يستطيعون المشي في شوارعها ليلاً على ضوء المصابيح العامة في حين ظلت لندن سبعة قرون لا يوجد في طرقها مصباح عام واحد يضيء ليلاً . لقد استمر نور الحضارة الإسلامية ساطعاً في الأندلس في مختلف مجالاته حتى امتد ليضيء غرب أوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وما بعدهما .

لقد ساعدت على انتشار النهضة سياسة التسامح تجاه أهل الذمة في أقطار

الدولة الإسلامية ، ومن بينها الأندلس ، التي أقبل أهلها الإسبان على استخدام اللغة العربية التي فضلوها على اللاتينية . كما تتلمذ الكثير منهم على الأساتذة المسلمين وبذلك كوَّن هؤلاء مدرسة استطاع أعضاؤها الطلبة القيام بدور السفراء بين الحضارة الإسلامية وأهل غرب أوربا ، لا سيما فرنسا ، الذين كانوا في لهف للاستفادة من تلك الحضارة الزاخرة بضروب العلم والمعرفة ومختلف الفنون والصناعات . ولقد قال أحد الكتّاب المسيحيين من الذين عاشوا في القرن التاسع الميلادي : « إن المسيحيين كانوا يدرسون كتب فقهاء المسلمين ليتعلموا الأسلوب العربي البليغ ، وإن المتعلمين منهم أقبلوا على كتب العرب في نَهَمٍ وشغف وأخذوا يجمعونها بمكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي كانوا يحتقرون فيه الكتب المسيحية » .

ولقد ازداد تدفق سيل الطلبة على جامعات الأندلس لا سيما بعد أن أخذت بعض المدن تسقط في أيدي المسيحيين ، هذا وقد نشطت حركة الترجمة عن اللغة العربية نشاطاً كبيراً حتى إنه عام ١١٣٠م بدأ مكتب للترجمة في طليطلة بنقل الكتب العربية إلى اللاتينية تحت رعاية أحد الأساقفة . ومن بين ما ترجم مؤلفات الرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم . كما ترجم عن العربية كثير من مؤلفات اليونانيين أمثال جالينوس وإبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وغيرهم . ولقد اهتم بعض حكام إسبانيا المسيحيين بالثقافة العربية الإسلامية مثل الفونس الخامس ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤ م) .

هذا ولقد استمرت حركة الترجمة هذه حتى القرن الخامس عشر الميلادي . كما استمرت ترجمات الكتب العربية تدرس في الجامعات الأوربية طوال ستة قرون .

أما صقلية : وهي التي تشكل الجسر الثاني التي انتقلت منها الحضارة الإسلامية إلى جنوب ثم وسط أوربا ، فإنه عندما ثبّت المسلمون أقدامهم في تلك الجزيرة إبان القرن التاسع الميلادي ، اهتموا بالزراعة فحفروا الترع والقنوات

وأنشأوا المجاري المعقودة ، وأدخلوا زراعة القطن وقصب السكر واستغلوا ثروة الجزيرة المعدنية فاستخرجوا الفضة والحديد والنحاس والكبريت ، وأدخلوا إليها صناعة الحرير . أما التجارة فقد اتسعت بعد أن كانت متدنية جداً قبل مجيء المسلمين إلى تلك الجزيرة . ومع أن المباني الإسلامية الباقية في الجزيرة قليلة إلا أنها تشهد بروعة البناء وجماله . وحسبنا في ذلك ما ذكره الإدريسي في وصف بالرمو[1] إبان حكم روجر الثاني . إن الحضارة الإسلامية في الجزيرة لم تنته بانتهاء الحكم الإسلامي لها لكنها وجدت في ملوك النورمان خير مشجع لها لأنهم أدركوا ولمسوا تقدم عرب ومسلمي صقلية في العلوم والفنون والصناعات ، وإن التشجيع لهؤلاء يعود عليهم بفوائد عظيمة . ومن الأمثلة على هذا التشجيع ما قام به روجر الأول ملك صقلية النورماني (١٠٦١ — ١١٠١ م) من العناية بالمسلمين وحمايتهم . ولم يقتصر على هذا فحسب بل كتب مراسيمه باللغة العربية إلى جانب اللاتينية واليونانية . وكذلك كتب على أحد وجوه النقود بالعربية والآخر باليونانية واللاتينية واشتمل بعض تلك النقود على رمز الإسلام والآخر على رمز المسيحية .

واتخذ ملوك النورمان بصقلية لأنفسهم حراساً من العرب كما أن الشعر العربي كان يمارس في بلاط ملوك صقلية النورمان . وقد اعتنى فردريك الثاني (القرن الثاني عشر الميلادي) بكتب وعلوم المسلمين وأحاط نفسه بمظاهر شرقية إسلامية وجمع حوله العلماء المسلمين كما شجع ترجمة الكتب العربية .

ومن صقلية انتقلت الحضارة الإسلامية إلى إيطاليا التي سبقت ، بتأثير المسلمين ، باقي الدول الأوربية في الحضارة .

الشرق الأدنى والحروب الصليبية : كان لبلاد الشام والشرق الأدنى شأن كبير في نقل مظاهر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربي في العصور الوسطى

---

(١) بالرمو هي عاصمة صقلية .

وذلك عن طريق الحروب الصليبية التي نشأ عنها صلات سياسية وحضارية وتجارية بين المشرق الإسلامي والمغرب المسيحي . ولو أنه يحسن ألا نغالي في أهمية هذه الحروب كمدخل للحضارة الإسلامية إلى أوربا لأن الصليبيين جاءوا للحرب والمنافع الاستعمارية كما أن مدة وجودهم في المشرق العربي كانت غير مستقرة لمباشرة النشاط الفكري والحضاري . ولم تتح لهم كذلك فرصة الاتصال بالمسلمين كالفرصة التي أتاحت لسكان كل من إسبانيا وصقلية الاتصال بهم .

نعم إن الصليبيين أقاموا وحدات لهم في بلاد الشام لكنها كانت بمثابة قلاع عسكرية متناثرة في وسط محيط من المسلمين . ومع كل هذا فإنه لا بد من وجود اتصالات حضارية وثقافية بين المسلمين والصليبيين . فمن الناحية اللغوية دخلت كلمات ومصطلحات عربية في اللغات الأوربية . كما أن الحروب الصليبية أثرت في تطوير فن الحرب عند الأوربيين لا سيما فيما يتعلق ببناء القلاع والحصون واستخدام آلات الحصار والدروع وألعاب المبارزة واستخدام الإشارات العسكرية (الرنوك) . كان كل ذلك نتيجة لاتصال الصليبيين بمسلمي بلاد الشام . ولا ننسى أن الأتصال التجاري بين المشرق الإسلامي وأوربا في فترة الحروب الصليبية وما بعدها ، أدخل الكثير من السلع الشرقية والنباتات والعادات والنظم الإسلامية إلى أوربا .

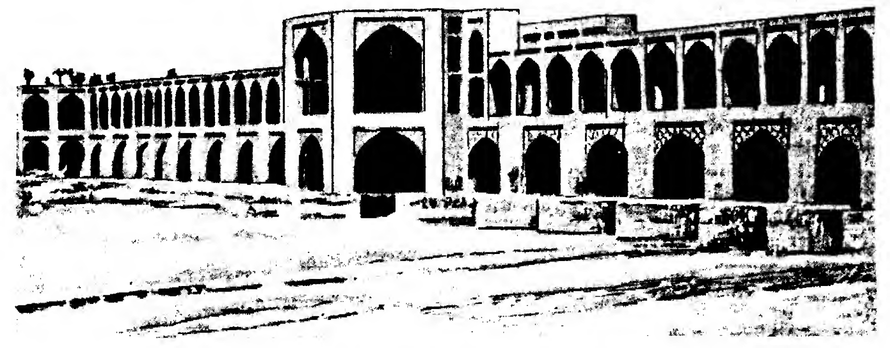
وللوقوف على منابع الحضارة الإسلامية فإن كثيراً من علماء وفناني أوربا قد طافوا بالبلاد الإسلامية مشرقها ومغربها للتعرف عن كثب على ما قام به المسلمون في مختلف أوجه الحضارة .

جانبا الحضارة الإسلامية المادي والمعنوي :

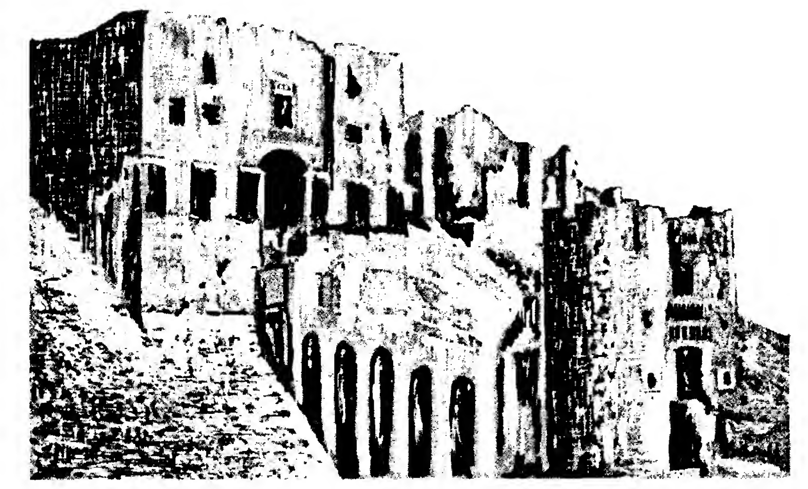
في ضوء كل ما تقدم يتضح أن ما اقتبسته أوربا من حضارة إسلامية كان الجانب المادي من تلك الحضارة الزاهرة .

وذكر الجانب المادي هذا يقودنا إلى ضرورة التحدث عن جانبي الحضارة

نماذج من أنواع المنشئات الإسلامية



جسر فوق نهر زنده رود في اصفهان



قلعة حلب



«رباط صوصة» في تونس

شكل (٣١)

الإسلامية المادية والمعنوية .

أما الحضارة المادية فهي ما يدرك ثمارها الإنسان بحواسه كالزراعة والصناعة والتجارة والعمران وكل ما يتصل بها من دراسات ونظريات وابتكارات والتي سبق أن تناولناها بالحديث في الأبواب والفصول السابقة . أما الحضارة المعنوية فهي تلك الحضارة الإنسانية العالمية بكل ما في كلمة إنسانية من معنى ، والتي نصت عليها تعاليم الدين الإسلامي الحنيف بكل تفاصيلها ، فهي تتعامل مع الإنسان من حيث كونه إنساناً بغض النظر عن اللون والجنس واللغة والدين والوطن . وهي الحضارة التي توفر السعادة الروحية لبني البشر ، إذ الحضارة المادية وحدها لا تكفي لتوفير السعادة للأفراد ، إن لم تكن سبباً في تعقيد الحياة وزيادة المتاعب والقلق والاضطرابات النفسية .

ولاكتمال السعادة لا بد من إيجاد حضارة متوازنة بشقيها المادي الذي تتجسم فيه مظاهر التقدم والرخاء ، والروحي الذي يجلب للمرء صفاء النفس والطمأنينة والارتياح ونقاء السريرة والبعد عن الخداع والكذب والرياء والأنانية .

إن هذه الحضارة المتوازنة المتكاملة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف وشريعته السمحة . وكل ركن من أركان الإسلام له دوره في تأسيس الحضارة الإسلامية وبنائها .

فالركن الأول من أركان هذا الدين القويم وهو وحدانية الخالق عز وجل وقدرته على كل شيء وعدالته المطلقة وهو المعبود الوحيد وهو الرحمن الرحيم . هذه كلها تحرر النفس البشرية وترفع معنوياتها وتصقل مشاعرها فيحسّ المسلم أنه أخو المسلم لا يرهبه ولا يخشى إلا الله . وهذا النوع من المساواة النفسية التي أغفلها العالم المتقدم صناعياً ، تعتبر نقطة البداية في مجرى حياة الإنسان وما يصنع . لأن الإنسان متى آمن برب واحد له كل الصفات الحسنى ، يطمئن كل الاطمئنان فلا يخشى الفقر لأن الله هو الرزاق ، ولا يحرص على الحياة لأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت ، ويتحرر من عبودية المنصب لإيمانه بأن الله هو مالك الملك ، ولا يخشى من أن يهضم حقه لأن الله أحكم

الحاكمين . هذه الأمور والإحساسات كلها ترفع من شخصية الفرد لازدياد صلته المباشرة بالله تلك الصلة التي وضحها الله تعالى في أماكن كثيرة من كتابه العزيز :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[1] .

إن الإنسان متى شعر بكل هذا الاطمئنان وراحة النفس والضمير ، أصبحت عنده القدرة على العمل والإنتاج والابتكار . وأصبح لديه الاطمئنان الكافي والراحة النفسية لنتائج ما يقوم به من أعمال لخيره وخير المجتمع .

وفي الصلاة بأوقاتها وما لها من تأثير في النهي عن الفحشاء والمنكر ولما تحتويه من ذكر الله عز وجل تجعل المرء يراقب نفسه ويقوِّمها في إطار هذا الركن من أركان الإسلام ، كما أن في صلاة الجماعة ما يقوّي ارتباط المرء بأفراد مجتمعه ويتأصل فيه حب العمل الجماعي الذي له نتائجه في كل المجالات . والصوم وما فيه من ترويض للنفس وكبح جماحها عن شهواتها خلال فترة من الزمن ، تجعل المرء في وضع يمكنه من تحمل كل ما يتعرض له من صعوبات خلال حياته . التحمل والصبر يجعلان الإنسان دؤوباً على العمل المتواصل للوصول إلى أفضل النتائج . وفي الزكاة وما في مال المرء من حق للسائل والمحروم تقريب الشقة بين الغني والفقير وتكوُّن مجتمع متحاب عنده القدرة التامة على التعاون وإنجاز الأعمال بكل يسر . وفي الحج الأكبر وتجمع الناس في مكان واحد وما ينتج عن ذلك من تواد وتحاب ومساواة وتبادل في العلوم والمعارف والمتاجر والآراء ، كل ذلك مما يكون مجتمعاً إسلامياً في إطار العقيدة السمحة ومما يساعد على نشر الحضارة الإسلامية بين الشعوب .

هذه الأركان كلها مجتمعة تكون حضارة روحية ، تكون مجتمعاً صالحاً طاهراً خالياً من الدنس ، أفراده يتحلون بالصدق والإخلاص والأمانة والعفاف والطهارة ومحاسبة النفس وضبط نوازعها وإيثار الحق وسعة النظر والقلب وعلو

---

١) الآية (١٨٦) من سورة البقرة .

الهمة والكرم والسخاء والفداء والتضحية والتواضع والشعور بالواجب والصبر والاستقامة والشجاعة والقناعة واحترام النظام والقانون .

وأي مجتمع أفضل من هذا المجتمع الذي يتحلى أفراده بكل هذه الصفات وأي حضارة أرقى وأفضل من هذه الحضارة التي تعمل على إيجاد مثل هذا المجتمع .

إنه متى وجدت هذه الصفات بين أفراد المجتمع ، استطاع وهو مطمئن البال وهادئ الأعصاب ومتفتح الذهن ، أن يصمم ويخترع ويبني وينتج ويسعى في مناكب الأرض ويتعامل مع الآخرين بالصدق والأمانة .

إن العالم المادي اليوم الذي بنى حضارته أصلاً على الجانب المادي من الحضارة الإسلامية وطور ذلك الجانب بحيث اخترع ما لم يكن في حسبان أحد . انحدر في مهاوي الرذيلة لدرجة لم تكن في حسبان أحد .

وعندما برزت هذه الحضارة البراقة إلى العالم أجمع انبهرت الشعوب ــ لا سيما النامية منها ونحن المسلمون منهم ــ بذلك البريق فأعمى العيون وصم الأذان عن كل فضيلة وعن كل مثل عليا ، فابتعد الأخ عن أخيه والقريب عن قريبه والجار عن جاره والمسلم عن المسلم وطغت عليه المادية المجردة وأصبح لا ينظر بغير هذا المنظار الضيق ونسي الله فأنساه نفسه .

إن ما ندعو إليه الآن ــ وقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه ــ أن نعود إلى رشدنا ونكون حضارة متكاملة روحياً ومادياً فنجمع بين الدين والدنيا وبذلك نكون حضارة متكاملة ومجتمعاً متحاباً متراصاً وأي شيء أفضل من هذه النتيجة وأي حضارة أرقى من حضارة كهذه .

وإذا ما أراد المسلمون التوصل إلى هذه النتيجة ، فلا بد من تفجير مختلف القوى والإمكانات التي يتمتع بها الإسلام ، والتخلص من كل عوامل التخلف (عد بذاكرتك إلى ما سبقت دراسته في الصف الثاني الثانوي بهذا الصدد) وإن ما ينبغي عمله لتحقيق ذلك لا يمكن أن يقوم به شخص واحد بمفرده . إذ إن الصفات الفردية اللازمة لذلك الشخص الذي يأخذ على عاتقه مثل هذا الواجب الخطير تشمل بصفة أساسية ما يأتي :

١ ـ معرفة تامة بالقرآن الكريم وبكل ما يتصل به .
٢ ـ حفظ القرآن عن ظهر قلب مع معرفة تفسيره .
٣ ـ معرفة تامة بالأحاديث النبوية الشريفة ، أو على الأقل ثلاثة آلاف منها .
مع معرفة بمصادرها وتاريخها وأغراضها وعلاقاتها بالتشريعات التي جاءت في القرآن .
٤ ـ حياة ورع وتقشف وعفة وتجرد .
٥ ـ معرفة تامة بعلوم القانون والعلوم الأخرى .
٦ ـ معرفة تامة بمذاهب الفقه الإسلامي .
٧ ـ معرفة تامة بما لدى الأمة الإسلامية والعربية من إمكانات مادية وثقافية وعلمية .

ولما كان من الصعب توافر كل هذه الصفات والإمكانات في شخص واحد ، فإن الحل يتطلب إحالة هذا العمل إلى مجلس متخصص يتولى هذه الشئون للحيلولة دون أي خوف أو وجل من الانشقاق الديني في المجتمع الإسلامي .

وحتى تكون للمجلس القدرة على التخطيط والتنفيذ لعمل عظيم من هذا القبيل ، لا بد وأن يكون أعضاؤه لهم مكانتهم العلمية في مختلف مذاهب الفكر وشتى العلوم في كافة الأقطار العربية والإسلامية . ولا بد من أن يعي هؤلاء الأعضاء على وجه الدقة الغرض الذي من أجله أسس هذا المجلس الذي يتمثل في دراسة العقيدة الإسلامية ، وتطورها الثقافي والتاريخي والسياسي والاقتصادي والحضاري ، ثم استنباط تفسيرات سليمة تعمل على تقدم الشعوب الإسلامية . كما يتمثل ذلك الغرض في دراسة التراث الثقافي المتراكم فيختار منه ما ينفع ويطرح جانباً ما لا قيمة له . ثم يرسم خطة العمل على هذا الأساس . وبعدئذ يبدأ العمل والبناء على قاعدة متينة سداها ولحمتها القسم النافع من تراثنا ، مستغلين بذلك كل الطاقات الروحية والبشرية والمادية في الأقطار العربية والإسلامية للوصول إلى الهدف المنشود .

ولعل خير من يتولى هذا العمل الضخم الذي يتوقف عليه رفعة الأمة العربية والإسلامية ويجعلها تتبوأ مكانتها المرموقة بين الأمم ، الرابطة الإسلامية التي أصبح لديها من التنظيم الديني والفكري والمالي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والإداري ما يمكنها من تحقيق الأهداف المنشودة، لا سيما بعد أن تنال هذه الرابطة الدعم كل الدعم والمساندة كل المساندة في مختلف المجالات من كافة الأقطار الإسلامية والعربية والتنسيق التام بينها وبين المنظمات الإسلامية والعربية الأخرى . وفي هذا كله نكون حضارة إسلامية عربية متكاملة مادة وروحاً . وما ذلك على الله بعزيز .

أسئلة

أجب عن الأسئلة التالية :

١ ــ «قامت الحضارة الإسلامية على دعامتين رئيستين» .
اشرح ذلك باختصار .

٢ ــ كيف انتقلت الحضارة الإسلامية إلى غرب أوربا ؟

٣ ــ وضح الجانب المعنوي من الحضارة الإسلامية .

٤ ــ ما دور أركان الإسلام في تأسيس الحضارة الإسلامية ؟

٥ ــ عدد الصفات التي يجب أن يلتزم بها الفرد المسلم لتكوين حضارة متكاملة .

أسئلة للمراجعة العامة

١ - علل لما يأتي :

(أ) عدم ثبات مورد الجزية .

(ب) عدم وجود الحجابة في عصر الخلفاء الراشدين .

(جـ) قيام الحضارة الإسلامية على جانبيها الروحي والمادي .

٢ - أختر الأجابة المناسبة من بين الكلمات التي بين القوسين :

(أ) يُصرف على دواوين الدولة من موارد (الزكاة - الخراج)

(ب) توجد مكتبة دار الحكمة في (القاهرة - بغداد)

(جـ) تقوم الحضارة الغربية على الجانب (المادي - الروحي)

(د) من أجل أستقلال الاقتصاد الإسلامي ، سك الخليفة (معاوية بن أبي سفيان - عبد الملك بن مروان) العملة العربية .

٣ - في أي بلد توجد تلك المدن :

الزهراء - فاس - البصرة - الفسطاط - القيروان .

٤ - ما أشهر المساجد في تلك المدن :

القاهرة - المدينة المنورة - مكة المكرمة .

٥ - أجب بعلامة (/) صح أمام العبارات الصحيحة ، وعلامة (×) خطأ أمام العبارات غير الصحيحة :

(أ) كانت الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين تقوم على الشورى .

(ب) وزارة التفويض ، ينحصر عملها في تنفيذ أوامر الخليفة .

(جـ) أنتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريق (بلاد الأندلس - صقلية - المشرق العربية) .

(د) لم تعرف الوزارة في العهد العباسي .

٦ - أكتب مذكرات تاريخية مختصرة عن :

(أ) العواصم والثغور .

(ب) موارد ومصروفات الدولة الإسلامية .

(جـ) تطور معاهد التعليم في الدولة الإسلامية .

(د) تطور صناعة الورق .

٧ - الحضارة الإسلامية .

ناقش - نشأتها - وتأثُرها بغيرها - تقدمها - أثَرُها في غيرها .

المراجع

القرآن الكريم

الأحاديث النبوية الشريفة

مناع القطان — مباحث في علوم القرآن

أحمد السيد الكومي وزميله — علوم القرآن

حسن إبراهيم حسن — النظم الإسلامية

صبحي الصالح — النظم الإسلامية

أنور الرفاعي — النظم الإسلامية

الماوردي — الأحكام السلطانية

الجهشياري — الوزراء

بدوي عبد اللطيف — النظام المالي المقارن في الإسلام

أبو الحسن الأندلسي — تاريخ قضاة الأندلس

عطيه مشرفة — القضاء في الإسلام

محمد شهير ارسلان — القضاء والقضاة

وكيع — أخبار القضاة

زكريا هاشم — فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم

لابن خلكان — وفيات الأعيان

غوستاف لوبون/ترجمة عادل زعيتر — حضارة العرب

آدم متز — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري

سعيد عبد الفتاح عاشور — المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية

حسن إبراهيم حسن — تاريخ الإسلام السياسي والحضاري

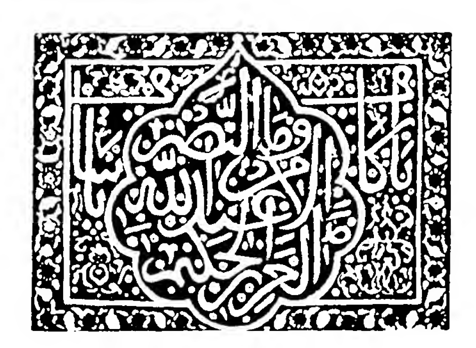
زيغريد هونكه — شمس العرب تسطع على الغرب

أبو صالح الألفي	الفن الإسلامي
نعمت عبد السلام إبراهيم	فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية
أرنست كونل/ترجمة أحمد موسى	الفن الإسلامي
قدري حافظ طوقان	تراث العرب العلمي (في الرياضيات والفلك)
محمد أبو زهرة	محاضرات في الوقف
أبو الأعلى المودودي	الحضارة الإسلامية/أسسها ومبادؤها
عباس محمود العقاد	أثر العرب في الحضارة الأوربية
محمد فاروق نبهان	الاتجاه الجماعي في التشريع الإسلامي
مولوي حسيني/ترجمة إبراهيم أحمد العدوي	الإدارة العربية

مقدمة ابن خلدون

دائرة المعارف الإسلامية

الموسوعة البريطانية



فهـــرس الكتـــاب

فهرس الأشكال التوضيحية

دار الأصفهاني للطباعة بجدة
رقم الترخيص ١٨ ص - ١٣٩٣/٤/٥هـ